

مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الرابع - المجلد الواحد والخمسون

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



مجلة المجمع العلمي

الفهـــرس

العلم والتقانة والإبداع

أ.د. داخل حسن جريو
رئيس المجمع العلمي

الملخص

لا تقتصر التقانة على تصنيع الأجهزة والمعدات حسب ، بل تتعداها لتشمل المعرفة وعمليات التصنيع والمهارة المطلوبة والبنى التحتية اللازمة لتحقيق ذلك.

والتقانة هي نتاج مشترك للعلم والهندسة. فبينما تكون العلوم معنية بدراسة الظواهر الطبيعية وفهم القوانين التي تتحكم فيها، فأن الهندسة تكون معنية بتحويل المعطيات العلمية إلى منتجات صناعية مفيدة . فصناعة رقيقة حاسوب مثلا اعتمدت على فهم عميق للخواص الكهربائية لمادة السليكون ومواد أخرى. وتصنيع دواء لمكافحة مرض معين يتطلب معرفة كيفية تفاعل البروتونات والجزئيات البايولوجية وتركيبها. وبذلك نرى إن العلوم الهندسية تستند إلى العلوم الأساسية لصنع المنتجات التقنية ولايمكن فصلها إذا ما أريد تحقيق نهضة تنموية شاملة في مجالات الحياة المختلفة. ترتبط التقانة اكثر بالإبداع الإنساني. ويتطلب الإبداع قدرات الإنسان الخلاقة وتوافر القدرات العلمية والتقنية. تسلط هذه الدراسة الضوء على بعض جوانب العلم والتقانة والإبداع وبعض سبل الارتقاء بها لأغراض التنمية الشاملة.

مقدمة

ساعد التقدم العلمي على تحسين الحياة البشرية كثيراً إذ أسهم بفاعلية في تحسين البيئة وتحسين مستويات معيشة الناس وتوفير أسباب رفاهيتهم ومكافحة الكثير من الأمراض وزيادة مناعة الناس ضد الكثير من الأمراض والوقاية منها عبر التلقيحات المختلفة وأساليب التعقيم وتنقية المياه وما إلى ذلك. وقد نجم عن ذلك زيادة معدلات أعمار الناس وتحسين نوعية حياتهم إذ تشير الدراسات إلى انه بفضل التقدم العلمي إزداد معدل أعمار الناس في عموم أنحاء العالم من ٤٦,٤ سنة في السنوات ١٩٥٠_١٩٥٥ إلى ٦٤,٤ سنة في السنوات ١٩٩٠_١٩٩٥ أي بزيادة ١٨ سنة. وتناقص عدد الناس الذين يعانون من سوء التغذية في العالم من ٩٤١ مليون شخص في العام ١٩٧٠ إلى ٧٨٦ مليون شخص في العام ١٩٩٠. وبرغم ما حققته البشرية من تقدم علمي واقتصادي هائل، فان أرجاء عديدة من العالم ما زالت تعاني من تخلف علمي شديد وفقر مدقع وامراض فتاكة عديدة إذ أن الدخل اليومي لربع سكان العالم لا يتجاوز دولاراً واحداً فقط، وان خمس سكان العالم لا يتمتع بأية رعاية صحية. لذا فان جهوداً حثيثة يجب أن تبذل للارتقاء بالعلوم والتقانة والإفادة منها بكل الوسائل الممكنة لأغراض التنمية المختلفة إذ تلعب اليوم العلوم والتقانة دورا هاما في التنمية الشاملة لأي بلد من البلدان، ذلك إنها تمثل المفاتيح الرئيسية لإيجاد الحلول الناجحة لجميع مشكلات التنمية وتحقيق الرفاهية لقطاعات المجتمع المختلفة. لقد ساعدت العلوم والتقانة الهند مثلا على التخلص نهائيا من شبح الجوع بعد أن أصبحت قادرة على تلبية حاجات سكانها الأساسية بفضل استخدامها الجيد لمعطيات العلوم والتقانة الحديثة. واصبحت الهند في

مصاف الدول المتقدمة جداً في مجال تقانة المعلومات وباتت تجني أرباحا" طائلة في مجال الصناعات البرمجية المستندة أساسا إلى هذه التقانة وهو أمر ساعدها كثيرا بتعزيز جهودها في مجالات التنمية الأخرى، فهي اليوم تحقق نتائج علمية باهرة في الكثير من الصناعات الإلكترونية والاتصالات والأقمار الصناعية والطاقة النووية وغيرها. ولا يختلف الحال كثيراً في أقطار نامية أخرى أبرزها الصين ودول جنوبي شرقي آسيا والبرازيل وشيلي والمكسيك إذ حققت هذه الدول معدلات تنمية عالياً قياساً إلى الدول الأخرى بفضل سياساتها العلمية الرشيدة التي نجم عنها تطورات صناعية ذات مردودات اقتصادية كبيرة كان لها أثرها الواضح بتحسين ظروف شعوبها الاقتصادية. كما استطاع العالم التخلص نهائيا من أمراض فتاكة عديدة أو الحد منها بدرجة كبيرة مثل أمراض الجدري وشلل الأطفال وغيرها.

يشهد العالم حالياً انقساماً حاداً في امتلاك العلم والتقانة إذ يشير تقرير أكاديمية العالم الثالث لعام ٢٠٠٤ إلى أن ٤٠ دولة فقط من مجموع دول العالم البالغة ١٩٢ دولة تصنف بأنها دول متطورة علمياً ويتمتع سكانها بمستوى معيشة عال وبصحة وثروة جيدة، أما بقية دول العالم فأنها تعاني من التخلف وتدني مستوى المعيشة بدرجات متفاوتة، الأمر الذي دعى أمين عام الأمم المتحدة عام ٢٠٠٠ إلى توجيه نداء للقضاء على الفقر والجوع أو الحد منهما والى توسيع فرص التعليم والمساواة بين الجنسين وتحسين الخدمات الصحية والقضاء على الأمراض الفتاكة والإفادة من الثروات الطبيعية بعقلانية بما يؤمن الحفاظ على البيئة، كما دعى إلى إقامة علاقات اقتصادية متكافئة بين الدول [١] وهو أمر يدعو جميع الدول، ولاسيما دول العالم الثالث إلى

بذل جهود حثيثة لأستنبات العلوم والتقانة في بيئات سليمة والعمل على توفير فرص نجاحها والإفادة من نتائجها في مختلف جوانب التنمية الشاملة وبناء القدرات العلمية والتقنية الذاتية بصورة أو بأخرى. لقد دلت تجارب الأمم والشعوب المختلفة إن الدول التي حققت تقدماً اقتصادياً واجتماعياً ملموساً، إنما يعود الفضل في ذلك في الغالب إلى جودة نظمها التعليمية ورقيها، وهو أمر يدعو حتماً إلى العناية الفائقة بمنظومات التعليم برمتها بدءاً من رياض الأطفال وصولا إلى أعلى المراحل الجامعية، وكذلك رعاية الإبداع والمبدعين بكل الوسائل الممكنة، لتحقيق النهضة الشاملة المنشودة، وليس هذا أمراً صعباً أو كثيراً على العراق، فالعراق كما هو معروف مهد اقدم الحضارات الإنسانية إذ قدمت حضارة العراق الكثير من الإبداعات والإنجازات العلمية البارزة، لعل ابرز هذه الإنجازات الكتابة والعجلة، وقدمت لنا أيضاً الخلايا الكهربائية التي لم تكتشف إلا بعد الفي سنة من اكتشافها في العراق. ففي عام ١٩٣٨، بينما كان يعمل في خوجه رابو بالقرب من بغداد اكتشف العالم الألماني ويلهيلم كونيغ جرة من الفخار طولها ١٥سم يوجد فيها اسطوانة من النحاس تضم قضيبا من الحديد، وكشفت دراسة الجرة انه كان فيها خل أو خمر. ولم يضيع كونيغ وقته في البحث عن شرح لما يمكن أن يكون الهدف من الجرة التي عثر عليها ، فقد اطمأن ان الجرة لم تكن إلا بطارية كهربائية ، وقد اكتشف ١٢ بطارية من هذه البطاريات. ويقول الدكتور بول كرادوك المسؤول في المتحف البريطاني : إن البطاريات جذبت كثيرا من الاهتمام ، وهي بالغة الأهمية. وتقول المصادر إن تاريخ هذه البطاريات يعود إلى حوالي ٢٠٠ سنة قبل الميلاد. ومن المؤكد إن هذه البطاريات يمكن ان

تولد تيارا كهربائياً، لأنه تبين إن بطاريات مماثلة حديثة أنتجت تيارات كهربائية. يعتقد البعض إن البطاريات كانت تستعمل في المجال الطبي فقد كتب الإغريق القدامى عن تخفيف الألم الناتج عن الأسماك الكهربائية عندما توضع هذه الأسماك على القدمين. واكتشف الصينيون المعالجة بالإبر في هذه الحقبة، ولا يزال الصينيون يستعملون الابر الصينية مصحوبة بتيار كهربائي. وهذا قد يفسر وجود ابر بالقرب من بغداد [٢]، فحري بنا أن نغذ السير على خطى الأجداد العظام لتحقيق المزيد من الإبداعات العلمية والتقنية في بلادنا المزدهرة بأذن الله.

التطورات العلمية والتقنية الحديثة

تلعب العلوم والتقانة الحديثة دوراً رئيسياً في البنية الصناعية في بلدان العالم المتقدمة صناعياً، فقد أحدثت تقانات المعلومات والاتصالات على سبيل المثال ثورة في عالم المال والمصارف والصناعات الترفيهية. ويتوقع أن يحدث مشروع الجينوم البشري تأثيرات بالغة في قطاع الصحة فاتحاً الآفاق لمعالجة الكثير من الأمراض المستعصية مثل أمراض السرطان وغيرها. وتعد التقانة الإحيائية أحد ابرز تقانات القرن الحادي والعشرين، وهي تقانة عالمية لاموطن محدد لها. وتعد الولايات المتحدة الأميركية واليابان ودول الاتحاد الأوربي ابرز الدول المالكة لهذه التقانة. وتعتمد الشركات الصناعية المتخصصة في التقانات الإحيائية على قدرات باحثيها وعلمائها وإبداعاتهم الخلاقة باستكشاف تقانات جديدة والقدرة على توظيفها بإيجاد منتجات صناعية متطورة وبتكاليف اقتصادية تنافسية في الأسواق العالمية وتحقيق مردودات مالية مجزية للمستثمرين في هذه الشركات ودفعها إلى المزيد من ضخ الأموال اللازمة للبحث والتطوير،

ففي بريطانيا مثلا تبلغ نسبة ما تنفقه في الصناعات المستندة إلى التقانات الإحيائية والصيدلانية ما نسبته ٣٩% من مجموع تخصيصات البحث والتطوير في مجال التقانات الإحيائية والصيدلانية. تهدف البحوث في هذا المجال إلى إنتاج بحوث فاعلة ومؤثرة في معالجة الأمراض المختلفة والاستحواذ غلى حصص تسويقية كبرى في الأسواق العالمية التي تشهد تنافسا حاداً في هذا المجال. ونظراً لما قد يترتب على نتائج البحث والتطوير في مجالات التقانات الإحيائية من نتائج خطيرة قد تهدد المجتمعات الإنسانية وقيمها الأخلاقية والدينية، فقد سعت الدول المختلفة إلى إصدار قوانين وتشريعات لحماية مجتمعاتها من أية أخطار محتملة من نتائج هذه البحوث بحيث تضمن لحكوماتها أو لبعض مؤسسات المجتمع المدني الاشراف عليها وتهيئة الرأي العام لمواجهة أي خروقات محتملة في هذا الجانب او ذاك بعيدا عن ضغوط المصالح الاقتصادية إذ تترتب في الغالب فوائد اقتصادية وأرباح كبيرة باستخدام بعض طرائق التقانات الإحيائية في زيادة الإنتاج الزراعي بشقيه الحيواني والنباتي.

ولا تقتصر بحوث التقانة الإحيائية على الدول الصناعية الكبرى في أمريكا الشمالية وأوربا واليابان فقط، بل أن دولاً صغيرة في آسيا تبذل جهودا حثيثة في هذا المجال، فبلدا صغيرا مثل سنغافورة قد خصص مبلغ ٢٠ مليار دولار للبحث والتطوير في مجال الصناعات المستندة إلى التقانات الاحيائية، كما خصصت كوريا الجنوبية ١٥ مليار دولار للغرض نفسه وخصصت تايوان ١٣ مليار دولار.

وتعد تقانة الإلكترونيات البصرية أحد أهم التقانات في التنمية الاقتصادية، ويتوقع أن تلعب دورا لا يقل في أهميته عن الدور الذي

لعبته التقانة الإلكترونية في الحقبة المنصرمة. فكمـــا لاحظنـــا كيـــف تحسنت خدمات الاتصالات بفضل الألياف البصرية التـــي اســـتخدمت قدرة الضوء على حمل المعلومات اكثر من أية تقانة أخرى. كما انــــه لايمكن مواجهة الطلب المتزايد بتوسيع نطاق حزمة الإنترنت الرقمـــي بصورة أفضل إلا باستخدام التقانات البصرية، كما إن أجهزة وســـائط الإعلام المتعددة وخدمات الهواتف المحمولة تتطلب جميعـــها مرونـــة عالية في منظوماتها ووظائفها. ويمتد تأثير الإلكترونيـــات البصريـــة ليشمل مجالات أخرى كثيرة مثل الطب والحواسيب والنقل. يقدر حجـــم سوق الإلكترونيات البصرية حاليا بـــ ٣٠ مليار باوند إسترليني، يتوقـــع أن يرتفع إلى ٢٠٠ مليار باوند إسترليني في السنوات القليلة القادمـــة. يقدر حجم الإنتاج السنوي البريطاني مثـــلاً فـــي مجـــال الصناعـــات الإلكترونية البصرية ما قيمته ٤ مليارات باوند إسترليني وهو ما يمثـــل نصف إنتاج دول الاتحاد الأوربي.

ومن التقانات الأخرى التي يتوقع أن تلعب دورا كبيرا في حيـــاة النـــاس هـــي تقانـــة النـــانو nanotechnolog وعلـــم النـــانو nanoscience. على سبيل المثال اذا ما سجلت المعلومـــات فـــي طبقات ونقاط بمقياس النانو فأنه يمكن خزن هذه المعلومات فـــي آلاف الأقراص المكتنزة CD في فضاء صغير بحجـــم الســـاعة اليدويـــة. ولتأكيد أهمية هذه التقانة يكفي أن نشير إلى ما ذكره نيل ليـــن Neal Laneمستشار الرئيس الأمريكي للشؤون العلمية والتقنية في نيسان مـــن عام ١٩٩٨ في احدى جلسات مجلس الشيوخ الأمريكي بأنـــه إذا مـــا سئلت في أي مجالات العلوم والهندسة يمكن تحقيق فتحا علميـــا فـــي المستقبل ، فأني أشير إلى علوم وتقانات النانو. تعد الولايات المتحـــدة

الأمريكية وألمانيا وبريطانيا ابرز دول العالم في الوقت الحاضر في مجال تقانات وعلوم النانو [٣].

من ذلك يتضح ،أننا نعيش اليوم في عصر يشهد تغييرات صناعية كبرى وتسهم التقانات الجديدة بفتح أسواق جديدة، إضافة إلى تنشيط الأسواق القائمة حالياً، وتلعب العولمة دوراً كبيراً بزيادة حدة التنافس بين المؤسسات الصناعية في أرجاء العالم المختلفة، إذ تتميز الاقتصاديات المتقدمة بالمرونة العالية والقدرات الإبداعية والتكييف مع مستجدات الحياة المعاصرة. وفي اقتصاد العولمة تتدفق الأموال من بلد إلى آخر بيسر وسهولة، كما يمكن أن تنقل التقانة من بلد إلى آخر بسرعة حسب متطلبات أصحابها، كما انه يمكن تصنيع الكثير من الأجهزة والمعدات والمواد المختلفة من بلدان رخيصة الكلفة، وتصديرها إلى بلدان عالية الكلفة. ولتحسين فرص المنافسة بين الدول المختلفة تسعى كل منها لزيادة قدرات مواطنيها الإبداعية والمهارية والمعرفية بجميع الوسائل الممكنة بهدف تحسين اداء مؤسساتها الإنتاجية. يشهد عالم اليوم تغييرات أساسية باتجاه اقتصاد العولمة وبروز دول متقدمة صناعية في منطقة جنوبي شرقي آسيا حيث باتت تلعب دورا مهما في الاقتصاد العالمي بفضل رخص منتجاتها مما جعلها منافسا قويا للدول الصناعية في أوربا واليابان وأمريكا الشمالية. ولا يكفي في اقتصاد المعرفة إجراء البحوث العلمية حسب، وانما تنمية القدرة على توظيف نتائجها والإفادة منها وتلعب المدن العلمية دوراً مهماً بتوظيف نتائج البحث العلمي وتنمية الصناعات التي تستند على العلوم والتقانات المتقدمة.

الإبداع العلمي والتنمية.

تعد الجامعات احد اهم مصادر الابداع العلمي واثراء المعرفة، لذا ينبغي الاهتمام الفائق بالجامعات وبما يساعدها على تنمية الابداع ورعاية المبدعين وذلك بخلق البيئة العلمية التي يمكن ان يتجلى فيها الخلق والابداع بأبهى صوره، كي تؤدي الجامعات وظيفتها بتنمية مجتمعاتها بوصفها احد اهم ادوات التغيير الاجتماعي والاقتصادي في أي بلد من البلدان، وإذ ان عناصر المنافسة بين الدول باتت تعتمد بدرجة كبيرة على قدراتها المعرفية والمهارية والابداعية التي تساعد جميعها بزيادة الانتاج وتحسين نوعية المنتج وتخفيض كلفته، ومن ثم تسهيل تسويقه في الاسواق المحلية والدولية. لذا يتطلب ان تقوم الجامعات بتطوير مناهجها الدراسية واساليب التدريس فيها لتطوير عملية الخلق والابداع واكتشاف المبدعين والافادة من ابداعاتهم وتوظيفها بكفاية وفاعلية لأغراض التنمية الشاملة. كما انه علينا ان ندرك ان عملية الابداع في تغيير مستمر في مجتمعات اليوم التي باتت تعرف بمجتمعات المعرفة او المجتمعات الرقمية احيانا بسبب تأثيرات التطورات التقنية المتسارعة ولاسيما في مجالات تقانات المعلومات والاتصالات، والتقانات الاحيائية والصيدلانية والمواد المتقدمة. كما لم يعد الابداع ينحصر في بلد معين بذاته، الامر الذي دفع المؤسسات الصناعية والانتاجية الى نقل اهتماماتها من مراكز البحث والتطوير المحلية الى مراكز البحث والتطوير الدولية عبر شراكات وتعاقدات بين اطراف دولية متعددة تلعب الجامعات فيها دوراً رئيسياً، إذ لم تعد الجامعات مصدر الخلق والابداع وانماء المعرفة واثرائها حسب، بل هي اليوم احد اهم مصادر نقلها الى المؤسسات الصناعية والانتاجية

وتوظيفها في حل المشكلات الانتاجية والمعضلات التقنية. لقد تعززت العلاقات اكثر فاكثر بين المؤسسات والجامعات في بلدانها وخارجها حيثما توفرت البيئة العلمية المناسبة للخلق والابداع. ويمثل الابداع احد اهم مفاتيح الرفاهية في اقتصاد المعرفة اذ انه يحول الافكار والمعرفة الى منتجات وخدمات مفيدة وملبية لحاجات المجتمع وتنميته وتقدمه ورقيه باشكال واساليب مختلفة. وهذا يتطلب دعم البحوث العلمية التي تتسم بالاصالة والابداع والابتكار، وتسهيل سريان العلوم والتقانة عبر منظومات راقية في جميع مفاصل المجتمع ومؤسساته المختلفة وتقوية روابط الشراكة بين الجامعات والمؤسسات الانتاجية المختلفة، وتعزيز مهارات الباحثين وزيادة حوافزهم كي ينقلوا افكارهم العلمية الى حقل العمل وتحويلها الى منتجات نافعة يمكن تسويقها والافادة منها. وبعبارة اخرى ينبغي ان تكون الجامعات العنصر الاساس في اقتصاد المعرفة. ولكي تؤدي الجامعات هذا الدور بكفاية وفاعلية لابد ان تتميز بحوثها ونظمها التعليمية وبرامجها ومناهجها الدراسية بالجودة العالية، والابداع والخيال الخصب. تبذل الدول المختلفة جهوداً حثيثة لزيادة قدرات مواطنيها الابداعية والمهارية والمعرفية بجميع الوسائل الممكنة لتحسين اداء مؤسساتها الانتاجية ورفع قدراتها الانتاجية اذ ان نجاح اي بلد من البلدان بات يتوقف بالدرجة الاساس على مهارات وابداعات مواطنيها وامتلاكهم المعارف والعلوم المختلفة وقدرتهم على توظيفها في حل المعضلات التقنية والمشكلات الانتاجية التي تواجهها مؤسساتها المختلفة ورفع كفاية ادائها. مما يتطلب العمل على تهيئة البيئة المناسبة التي يتجلى فيها الخلق والابداع بأبهى صوره وخلق المجتمع العلمي المتفاعل دوما مع العلوم والمعارف المختلفة والقادر على توظيف نتائج البحوث

العلمية ومعطيات التقانة لمصلحة المجتمع ورفاهيته، اذ يعتمد الابداع بصورة اساسية على المعرفة والمجازفة المحسوبة وقدرات افراد المجتمع الخلاقة وتأمين الاستثمارات المالية المطلوبة لأنجاز الابداع وخلق القاعدة العلمية والتقنية التي يمكن ان تستند اليها الابداعات والمخترعات. ولغرض تشجيع الابداع والمبدعين فقد استحدثت العديد من الدول هيئات متخصصة مؤلفة من كبار العلماء لرعاية الابداع والمبدعين وتوفير جميع وسائل اكتشافهم وتشجيع استثمار ابداعاتهم بكل الوسائل الممكنة. وفي العراق استحدثت مثل هذه الهيئات في جميع وزارات الدولة في اواخر عقد التسعينيات بموجب قانون خاص شرع لهذا الغرض . وقد اعتمدت التخصيصات المالية اللازمة لعمل هذه الهيئات التي باشرت عملها بصورة فعلية ولاسيما الهيئة المشكلة في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي اذ تم تبني الكثير من هذه الابداعات التي اسهمت بحل معضلات تقنية واجهتها بعض المؤسسات الانتاجية في ظروف الحصار الجائر الذي فرض على العراق سنين طويلة، أو في صنع أجهزة ومعدات أو ايجاد مواد محلية بديلة لمواد كانت تستورد من خارج العراق لم يعد بالامكان استيرادها لاسباب كثيرة، او غيرها الكثير الكثير بما في ذلك تطوير منظومات عمل أو سواها إذ كما يقال ان الحاجة ام الاختراع، وهكذا كان الحال في العراق في ظروف الحصار فقد دفعت الحاجة علماء العراق ومبدعيه الى انجاز العديد من الابداعات والاختراعات لتأمين الكثير من حاجاته عبر شراكة حقيقية بين الجامعات ومؤسسات المجتمع المختلفة. فالجامعات كما هو معروف مصدر الابداع واثراء المعرفة وأحد أهم أدوات التغيير في أي مجتمع من المجتمعات قديمها وحديثها على حد سواء .

بناء القدرات العلمية والتقنية

أدرك العديد من علماء الاقتصاد ان التنمية في عصرنا الراهن باتت تعتمد على التقدم العلمي والتقني والقدرة على توظيف معطيات العلم والتقانة ونتائج البحوث العلمية، وهو امر يتطلب تحسين منظومات التعليم برمتها لرفع القدرات المهارية لعموم المواطنين. وتبذل الدول المختلفة جهوداً حثيثة للارتقاء باداء مؤسساتها العلمية، ففي الولايات المتحدة الامريكية على سبيل المثال ازداد الإنفاق الحكومي على العلوم الاساسية للاعوام ١٩٥٣ــ١٩٩٤ بمعدل سنوي ٥,٨% والإنفاق على البحوث على الاساسية الصناعية بمعدل سنوي ٥ % و إنفاق الشركات على البحث والتطوير بمعدل سنوي ٤,٩%.

يشير تقرير التعليم العالمي الصادر من المجلس الاقتصادي والاجتماعي للامم المتحدة لعام ١٩٩٥ الى ان الدول النامية الاقل تطوراً تعاني من قلة المتعلمين في مجال العلوم والتقانة اذ يبلغ عددهم قرابة ١٠٥ شخص لكل ١٠٠٠٠٠ من السكان مقابل ٨٠٢ لكل ١٠٠٠٠٠ في الدول المتقدمة. وتعد روسيا في مقدمة الدول فيما يتعلق بعدد طلبة العلوم والهندسة اذ يبلغ عددهم ٢,٤ مليون طالباً وطالبة، تليها بذلك الولايات المتحدة الامريكية ٢,٣٨ مليون طالباً وطالبة وذلك طبقاً لأحصاءات عام ١٩٩٢. يشكل الطلبة الاجانب في الولايات المتحدة الامريكية نسبة عالية من طلبة الدكتوراه في العلوم والهندسة، فقد وصلت هذه النسبة ٤٠% من مجموع الطلبة الحاصلين على شهادة الدكتوراه عام ١٩٩٥ والبالغ عددهم ٢٦٥١٥ في العلوم والهندسة. ويستقر معظم هؤلاء الطلبة الاجانب في الولايات المتحدة الامريكية لأغراض البحث والتطوير، ويضاف الى هؤلاء الاشخاص المهاجرين

ذوي الكفايات العالية من البلدان الاخرى والذين يقدر عددهم عام ١٩٩٨ بـ ١١٥٠٠٠ شخص وهذا العدد اخذ بالزيادة عاماً بعد اخر [٣]. كما توظف الولايات المتحدة الامريكية قدرات علماء البلدان الاخرى لأغراضها الصناعية اذ تتعاقد الشركات الامريكية مع علماء هنود في مجال الصناعات البرمجية اذ اصبحت مدينة بانكالور مركزاً رئيسياً لكتابة البرامج الحاسوبية للعديد من الشركات الامريكية. وينطبق الشيء نفسه على علماء ومهندسي دول الاتحاد السوفيتي السابق ودول شرقي اوربا في مجالات صناعية مختلفة عبر مشاريع علمية مشتركة مثل محطة الفضاء العالمية. من ذلك يتضح جلياً ان الدول الصناعية الكبرى تستنزف القدرات العلمية للكثير من بلدان العالم الثالث بوسائل ووسائل شتى، وهو أمر يتطلب أن تولي هذه البلدان جل اهتمامها بعلمائها وخلق البيئة العلمية المناسبة، ذلك انهم يمتلكون عماد نهضتها وتقدمها واهم ادوات تحقيق تنميتها الشاملة.

تتطلب التنمية الصحيحة في أي بلد من البلدان ايجاد منظومة تعليم راقية تتسم بالمرونة والكفاية والقدرة على اكتشاف الموهوبين والمبدعين واستثمار قدراتهم وابداعاتهم لرقي وتقدم دولهم. ومن هذا المنطلق تبذل الكثير من الدول جهوداً حثيثة للارتقاء بمنظوماتها التعليمية بدءاً من رياض الاطفال وانتهاء بجامعاتها عبر صيغ واساليب متعددة بعد ان ادركت ان التعليم ولاشيء سواه يمكن ان يفضي الى تنمية حقيقية. ولعل خير شاهد ودليل على ذلك ما حققته اليابان والصين والهند ودول جنوبي شرقي اسيا من تقدم في جميع مجالات الحياة. ومـا زالت الجهود مبذولة في هذه البلدان للارتقاء اكثر فاكثر في منظوماتها التعليمية ، ففي الصين شهدت منظومة التعليم تغييرات كبيرة في

مجالات كثيرة منذ العام ١٩٩٩ في اوسع عملية اصلاحية [٤]. تـــهدف هذه الاصلاحات الى تحقيق الاتي:

١ـــ حملة وطنية لمحو الامية عامة وفي المناطق الريفيـــة والاقليـات خاصة.

٢ـــ تحسين مستوى منظومات أعداد المعلمين والمدرســين والاهتمـــام بالمعلمين العاملين في المناطق النائية.

٣ـــ الاهتمام ببرامج دراسات الدكتوراه وتوسيع التبادل الثقافي.

٤ـــ توسيع برامج التعليم المستمر والتعليم عـــن بعـد لتشـمل جميـع المناطق الريفية والنائية.

٥ـــ تعزيز برامج الشراكة بيـــن المؤسســـات التعليميـــة والمؤسســـات الصناعية وخلق مصالح صناعية داخل المؤسسات التعليمية.

٦ـــ توسيع التعليم العالي ولاسيما في مجال الدراسات العليا.

٧ـــ تحسين برامج تدريب الطلبة.

٨ـــ الاهتمام بالتعليم غير الحكومي.

٩ـــ زيادة الانفاق على انشطة وبرامج التعليم العالي.

١٠ـــ زيادة الانفاق على انشطة البحث العلمي.

وبذلت دول جنوبي شرقي اسيا جهوداً حثيثة لزيادة قدراتـــــها العلميـــة بتهيئة فرص تعليمية جيدة وواسعة لطلبتها وبخاصة في برامج الدكتوراه في العلوم والهندسة. بلغ عدد الحاصلين على شهادة الدكتوراه في العـــام ١٩٨٠ في التخصصات العلمية قرابة ٥٩٠٠ شـــهادة الدكتـــوراه فـــي الجامعات الاسيوية اضافة الى ١٠٠٠ شهادة دكتوراه لطلبة اســـيويون في جامعات الولايات المتحدة الامريكية. ارتفع هذا العـــدد فـــي العـــام ١٩٩٧ الى ١٨٥٠٠ شهادة دكتوراه في الجامعات الاســـيوية و ٥٥٠٠

شهادة دكتوراه في الجامعات الامريكية لطلبة اسيويون. بلغ عدد الطلبة الصينين الحاصلين على شهادة الدكتوراه من الجامعات الامريكية عام ١٩٩٧ قرابة ٢٢٠ شهادة في العلوم والهندسة مقابل ٥٠٠٠ شهادة دكتوراه منحتها الجامعات الصينية. تخرج الجامعات الاسيوية طلبة دكتوراه في الهندسة اكثر مما تخرجه الجامعات الامريكية مجتمعة، مع ملاحظة ان نصف خريجي الجامعات الامريكية هم من الطلبة الاجانب.

يبلغ انفاق البحث والتطوير في اليابان ٣,٢٤% من الناتج القومي الاجمالي أي ما مجموعه ٩٠-١٠٠ مليار باوند استرليني سنوياً وهذا يمثل ٥ اضعاف مستوى الانفاق في بريطانيا. والانفاق هذا في مجمله يقع في مجالات البحوث المدنية (غير العسكرية). تصرف شركة Fujitsu ٢,٤ مليار باوند سنوياً. وتهتم اليابان ببحوث علوم الحياة والعلوم البيئية وعلوم المواد بما في ذلك النانوتكنولوجي وتشجيع نقل التقانة من الجامعات ومراكز البحوث الى الصناعة. لعل من المفيد الاشارة الى ما حققته اليابان في مجال البحث والتطوير تسجيلها ١٧,٦% من براءات الاختراع المسجلة في مركز تسجيل البراءات الاوربي، وهي تأتي بذلك في المرتبة الثالثة بعد الولايات المتحدة الامريكية والمانيا. وفي الولايات المتحدة الامريكية سجلت اليابان ٢٠% من براءات الاختراع، وهي بذلك تقع في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة الامريكية متجاوزة المانيا التي كانت حصتها ٦% وبريطانيا ٢%. اما الدول الصناعية فانها ما زالت تهتم كثيراً في التعليم بانواعه، اذ يبلغ الانفاق على مؤسسات التعليم الجامعي في الولايات المتحدة الامريكية ١.١% من الدخل القومي بوصفها مصروفات عامة، بالاضافة الى ١,٢% من الاموال الخاصة. ويبلغ حجم الانفاق في المانيا

١% تقريباً من الاموال العامة و ٠,١% من الاموال الخاصة. اما في السويد وفنلندا فيبلغ اجمالي المصروفات على التعليم الجامعي ١,٧% من الدخل القومي[٥]. إذ أدركت هذه الدول ان الجامعات هي احد اهم ادوات الانتاج في المجتمعات الصناعية ذلك إنها مصدر إنماء المعرفة و إثرائها في جميع مجالات الحياة، إضافة الى اعداد وتدريب الملاكات العلمية التي تحتاجها مؤسسات المجتمع المختلفة، ونشر العلوم والمعارف بين فئات المجتمع بهدف الإفادة منها بكل الوسائل الممكنة.

وقد أدركت المؤسسات الصناعية ان الجامعات هي المصدر الرئيس للابداع في العلوم المختلفة بعامة، وفي العلوم الهندسية والتقنية بخاصة. لذا هي تسعى باستمرار الى جذب الطلبة الموهوبين والمتميزين الى الدراسات الهندسية والتقنية والتفاعل بين الجامعات والمؤسسات الصناعية عبر برامج شراكة فاعلة ومؤثرة، وكذلك الاهتمام ببرامج التدريب والتأهيل لفتح آفاق عمل رحبة وبخاصة الحاصلين منهم على شهادات الدكتوراه في التخصصات الهندسية والتقنية لضمان إعداد نوعية جيدة من الخريجين في الدراسات العليا قادرين على انجاز البحوث الراقية. و لأجل الإفادة المثلى من معطيات العلوم والتقانة اعدت الدول الصناعية برامج مختلفة لاستثمار القدرات الخلاقة للعلماء والمهندسين والتقنيين في إعداد تصاميم المشاريع الصناعية والإنتاجية وتوظيف نتائج البحوث العلمية ومهارات المهندسين ورجال الاعمال لتطوير المؤسسات المختلفة رفع كفاية ادائها. وتعد الجامعات والمدن العلمية والحاضنات التقنية المفاتيح الرئيسية لتحويل الاكتشافات العلمية الى منتجات صناعية ذات أثر فاعل في اقتصاد المعرفة السريع التغيير والتطور. تشير التقارير الى إن

هناك اكثر من ١٠٠٠ شركة في ولاية ماسيتوشس الامريكية مرتبطة بمعهد MIT الشهير، وتقدر مبيعات هذه الشركة ٥٣ مليار دولار سنويا، ويعمل فيها قرابة ٣٥٣٠٠٠ شخصا في أرجاء العالم المختلفة. وفي مجال البحوث فأن بلدا واحدا مثل بريطانيا التي لايتجاوز مجموع سكانها ١% من مجموع سكان العالم ينشر علماؤها ٨% من مجموع البحوث المنشورة في العالم و٩% من مجموع البحوث التي يشار اليها في البحوث الاخرى ، وتنتج جامعاتها ١٦ بحثا مقابل صرف مليون دولار، في حين تنجز الجامعات الامريكية ٩.٢ % والجامعات اليابانية ٣.٦ % مقابل صرف هذا المبلغ، كما ازداد عدد الشركات المتخصصة في بريطانيا منذ عام ١٩٩٧ بنسبة ٥٠% ليصل عددها قرابة ٣٠٠ شركة وفي مقدمتها شركات التقانة الاحيائية.

الثقافة العلمية والتقنية

باتت العلوم والتقانة تلعب دوراً مهماً في حياة الناس اذ نكاد نرى اثارها في كل شيء في حياتنا اليومية، الامر الذي يتطلب فهمها بصورة افضل عبر برامج دراسية معدة لهذا الغرض في مدارسنا الابتدائية والثانوية يمكن ان تتضمن هذه البرامج اموراً كثيرة منها:

١ـ شرح المباديء الاساسية في العلوم والتقانة بصورة مبسطة.

٢ـ استعراض تاريخ العلوم والتقانة في العالم عبر العصور المختلفة.

٣ـ ابراز دور العرب والمسلمين في التطور العلمي والتقني منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا.

٤ـ توضيح انعكاسات العلوم والتقانة على تطور المجتمع ورقيه وتقدمه.

٥ـ إبراز مكانة العلم والعلماء في المجتمع والتأكيد على الأخلاق العلمية.

٦ـ تنمية المهارات العلمية والتقنية منذ المراحل الدراسية المبكرة.

٧ـ التعريف بالإنجازات العلمية والتقنية المعاصرة وفوائدها والسعي الى محو الامية العلمية والتقنية.

٨ـ تبسيط العلوم والتقانة بحيث يمكن الإفادة منها على أوسع نطاق ممكن.

ولتحقيق هذه الأهداف لابد أولا" من إعداد معلمين ومدرسين على درجة عالية من المعرفة العلمية وامتلاك مهارات عملية جيدة، واعداد مناهج مفردات مناهج دراسية حديثة ومتطورة وتهيئة مستلزمات حسن تنفيذها، ومراجعتها دورياً بهدف تحديثها بصورة مستمرة. وينبغي ان لاتقتصر جهود محو الامية العلمية والتقنية على المدارس فقط، بل يجب ان تمتد الى المعاهد والجامعات بحيث يدرس مقرر ثقافي علمي وتقني واحد في الاقل في كل تخصص دراسي جامعي من تخصصات الدراسات الانسانية في كليات الاداب والقانون والادارة والاقتصاد وغيرها بحيث تتداخل الدراسات العلمية والانسانية اكثر فاكثر وتتفاعل فيما بينها لخلق وعي علمي وانساني في آن واحد.

مجلس العلم والتقانة

تتطلب التنمية في أي بلد من البلدان بذل جهود متواصلة لرعاية العلم والعلماء عبر اليات ومسارات نظامية ومؤسساتية ، إذ لم يعد الإبداع والابتكار محصورين بفرد معين او افراد معينين حسب، بل بات يشمل مجموعات كبيرة من الناس، وهو امر تطلب انشاء مدن

علمية ومراكز بحثية لغرض استكشاف القدرات الإبداعية للموهوبين منذ السنوات الاولى من عمرهم بهدف العمل على رعايتها وتطويرها والافادة من هذه الابداعات بتحويلها الى أعمال نافعة. لقد برزت في الوقت الحاضر صناعات كثيرة تستند الى العلوم والتقانة الحديثة بصورة أساسية والقدرة على تحويل ابداعات العلماء والمفكرين الى منتجات نافعة، وتجدر الإشارة الى ان الكثير من هذه الصناعات لا تتطلب اموالاً باهظة او أيدي عاملة كثيفة او مصادر طاقة كبيرة. ولأجل الإفادة المثلى من معطيات العلوم ونتائج البحوث والاختراعات بصورة منهجية وتوظيفها لحل المشكلات والمعضلات التقنية وتصعيد وتأثر الإنتاج ورفع كفاية اداء منظومات العمل المختلفة، لابد اذن من اعتماد سياسة علمية رشيدة تأخذ بالحسبان تقديم ماهو اهم على ما هو مهم في مراحل التنمية العلمية والتقنية للقطر. ولهذا الغرض يصبح ضروريا استحداث مجلس للعلم والتقانة يضم كبار علماء العراق ومفكريه ومبدعيه ليتولى انجاز المهمات الاتية:

١ــ رصد حركة واتجاهات العلوم والتقانة في العالم وتامين ابقاء العراق ملامساً لها وفاعلاً ومؤثراً فيها.

٢ــ تهيئة البيئة العلمية المناسبة لحفز الابداع والداعمة له.

٣ــ السعي الدؤوب لأستكشاف المبدعين والموهوبين والافادة من ابداعاتهم.

٤ــ رسم السياسة العلمية العامة للقطر.

٥ــ النهوض بحركة البحث العلمي بما يخدم مشاريع التنمية الشاملة في القطر.

٦ـ العمل على ايجاد مراكز للجودة والتمييز العلمي في حقول المعرفة المختلفة.

٧ـ رعاية العلماء والباحثين في جميع التخصصات وتقديم التسهيلات اللازمة لانجاز بحوثهم على وفق خطط علمية معدة لهذا الغرض.

٨ـ الإسهام بتنسيق الفعاليات العلمية ومشاريع البحوث بين الجامعات ومراكز البحوث العلمية من جهة، والمؤسسات الإنتاجية المختلفة من جهة اخرى.

٩ـ التعاون مع الدول والمنظمات العربية والدولية في مجالات العلوم والتقانة المختلفة.

وبذلك نضمن وجود سياسة علمية ثابتة ومستقرة في اطار انظمة وقوانين لرسم السياسات العلمية للقطر ووضع الخطط القصيرة المدى وبعيدته بصورة منهجية ومنتظمة لتلبية حاجات القطر وضمان ديمومة رقيه وتقدمه.

الخاتمة

لغرض مواكبة التطورات العلمية والتقنية المتسارعة في عالمنا المعاصر ولأجل غلق الفجوة التقنية الاخذة بالاتساع بيننا والدول الاخرى ينبغي اتخاذ اجراءات سريعة أبرزها الآتي:

١ـ استحداث مراكز للابداع العلمي هدفها الرئيس السعي لاكتشاف المبدعين والموهوبين ورعايتهم رعاية خاصة وتوفير البيئة العلمية المناسبة لهم والإفادة من ابداعاتهم وانجازاتهم العلمية بتحويلها الى منتجات نافعة ومفيدة.

٢ـ البدء من الفور بإنشاء عدد من الحاضنات التقنية في مجالات العلوم والتقانات المتطورة.

٣ــ التفكير جدياً باستحداث مدينة علمية متكاملة وذات صلة مباشــــرة بحاجات العراق الانية والمستقبلية.

٤ــ تعزيز الشراكة بين الجامعات والمؤسسات الصناعية.

٥ــ العمل على رفع كفاية أداء المؤسســـات الإنتاجيـــة بالإفـــادة مـــن معطيات العلوم والتقانة الحديثة.

٦ــ إنشاء مجلس أعلى للعلوم والتقانة يضم كبار العلمــــاء والبـــاحثين لرسم السياسة العلمية للقطر وترشيدها بهدف تعزيز دور العلم والتقانـــة في بناء العراق وتأمين رقيه وتقدمه وتلبية حاجاتـــه بصـــورة مبدعـــة وخلاقة.

المصادر

1. Report of the Third world
Academy of sciences:
Building Scientific capacity
ATWAS Perspective, 2004.

2. BBC ARABIC.com. 2003.

3. A.Thomas Young, Jonothan R.cole, and Denice Denton
Improving Technological Literacy
Issues on line in Science and Technology. 2002.

4. Lord Scinsbury of Tusville
The Asian Technology Markets Conferency, London 2001.

٥- بوابات عبر الماضي الى المستقبل
دار نشر جورج اولمز،ألمانيا ،٢٠٠٣.

الخلايــــا القلوية الثانويـــة

ماضـــياً وحاضـــراً

أ. د. جلال محمد صالح

جامعـــة بغــداد

الملخص

الخلايا القلوية الثانوية تؤلف اليوم القسم الرئيس من الصناعـــة الكهروكيميائية العالمية . فهذه الخلايا هي أغلـــى ثمنــاً مــن نضـــائد الرصاص الحامضية ولكنها تناسب بشكل خاص المعـــدات والأجـــهزة المتنوعة التي يعتمد عليها المستهلك حالياً والتي تستدعي بشكل خـــاص متطلبات سعة منخفضة . فهي صالحة للعمل والاستعمال في درجـــات الحرارة الواطئة والاعتيادية ، وتتحمل ظروف الاســـتعمال القاســـية ، وتحتاج الى إدامة قليلة نسبياً . والخلايا القلوية الثانوية بقيت الى ما قبل عقدين او ثلاثة مقتصرة على خلايا الكادميوم واوكسيد النيكـــل التـــي أصبحت تدعى اليوم خلايا النيكل والكادميوم ، الا انه ظهر في الســـنين الأخيرة من القرن الماضي نوعان جديدان من هذه الخلايا ، وشمل ذلك ما يسمى الآن بخلية النيكل وهدريد الفلز ، وخلية الخارصين وثنـــائي اوكسيد المنغنيز الجافة والقابلة للشحن واعادة الشـــحن . تمتـــاز هـــذه الخلايا بأصنافها المختلفة بالعمر الطويل والقدرة المستمرة على فـــرط الشحن ، وتمتـــلك سرعاً نسبية عالية للتفريغ والشحن . كما تتميز ايضاً بفولتية تفريغ ثابتة ، وبالقدرة العالية على الاشتغال في درجات الحرارة

الواطئة . وأدت هذه المزايا والخصائص الى توسيع استخدام خلايا ونضائد النيكل والكادميوم والأنواع الجديدة من الخلايا القلوية الثانوية لأغراض الإنارة في حالات الطوارئ ، وفي تشغيل مفاتيح المشابك الكهربائية والمحركات والمولدات . وهي يعتمد عليها الآن بشكل كبير في منظومات الطيران وفي مركبات الفضاء . وتؤلف هذه الخلايا والنضائد في الوقت الحاضر اكثر من ٧٠% من مبيعات الخلايا والنضائد عموماً في الأسواق العالمية .

تمهيد

المقصود بالخلايا الثانوية انها الخلايا القابلة للشحن (Rechargeable Cells) . وتستخدم هذه الخلايا الكترووليتات مائية . ان صناعة الخلايا الثانوية القلوية التي تستخدم الكتروليتات مائية في عملها تؤلف قسماً رئيساً ومهماً من الصناعات الكهروكيميائية المتطورة في العالم اليوم . وتشغل الخلايا الثانوية الحامضية (خلايا الرصاص الحامضية) مكانة مهمة في هذه الصناعة وهي تؤلف ركناً اساسياً في هذه الصناعة في حين تشغل الخلايا الثانوية القلوية (خلايا الكادميوم واوكسيد النيكل القلوية) ركناً مهماً آخر في هذه الصناعة وتتمتع بسوق تجاري عالمي متميز على الرغم من كونها أغلى ثمناً لأنها تفي اكثر بمتطلبات وحاجات المستهلك . وهذه الخلايا القلوية تتمتع بمتطلبات صيانة أوطأ واكثر ملاءمة للاستعمال في درجات الحرارة الواطئة . وقد سيطرت خلايا الكادميوم واوكسيد النيكل بشكل كبير على مدى عقود طويلة حتى السنين الأخيرة من القرن المنصرم .

برز خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي نوعان آخران من الخلايا الثانوية القلوية وهما خلايا النيكل وهدريد النيكل ، وخلايا الخارصين وثنائي اوكسيد المنغنيز القابلتان للشحن واعادة الشحن على غرار خلايا الكادميوم واوكسيد النيكل القلوية . وقد دخلت خلايا النوعين الحديثين في ميادين واسعة من الاستعمالات الخاصة في الغواصات ومركبات الفضاء وفي أغراض السحب .

١. خلايا الكادميوم واوكسيد النيكل Cadmium – Nickel Oxide Cells

(أ) ـــ تمهيد

خلية الكادميوم واوكسيد النيكل هي الخلية الأولى التي بـــرزت في الوسط الصناعي منذ اكثر من قرن ، وكان العالم والدنار – جانكنيز Waldenar - Jungner اول من صمم هذه الخليـــة عـــام ١٨٩٩ م ، واستخدم فيها مادة هيدروكسيد النيكل كمادة موجبة فعالة وجعل الحديـــد فيها قطباً سالباً ، واستخدم الكتروليتاً لمحلول مائي مـــن هيدروكســيد البوتاسيوم . وسميت الخلية عالمياً بخلية النيكل والكادميوم بـــدلاً مـــن تسميتها الحقيقية ((الكادميوم ــ اوكسيد النيكل)) وعلى هذا فسوف يتم الاعتماد على هذه التسمية عند الإشارة اليها في هذه الدراسة .

طورت منظومة النيكل والكادميوم من اوجه مختلفـــة لغـــرض جعلها منظومة قابلة للشحن واعادة الشحن ، واصبح لهذه الخلايا طـــابع تجاري واسع واصبحت تصنع بشكلها المختوم وغير المختوم . والشكل المختوم من هذه الخلايا يمتاز بسعات تمتد من (١٠) ملي أمبير ســـاعة الى (١٥) أمبير ــ ساعة ، واصبحت تستخدم كوحدات قدرة احتياطيـــة تتمتع بسعات تزيد على (١٠٠٠) أمبير ــ ساعة ، وقد تصل في حالات خاصة الى (٨٠٠٠) أمبير ساعة .

تتميز خلايا النيكل والكادميوم بالعمر لطويـــل وبقـــدرة فـــوق الشحن المستمرة ، وبمعدلات عالية في التفريغ و الشـــحن ، وبفولتيـــة تفريغ ثابتة تقريباً وبالقدرة على الأداء في درجات الحرارة الواطئـــة . تصل كلفة الكادميوم الى أضعاف كلفة الرصاص ، ومع ذلك فان هـــذا الاختلاف في الكلفة لا يقلل من أهمية استخدام الكادميوم فـــي صناعـــة خلايا النيكل والكادميوم ، فالكادميوم هو على أي حال ناتج ثانوي فـــي

صناعة الخارصين وانتاجه . إن كلفة صنع خلية النيكل والكادميوم تزيد كثراً على كلفة صنع خلية الرصاص الحامضية ، ولكن خـــزن خليـــة النيكل والكادميوم للطاقة الكهربائية اكبر بنحو عشر مرات من خــــزن خلية الرصاص الحامضية للطاقة الكهربائية .

هناك بعض المخاطر الصحية والتلوثية التي تتصل بتبديد خليـة النيكل والكادميوم وطرح الكادميوم الى البيئة ، وقد تؤثر هذه المخــاطر في التطورات المستقبلية لهذه الخلايا ، وبالمقابل فان عمر الدورة لخلية النيكل والكادميوم طويلة نسبياً وكلفة صيانتها واطئة . ويضاف الى هذه المزايا الوثوقية العالية من هذه الخلايا . ان هذه الاعتبارات جعلت هـذه الخلايا خياراً واضحاً بالنسبة لتطبيقات كثرة مثل استخدامها لأغــراض الإنارة الطارئة وفي تشغيل مفاتيح الشباك الكــــهربائي وفـــي تشــغيل المكائن والمعدات . ان الأداء الجيد لخلايا النيكل والكادميوم في درجات الحرارة الواطئة أدى الى استعمالات واسعة لهذه الخلايا في الطـــائرات وفي مركبات الفضاء . وتؤلف نضائد النيكل والكادميوم حالياً نحو ٧% من المبيعات الكلية للنضائد في أسواق العالم الغربي والأمريكي .

تكتب خلية النيكل والكادميوم التامة الشحن بالصيغة :

$$Cd_{(s)} \mid KOH_{(aq)} \mid NiO(OH)_{(s)}$$

وتتمتع بفولتية دائرة مفتــوحة تصل الى ١,٣ فولـــت فـــي درجـــات الحرارة الاعتيادية ، والتفاعلات الأساسية في الخلية تتمثل بـــ :

$$Cd_{(s)} + 2NiO(OH)_{(s)} + 2H_2O_{(l)} \underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftharpoons}} Cd(OH)_{2(s)} + 2Ni(OH)_{2(s)} \quad \ldots(1)$$

اذ يشير الرمز الصغير (s) المدون في الجهة اليمنـــى مـن صيغـة المركب في المعادلة الى كونه شحيح الذوبان في المـاء وفـي وسـط التفاعل. وهذا ينطبق ايضاً على الكادميوم نفسه .

ان تفاعلات الخلية هي في الواقع اعقد كثـيراً نظـراً لتكـون المركب NiO(OH) في أثناء التفاعل وبأشكال بلورية متعددة ، ولميـل النيكل الى تكوين سلسلة اكاسيد أخرى وبدرجات مختلفة من التميه . ان فولتية الدائرة المفتوحة لخلية مشحونة حديثاً تكون في بداية شحن الخلية أعلى بعدة مئات من الملي فولتات ، وتزول هذه الزيادة عندما تتحـول هذه الاكاسيد الى الصيغة المألوفـة NiO(OH) مصحوبـاً بتحـرر الأوكسجين . والملاحظ في تفاعل الخلية المشار اليه في المعادلة السابقة ان الالكتروليت ليس طرفاً في التفاعل ، وعليه فان تركـيزه لا يعتمـد على حالة ودرجة شحن الخلية ، وهذه ميزة خاصة وتجعـل المقاومـة الداخلية ودرجة انجماد الالكتروليت غير معتمدتين على حالة ودرجـة الشحن . والمثلب غير الرئيس لخلية النيكل والكادميوم يكمن في عـدم إمكان تقدير حالة شحن الخلية من تغييرات تركـيز الالكـتروليت لان التركيز لا يدخل في التفاعل العام ولا يعاني تغيراً ملحوظاً على خـلاف الاعتماد على حالة شحن خلية الرصاص الحامضية على تركيز حامض الخلية الذي يمكن تقديره من قياس كثافة الخلية .

تمتلك خلايا النيكل والكادميوم كثافات طاقة تمتد من ١٠ الـى ٣٥ واط ساعة للكيلو غرام ، او من ٣٠ الى ٨٠ واط ساعة للدسـمتر المكعب . وعمر الدورة لخلايا النيكل والكادميوم يمتد من عدة مئات في الخلايا المختومة الى عدة آلاف في الخلايا المتهوية (**Vented Cells**) .

يبين الشكل (١) مبيان قطع لخلية النيكل والكادميوم ، والشكل (٢) يمثل نضيدة (٦) فولت صنعت بربط (٥) خلايا من النيكل والكادميوم معاً على التوالي .

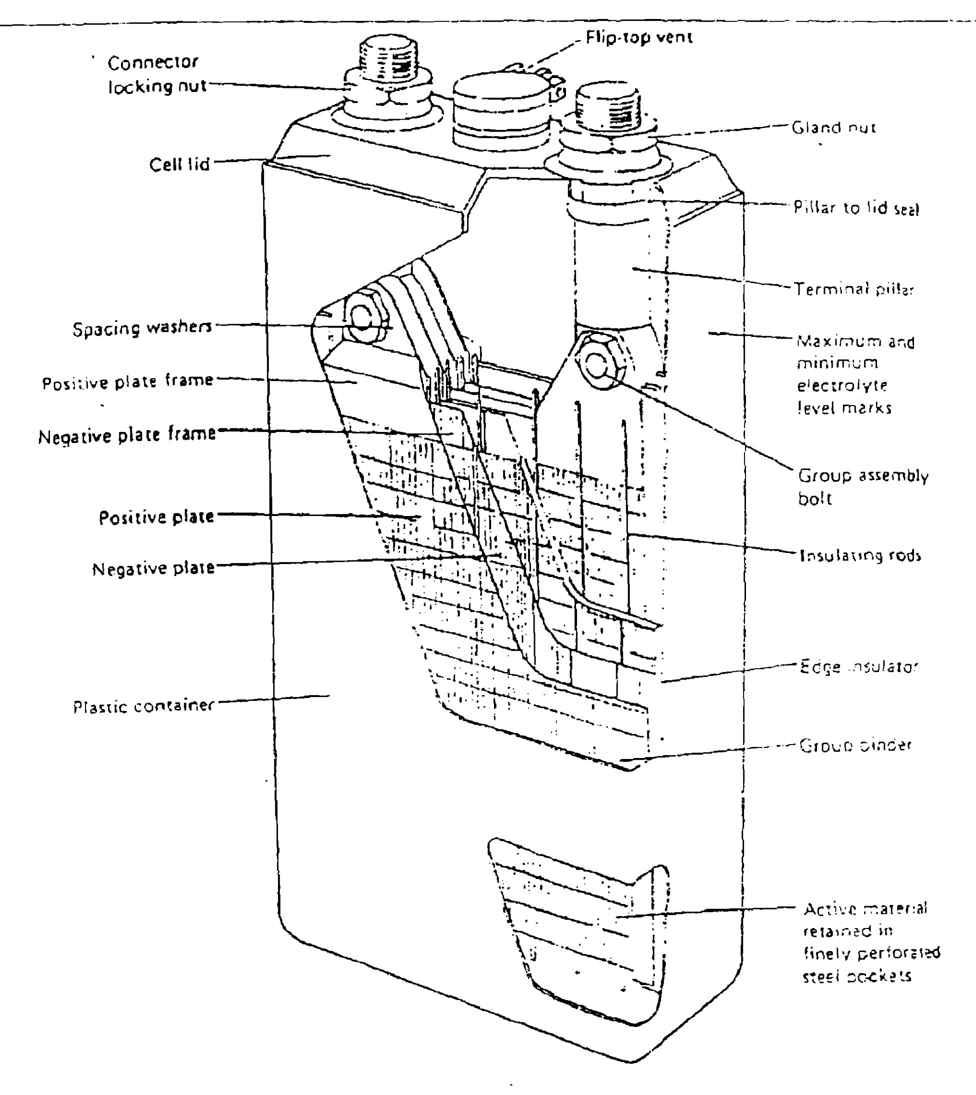
تصنع الخلية عموماً بنوعين :

١. النوع الأول : تكون أقطاب الخلية في هذا النوع ذات صفائح جيبية (**Pocket Plate**) في الخلايا المتهوية (غير المختومة) . وتبقى المادة الفعالة مخزونة في جيوب صفيحة فولاذية مطلية بالنيكل ، ومثقوبة بثقوب صغيرة التي تتداخل فيما بينها لتكوين هيكل الصفيحة . وتتوالى صفائح الأقطاب الموجبة والسالبة في الخلية وتفصلها عن بعضها البعض فواصل عازلة .

٢. النوع الثاني : وتكون الأقطاب فيه ملبدة (**Sintered**) او مؤلفة من صفائح ليفية سواء في الخلايا المختومة او المتهوية . وتتكون أقطاب الصفائح الملبدة من كتلة نيكل ملبدة مسامية ، وتتوزع المواد الفعالة على مسام هذه الكتلة . وفي الخلايا ذات الصفائح الملبدة المتهوية تصنع المادة الفاصلة بين أقطاب الخلية من مواد سليلوزية مع نسيج من النيلون . وتستعمل فواصل من النيلون في الخلايا المختومة كي تسمح بانتشار سريع للأوكسجين في طبقة الالكتروليت المجاورة للفواصل .

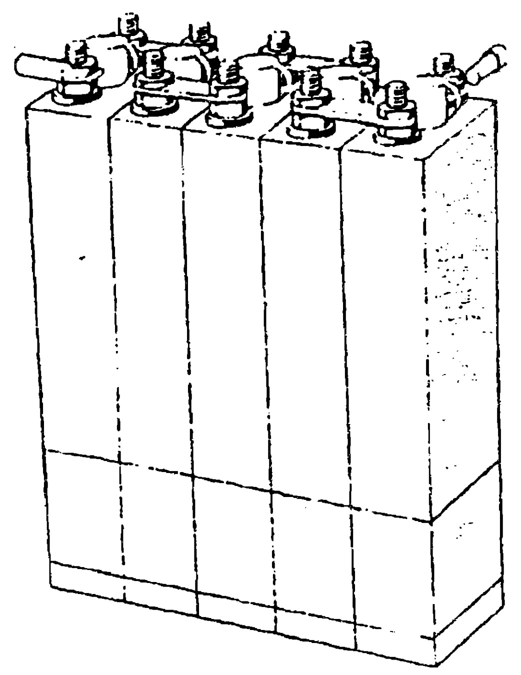
١ ـ (ب) ـ الأقطاب السالبة **Negative Electrodes**

تشتمل التفاعلات التي تحدث عند الأقطاب السالبة لخلية النيكل والكادميوم على التفاعل الرئيس الآتي :



Cut-away diagram of a typical nickel–cadmium cell.

الشكل (١) ــ مبيان قطــع لخلية نيكــل وكادميوم انموذجيــة



Nominal 6 V battery formed by connecting five nickel–cadmium cells in serie

الشكل (٢) نضيدة (٦) فولت صُنعت بربط خمس خلايا نيكل وكادميوم معاً على التوالي

$$Cd_{(s)} + 2\,OH^-_{(aq)} \underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftharpoons}} Cd(OH)_{2(s)} + 2e \quad \ldots\ldots\ldots\ldots (2)$$

وقد ثبت ايضاً تكون مواد وسطية قليلة الذوبان مثل $CdO(OH)^-$ و $Cd(OH)_3^-$ في أثناء التفاعلات . الكادميوم لا يتأكل خلال التفاعل لان جهده المتوازن يكون اكثر ايجابياً من جهد توازن الهيدروجين عند نفس الظروف . والمادة الفعالة في خلايا الصفائح الجيبية تكون من فلز الكادميوم مخلوطاً بـ ٢٥% من الحديد مع كميات قليلة من النيكل والكرافيت لغرض منع تكوين تجمعات عند العطب .

تستعمل طريقتان في التحضير ، الأولى تشتمل على اختزال كهروكيميائي مشارك لمحلول الكادميوم الذي يحوي على كبريتات الحديدوز . اما في الطريقة الثانية ، فانه يستعمل مخلوط جاف يتألف من اوكسيد الكادميوم او هيدروكسيده مع مادة اوكسيد الحديد Fe_3O_4 او مسحوق الحديد .

وتشتمل بعض تقنيات صنع الأقطاب السالبة ولاسيما بطريقة الصفائح الجيبية على كبس مادة القطب على شكل أقراص في جيوب الصفائح . وتستعمل أنواع معينة من الشمع او الزيت لتسهيل العملية .

١ . (ج) ــ الأقطاب الموجبة Positive Electrodes

التفاعلات الكهروكيميائية الرئيسة التي تحدث عند الأقطاب الموجبة لخلية النيكل والكادميوم تشتمل على التفاعل :

$$NiO(OH)_{(s)} + H_2O_{(l)} + e \underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftharpoons}} Ni(OH)_{2(s)} + OH_{(aq)} \ldots\ldots (3)$$

وتشير الرموز (s) و (l) و (aq) الى مادة شحيحة الذوبان والى مـــادة بحالة سائلة او مذابة في محلول مائي على التوالي . وتتكون في بدايــة تحضير القطب بعض الاكاسيد الأعلى المائية للنيكل مثـــل الاوكسـيد $NiO_{1.8}$ ، ويحدث ذلك عادة عند شحن الخلية ولا يلبث ان يتفكك هـــذا الاوكسيد ببطء ويتحول الى $NiO(OH)$ وأوكسجين . وتتعقد الحالـــة اكثر بتدخل KOH (او LiOH) الموجـود في الكـتروليت الخليـة وتكوين مخلوط من اكاسيد النيكل مع الفلز القلـــوي . وتسـبب هـذه التفاعلات والتعقيدات الإضافية الى الحصول على فولتية دائرة مفتوحـة أعلى للخلايا المشحونة حديثا وتؤدي كذلك الى بعض الفقدان في كفـاءة الدورة وبحسب معدل شحن الخلية والعوامل الأخرى تتكـــون صـــور بلورية مختلفة للمركب الممثل بالتركيب $NiO(OH)$ بالإضافـــة الـــى تكوين شكل بيتا (β) المتغلب في المنتـــج ، ولبعـض هـذه الصـــور والأشكال البلورية المتكونة مثالب ، فهي تسبب انتفاخا ملحوظـــا فـــي هيكل الخلية كما تسبب رداءة في التماس الكهربائي بين المادة الفعالـــة وجامع التيار للخلية .

تتكون المادة الفعالة في خلايا الصفائح الجيبية من هيدروكسـيد النيكل $Ni(OH)_2$ مع ٥% من هيدروكسيدات أخرى مثل هيدروكسـيد الكوبالت $Co(OH)_2$ وهيدروكســيد البـاريوم $Ba(OH)_2$ وغيرهـا . وتضاف هذه الهيدروكسيدات لتحسين السعة وزيـادة عمـر الـدورة . وتضاف الكرافيت بنسبة ٢% لزيادة التوصيليـــة الكهربائيـة . ويتـم ترسيب هيدروكسيد النيكل من كبريتات النيكل بكميات يتم التحكم فيـها وذلك للحصول على دقائق ذات مساحة سطحية عالية . وكما هو الحال

مع قطب الكادميوم السالب يمكن جعل مسحوق هيدروكسيد النيكل بهيئة أقراص يتم كسبها في الجيوب .

الالكتروليت The Electrolyte

الالكتروليت المستعمل في خلية النيكل والكادميوم هو عموماً محلول هيدروكسيد البوتاسيوم بتركيز (٢٠-٢٨%) وزناً وبكثافة (١,١٨ - ١,٢٧) غرام على السنتمتر المكعب بدرجة ٢٥ مئوية . والمدى الواطئ من هذه المواصفات يعتمد في الخلايا التي تصمم للعمل في درجات الحرارة الاعتيادية (من -١٠ مئوية فأعلى) . ويضاف (١-٢) % من هيدروكسيد الليثيوم الى الالكتروليت للتقليل من تخثر وتكتل قطب NiO(OH) عند تعرض الخلية الى دورة الشحن والتفريغ. ولأغراض استعمال الخلايا في درجات حرارة أوطأ تستعمل محاليل اكثر تركيزاً من هيدروكسيد البوتاسيوم وبدون إضافة هيدروكسيد الليثيوم اليه لان هيدروكسيد الليثيوم يعمل عادة على زيادة مقاومة الالكتروليت . وتنشا عادة بعض المشكلات التي تخص الانتفاخ في أقطاب الصفائح الجيبية . والخلايا التي تستعمل في درجات الحرارة العالية فأنها تستعمل احياناً محلول هيدروكسيد الصوديوم .

يحدث بعض النقصان في ماء الخلية ولاسيما إذا حدث فرط شحن في الخلية مدة طويلة . والخلايا تصمم عادة لتحتوي على الكتروليت كافياً بحيث لا يتطلب الخلية رفع مستوى الكتروليتها الا بعد مضي مدة طويلة عقب مرور (٥-٨) سنوات على الاستعمال او الخزن الاحتياطي .

١. (د) ــ الأداء The Performance

تتمتع خلايا الصفائح الجيبية بكثافات طاقة تقع في المدى من ١٠ الى ٢٥ واط ساعة للكيلو غرام وذلك بحسب تصميم الخلية للأغراض التي تستعمل فيها ، ولأغراض التفريغ بالمعدل العالي او الواطئ . والخلايا الملبدة او الليفية الارتباط او ذات الارتباط البلاستيكي تمتلك عادة كثافة طاقة أعلى بنحو ٥٠% ويمكنها الاحتفاظ بتفريغات عالية المعدل لانها تمتلك مقاومة داخلية أوطأ . وقد أمكن حديثاً بلوغ قدرة أعلى والى كثافة طاقة أعلى في تصنيع نضائد الطائرات (٤٠ أمبير ساعة) وذلك بالتحكم في معلمات التصميم وبالاختيار الجيد لمادة التواصل . ويمكن لنضائد هذا النوع (٢٤ فولت) تجهيز قدرة آنية تقدر بـ (٢٣) كيلو واط بدرجة ٢٥ مئوية وبكثافة طاقة تبلغ ٦٠٠ واط للكيلو غرام . وتقل القدرة بمقدار ٥٠% بدرجة - ٣٠ مئوية . وفقدان القدرة في خلايا الصفائح الجيبية تكون اقل مما لخلايا الأقطاب الملبدة في هذه الدرجات الحرارية المنخفضة . والعمر الطويل الذي يقترن بخلايا الصفائح الجيبية الذي يصل الى (٢٥-٣٠) سنة ميزة مهمة لغرض استخدامات هذه الخلايا في تطبيقات القدرة الاحتياطية .

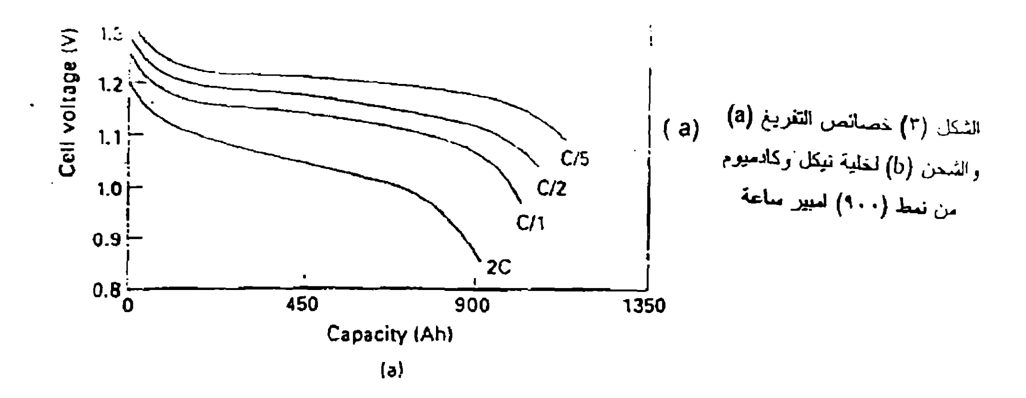
يمثل الشكل (٣) انموذجاً لمنتميات الشحن والتفريغ لخلايا الصفائح الجيبية النيكلية عند معدلات مختلفة . والخصيصة المسطحة والمستوية نسبياً لمنحنيات التفريغ لغاية بلوغ معدل ٥ ساعة امر لا يستحق الالتفات اليه . والصعود المميز في جهد الشحن عند قيمة ٩٠% من سعة الخلية ناجم عن ظاهرة التحول من اختزال أيون الكادميوم الى

عملية اختزال ايونات الهيدروجين وتحرر الهيدروجين . ونظراً لتحـور مقدار من غاز الأوكسجين على القطب الموجب عند شحن الخلية فانــه يلزم تجهيز الخلية بشحن إضافي بمقدار ٢٥% وذلك في حالة خلايـــا الصفيحة الملبدة وبمقدار ٥٠% في حالة خلايا الصفائح الجيبية لغـوض تحقيق تحول كامل للمادة $Ni(OH)_2$. وعلى هذا فان كفاءة طاقة الدورة للنوعين من هذه الخلايا تبلغ ٦٨% و ٥٥ % على التوالي . ويكـــون التفريغ الذاتي الابتدائي لخلية النيكل والكادميوم ســـريعاً جـــداً (لغايــة ٢٠%) يصبح بعده بطيئاً الا اذا كانت درجات الحرارة عالية . يبيـــن الشكل (٤) سلوك خلية النيكل والكادميوم ذات الصفائح الجيبيـــة فــي الاحتفاظ بشحنها كدالة للزمن ودرجة الحرارة . ويلاحــظ ان الخليــة تحتفظ بدرجة ٢٥مئوية بنحو ٨٠% من سعتها عقب مرور ١٢ شـــهر على تفريغ الخلية ويكون التفريغ الذاتي أعلى فـــي أقطـــاب الصفـــائح الملبدة . وعلى خلاف خلية الرصاص الحامضية فـــان خليـــة النيكـل والكادميوم يمكن خزنها أزمنة طويلة دون حدوث أي ضرر يذكر .

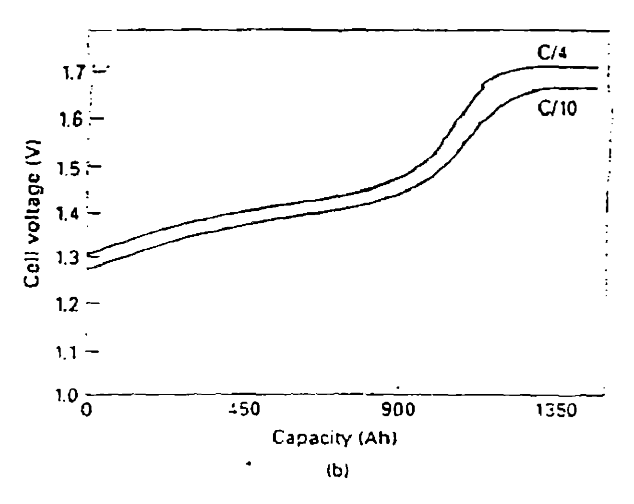
يتلوث الكتروليت الخلية عادة بثنائي اوكسيد الكربـــون خـــلال سنوات استعمال الخلية ويتحول محلول الهيدروكسيد في الخليـــة الـــى كربونات . وعند بلوغ تركيز هذه الكربونات من الكتروليت الخلية الــى ٦٠ غرام للدسمتر المكعب يستدعي الأمر عندئذٍ اســـتبدال الكـــتروليت الخلية كاملاً .

الخلايا المختومة The Sealed Cells

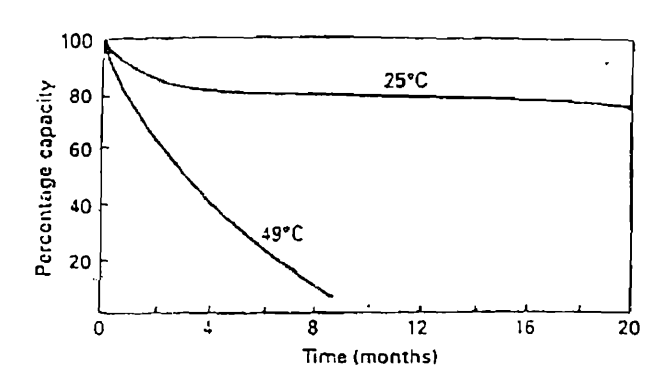
صممت خلايا نيكل وكادميوم بالشكل المختوم (محكـــم الغلـــق) بحيث لا يحـــدث فيها تكـــوين وتراكـــم الغاز عند ظـــروف التشغيل



الشكل (٣) خصائص التفريغ (a) والشحن (b) لخلية نيكل وكادميوم من نمط (٩٠٠) امبير ساعة



Discharge (a) and charge (b) characteristics of a typical 900 Ah nickel–cadmium battery as a function of rate



Charge retention in nickel–cadmium cells after prolonged periods of open circuit.

الشكل (٤) ـ احتجاز الشحنة في خلايا نيكل وكادميوم بعد ترك دوائرها مفتوحة مدة طويلة من الزمن

الاعتيادية . ونظراً لعدم تغير طبيعة الالكتروليت بالاستعمال الطويل للخلية فان الخلية تبقى بدون حاجة الى صيانة وإدامة . ان أول خلية مختومة سجلت رسمياً كانت لخلية الحديد واوكسيد النيكل القلوية المختومة من قبل اديسون عام ١٩١٢ . ولكن إنتاج خلية النيكل والكادميوم المختومة بدا في أوربا فقط قبل نحو ٤٠ عاماً . والشحن الإضافي لخلية متهوية (خلية متصلة بالهواء من خلايا فتحات تهوية يمكن التحكم بها) يسبب عادة تحرر غاز الأوكسجين على القطب الموجب والهيدروجين على القطب السالب وفق التفاعلات :

$$OH^-_{(aq)} - e \longrightarrow \frac{1}{2} H_2O_{(l)} + \frac{1}{4} O_{2\,(g)} \qquad \ldots\ldots\ldots\ldots(4)$$

$$H_2O_{(l)} + e \longrightarrow OH^-_{(aq)} + \frac{1}{2} H_{2(g)} \qquad \ldots\ldots\ldots\ldots(5)$$

وبمعنى آخر فإذا ما تم تعريض خلية النيكل والكادميوم الى تفريغ إضافي (فوق التفريغ) ـ بسبب السعة العالية لبعض الخلايا في تركيبة نفس النضيدة ـ فان قطبية الخلية سوف تنعكس ويتحرر الهيدروجين عندئذٍ على قطب النيكل والأوكسجين على قطب الكادميوم ويمكن إكساب الخلايا المختومة بعض الحماية ضد تأثيرات فوق الشحن (الشحن الإضافي) وذلك بإدخال زيادة من هيدروكسيد الكادميوم في القطب السالب . وعندما يصبح القطب الموجب مكتمل الشحن بعد ذلك يبقى القطب السالب مشحوناً شحناً جزئياً . وباستمرار تيار الشحن على هذا المنوال يتحرر الأوكسجين عند القطب الموجب وفق المعادلة التي أشرنا اليها سابقاً ويحصل نقصان اكثر في تركيز هيدروكسيد الكادميوم عند القطب السالب . ويمكن للأوكسجين المتحرر الانتشار عبر الالكتروليت الى القطب السالب حيث يعاني عنده الاختزال او التفاعل

مع الكادميوم . ودورة تحـــرر الأوكســـجين عنـــد القطـــب الموجـــب واستهلاكه عند القطب السالب يمكن ان تستمر مدة طويلة دون إحـــداث تأثير ملحوظ على الخلية . ويمكن تصنيع خلايا من النيكل والكـــادميوم التي تسمح بالشحن الإضافي دون ان يزداد ضغط غاز الأوكسجين فيها على (١) بار . ويلاحظ ان محتوى الماء في الكتروليت الخليـــة يبقـــى ثابتا لا يعاني تغييرا يذكر . وبانتهاء تيار الشحن الإضافي يقل ضغـــط غاز الأوكسجين باستمرار استهلاكه وفق المعادلة :

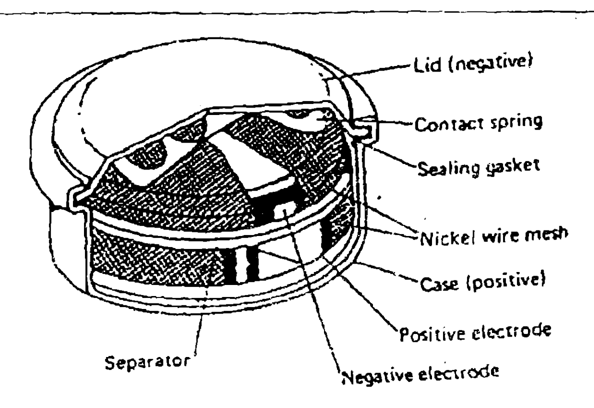
$$\frac{1}{2} O_{2\,(diss)} + Cd_{(s)} + H_2O_{(l)} \longrightarrow Cd(OH)_{2\,(s)} \quad .... (6)$$

ويشير الرمز diss الى كون الأوكسجين مذابـــا فـــي محلـــول الالكتروليت . وتتحقق الحماية ضد فوق الشحن (الشحن الإضـــافي) وذلك بإدخال كمية من هيدروكسيد الكادميوم (المعروف بأنـــها كتلـــة مضادة للقطبية) في القطب الموجب . والتفريغ الإضـــافي (ويســـمى بفوق التفريغ ايضا) يتسبب في تكوين الكادميوم وذلك باختزال الكتلـــة المضادة للقطبية هذه بدلا من اختزال أيونـــات الـــهيدروجين وتحريـــر غـــاز الهيدروجين ، وان أي هيدروجين قد يتحرر عند قطب الكادميوم المستهلك سوف ينتشر الى القطب الموجب ، ويتحد مع الكادميوم وفـــق المعادلة السابقة لتكوين هيدروكسيد الكادميوم (المعادلـــة ٦) . وممـــا يلاحظ ان تفاعل الاتحاد هذا باعث الحرارة وان تحرر الحـــرارة فـــي الشحن الإضافي هو مشكلة حقيقية ولاسيما في الخلايا الكبيرة .

تصنع خلايا النيكل والكادميوم المختومة على هيئة خلايـــا زر (Button Cells) او بأشكال أسطوانية او منشورية او علـــى هيئـــة متوازي المستطيلات وبسعات تمتد من ١٠ الى ١٥ أمبير ساعة وتكون

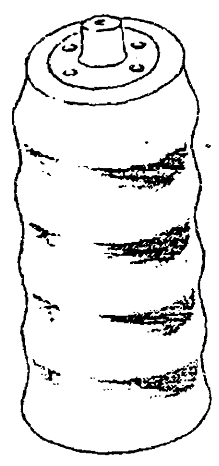
أقطابها من النوع الملبد . ويمكن تجميع خلايا الـــزر بأقطـــاب جيبيـــة دائرية بكبس المادة الفعالة في أقراص وإدخال الأقراص المستحصلة في مشبك من النيكل . ويتم إدخال فاصل قرص بعدة طبقات يصنـــع مـــن النايلون او من السليلوز بين أقطاب الخلية . ان طبيعة المـــادة الفعالـــة وتصميم هيئتها مهم في الخلايا المختومة كي لا تعيق هذه المادة بشـــكل محسوس انتشار وجريان الأوكسجين ما بين الأقطـــاب . الشـــكل (٥) يعرض مخططاً لانموذج من خلية زر . يوضع القطب الموجب عـــادة عند قعر الغلاف ويكون في تماس مع مادة فلزية موســـعة . ويكـــون القطب السالب في تماس جيد مع الغطاء العلوي للخلية بوساطة حلـزون فولاذي لضمان الحصول على تماس جيد بين كتل الأقطاب والفـــاصل الذي يحتوي على الالكتروليت . تستعمل خلايا الزر بصورة منفردة او بشكل تجمعات بفولتيات تشغيل مختلفة كما هو ملاحظ في الشكل (٦) . وتصنع أنواع خاصة من هذه الخلايا بفولتية ٣,٦ فولت .

وتصنع خلايا النيكل والكادميوم بهيئة أسطوانية علـــى غـــرار خلايا لكلانشيه . والنوع شائع الاستعمال في هذه الخلايا يعتمد على بناء حلزوني في تركيب الخلية كما هو واضح في الشـــكل (٧) . ويصنـــع غلاف الخلية من مادة فولاذية مطلية بالنيكل ويقوم بمقام القطب السالب للخلية . والقرص العازل في قعر الخلية يمنع تكوين دوائر مغلقة بيـــن الأقطاب والغلاف . ومعظم الخلايا الأسطوانية تكون على هيئة متوازي المستطيلات ويتم تركيب صمامات أمان فيها كي ينطلق منها أية زيـــادة ضغط داخلي من جراء فوق الشحن .



Sealed nickel-cadmium button cell.

الشكل (٥) ــ انموذج من خلية زر من النيكل والكادميوم المختومة



الشكل (٦) ــ نضيدة نيكل وكادميوم
صنعت بربط (٥) خلايا على التوالي

Nominal 6 V sealed nickel–cadmium battery formed by connecting five cells in series.

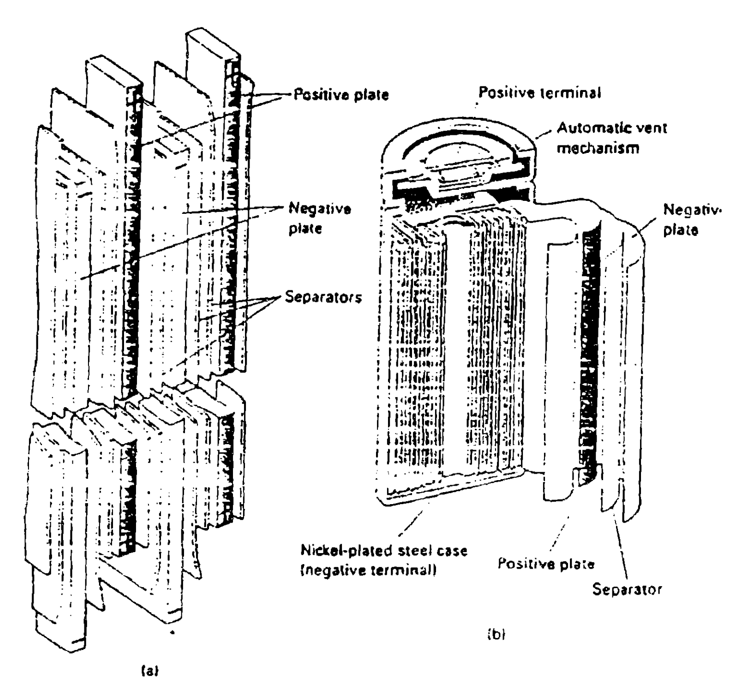
٢ ــ خلايا هيدريد الفلز واوكسيد النيكل

المقدمـــة

وهذه الخلايا تشبه خلايا النيكل والكادميوم من نواح كثـــيرة . الاختلاف الرئيس بين نوعي الخلايا يكمـــن فـــي كـــون الـــهيدروجين الممتص في سبيكة فلز (أي هيدريد فلز) بمثابة المادة الفعالة الســـالبة بدل الكادميوم . بإبدال الكادميوم بهيدريد الفلز تحدث زيادة في كثافـــة الطاقة وتصبح الخلية المستحصلة أليفة محيطياً لان الخلية الجديـــدة لا تســـبب مشكلات تلوثية للمحيط كما هو الحـــال مـــع خليـــة النيكـــل والكادميوم . تتمتع خلية هيدريد الفلز واوكسيد النيكل بقدرة اقل علـــى الاحتفاظ بشحنتها وهي اقل سماحا بالشحن الاضـــافي (**over charge**) قياسا بخلية النيكل والكادميوم (الشكل ٨) .

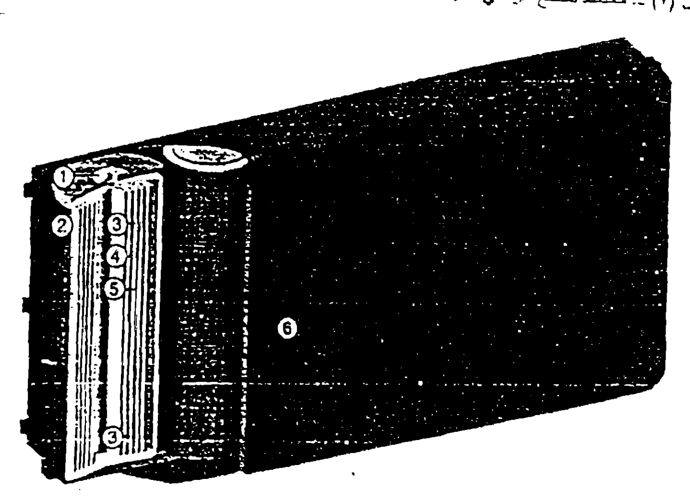
السبائك الفلزية الماصة للهيدروجين

اكتشفت السبائك الماصة للهيدروجين عام ١٩٦٠ خلال إجـــراء البحوث على المواد المغناطيسية . ويمكن مثل هذه السبائك ان تمتـــص حجوما من غاز الهيدروجين تفوق حجـــم السبيكة نفسها بـــــ (١٠٠٠) مرة او اكثر . والسبيكة المشار اليها هنا تتألف من فلزيـــن رئيســـين ، يكون أحد الفلزين هو الماص للهيدروجين مع انبعاث حرارة في حيـــن يكون الفلز الثاني ماصاً للحرارة ويقوم ايضاً بفعـــل عـــامل مســـاعد (catalyst) في تفكيك جزئيات غاز الهيدروجين الى ذرات التي تعاني امتزازعلى سطح الفلز ثم تنتشر ذرات الهيدروجين الممتزة الى داخـــل الهيكل البلوري للسبيكة لتكوين هيدريد فلزي غير تكافئي . والســـبائك المعروفة في هذا المجال تـــأخذ الصيغة التركيبية AB_2 (مثل $ZnNi_2$



Schematic cross-section of spiral wound cylindrical sealed nickel–cadmium cell

الشكل (٧) ــ مخطط لمقطع عرضي لخلية نيكل وكادميوم مختومة أسطوانية ملفوفة حلزونياً



Six-cell nickel–metal hydride battery. 1. positive cap, connected to the nickel oxide electrode; 2. can, connected to metal hydride electrode and serving as negative terminal; 3. separator; 4. cathode; 5. anode; 6. plastic battery case which contains interconnected cells and electronic management system.

الشكل (٨) ــ انموذج من نضيدة النيكل وهدريد فلز

من النيكل والزركونيوم) او التركيب AB_5 (مثل LaNis من النيكـــل واللانثانوم) . وبالإحلال الجزئي بمحل أحد مكوني الســبيكة تصبـح السبيكة قادرة على التحكم على مدى تمددها الحجمي وعلــى تكويـن غشـــاء سطحـــي جيد ، وبذا يتـم الحصول على قطب سالب امثل في الخلية .

تفاعل الخلية

التفاعل الذي يتم عند القطب السالب للخلية يتمثل بالمعادلة :

$$M_{(s)} + H_2O_{(l)} + e \underset{\text{تفريغ}}{\overset{\text{شحن}}{\rightleftharpoons}} MH_{(s)} + OH_{(aq)} \quad ....(7)$$

و M هنا يمثل أحد فلزي السبيكة ، ويكون هيدريد الفلز MH في توازن مع الهيدروجين الغازي بحيث تصبح القوة الواقعة الكهربائية للمنظومـة هذه ممثلة بالعلاقة :

$$- \frac{RT}{2F} \ln P_{H2}$$

حيث P_{H2} هو الضغط الجزئي للهيدروجين الغازي الناجم عن تفكـك الهيدريد و R ثابت الغاز و T درجة الحرارة على مقيـــاس كلفـن و F ثابت فراداي .

اما التفاعل الذي يتم على القطب الموجب للخليـــة فـهو نفـس التفاعل الذي يحدث على القطب الموجب لخلية النيكل والكادميوم :

$$NiO\,(OH)_{(s)} + H_2O_{(l)} + e \underset{\text{تفريغ}}{\overset{\text{شحن}}{\rightleftharpoons}} Ni\,(OH)_{2(s)} + OH_{(aq)} \quad ......(8)$$

والتفاعل العام للخلية يشتمل على مجموع التفاعلين (٧) و (٨) :

$$M_{(s)} + Ni(OH)_{2(s)} \underset{\text{تفريغ}}{\overset{\text{شحن}}{\rightleftarrows}} MH_{(s)} + NiO(OH)_{(s)} \quad ....(9)$$

ويتم تمثيل خلية هيدريد الفلز واوكسيد النيكل على النحو :

$MH_{(s)} | KOH_{(aq)} | NiO(OH)_{(s)}$

والكتروليت الخلية إذن هو محلول مائي مركز من هيدروكسيد البوتاسيوم كما هو الحال في خلية النيكل والكادميوم . تتراوح القوة الدافعة الكهربائية للخلية من ٣٢, ١ الى ٣٥, ١ فولت بحسب طبيعة السبيكة المستعملة ، وهي تساوي تقريباً القوة الدافعة الكهربائية لخلية النيكل والكادميوم . ولا يحدث تغير ملحوظ في تركيب وتركيز هيدروكسيد البوتاسيوم (الكتروليت الخلية) في دورات الشحن والتفريغ التي تتعرضها لها الخلية عادة . ويلاحظ ان التفاعل العام (المعادلة ٩) للخلية لا يشتمل على الماء بخلاف التفاعل العام الذي يحدث في خلية النيكل والكادميوم (المعادلة ١) . ويتم تنظيم موازنة الخلية بوساطة هيدروكسيد النيكل والتحكم به . والشحن الإضافي (OVERCHARGE) للخلية يؤدي الى تحرير غاز الأوكسجين على القطب الموجب بدلاً من تحرير غاز الهيدروجين على القطب السالب . وإذا كان التيار في نهاية دورة الشحن او عند الشحن الإضافي للخلية محدوداً يصبح بإمكان الأوكسجين المتحرر الانتشار خلال الفواصل البلورية فيتفاعل مع هيدروكسيد الفلز على النحو الآتي :

$$4MH_{(s)} + O_{2(aq)} \longrightarrow 4M_{(s)} + 2H_2O_{(l)} \quad ....(10)$$

وبذا لا ينشا ضغط داخلي في الخلية .

أمكن تصنيع خلايا زر أسطوانية ومنشورية وبأنماط أخرى مشابهة تماما لأنماط تصنيع خلايا النيكل والكادميوم . وهناك بعض الاختلاف في ظروف التشغيل (الكتروليت الخلية لا يتغير تركيبه بشكل ملحوظ) فانه يتم تركيب القطب الموجب للخلية بطريقة مختلفة وذلك لغرض الحصول على أداء امثل . ويعامل سطح القطب السالب للخلية بشكل يضمن تسهيل امتصاصه لغاز الهيدروجين ويعيق تحرر الغاز عند معدلات الشحن العالية . وتستعمل فواصل مطورة من البولي بروبلين الآلف للماء لغرض تحسين مميزات التفريغ الذاتي الضعيف للخلية . ويتم تركيب منافذ تهوية أمينة في الخلية يتم بسهولة التحكم في انسدادها وانفتاحها بحسب متطلبات ظروف الشحن والتفريغ .

لعل من مثالب هذه الخلايا تفريغها الذاتي العالي نسبياً الذي يصل الى (٤ –٥)% في اليوم . وينجم هذا بسبب ذوبان الهيدروجين في الالكتروليت وتفاعله من خلال ذلك مع القطب الموجب . وقد تعاني هذه الخلايا ايضاً ظاهرة هبوط الفولتية . الشكل (٩) يبين مقارنة مميزات التفريغ لخلية هيدريد الفلز واوكسيد النيكل مع خلية النيكل والكادميوم بدرجة ٢٠ مئوية لنماذج من الخلايا الأسطوانية .

خلية الخارصين وثنائي اوكسيد المنغنيز

بقيت فكرة تحضير خلايا من الخارصين وثنائي اوكسيد المنغنيز التي تكون قابلة للشحن واعادة الشحن تراود الباحثين والمهتمين في صناعة النضائد لاعوام طويلة . والمحاولات التي بذلت لاعادة شحن خلايا لكلانشيه العادية وخلايا الخارصين والكربون الابتدائية باءت جميعها بالفشل بسبب عدم رجوعية تفاعلات تفريغ هذه

الخلايا . وبإدخال خلية المنغنيز القلوية الابتدائية في عالم الخلايا الجافة في الستينيات من القرن المنصرم التي تتمتع بكيمياء ابسط بالإمكان إنتاج منظومة ثانوية جافة عندما اصبح بالإمكان التحكم باختزال ثنائي اوكسيد المنغنيز الى مرحلة $MnO_{1.5}$ لان خطوة اختزال Mn (III) في مادة MnO (OH) الى Mn (II) كانت مصحوبة بحصول تمدد في منطقة الكاثود وتؤدي الى تكوين دقائق غير قابلة للذوبان بالإضافة الى كون التحول عملية غير رجوعية . والمشكلة الأخرى التي كانت تقترن بخلية الخارصين والكربون هي النمو الشجيري للخارصين خلال عملية شحن النضيدة الذي كان يؤدي الى تكوين دوائر مغلقة داخلية في الخلية .

استطاعت شركة Union Carbide تجاوز هذه المشاكل عام ١٩٧٠ وأخذت تصنع خلايا ونضائد ثانوية قابلة للشحن . والخصائص الأولية للشحن (لغاية ٩, ٠ الفولت) لهذه الخلايا كانت مشابهة الى حد كبير لخصائص المنظومة الابتدائية ، ولكن لوحظ ان الطاقة المتاحة والقدرة كانت تنحدر وتهبط بسرعة كبيرة كلما تعرضت الخلية الى دورة شحن وتفريغ . وظاهرة فوق الشحن (overcharge) كانت تؤلف مشكلة حقيقية وتؤدي الى فشل الخلية والى ظاهرة التسرب عقب التفريغ العميق للخلية . ولم تنل هذه الخلايا الا نجاحا ضعيفا في الأسواق التجارية على الرغم من الكلفة الواطئة لهذه الخلايا .

تمكن الباحثون الذين كان يقودهم الباحث كورديش Kordesch في الجامعة التكنولوجية بـ كراتز (Gratz) بالتعاون مع شركة تقنيات النضائد العالمية من التوصل في أواخر عام ١٩٨٠ وأوائل ١٩٩٠ الى تصنيع الخلايا التي سميت اختصاراً بـ RAM كما سنأتي

الى شرح ذلك لاحقاً . ونالت هذه الخلايا نجاحا وقبولاً وبدأت الشركات بإنتاج خلايا رام على النطاق التجاري منذ عام ١٩٩٣.

تكتب خلية الخارصين ومخلوط ثنائي اوكسيد المنغنيز مع الكربون القلوية على النحو الآتي :

$$Zn_{(s)} \mid KOH_{(aq)} \mid MnO_{2(s)}, C_{(s)}$$

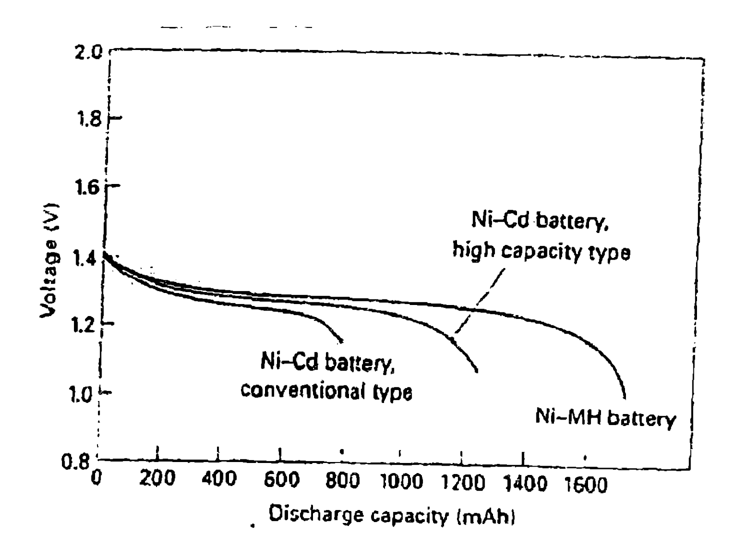
ويكون تفاعلها العام كما يأتي :

$$Zn_{(s)} + MnO_{2(S)} + \frac{1}{2} H_2O_{(l)} \longrightarrow MnO.OH_{(s)} + ZnO \quad ..... (11)$$

وتبلغ القوة الدافعة الكهربائية للخلية ٥٥, ١ فولت بدرجة ٢٥ مئوية . وتفريغ الخلية يشتمل على حركة البروتونات والإلكترونات عند الكاثود الى داخل الهيكل البلوري لثنائي اوكسيد المنغنيز شرط أن لا يسمح بتجاوز التفريغ لمستوى الكترون واحد . وقد لوحظ أن سعة الخلية تهبط مع ازدياد عدد دورات الشحن والتفريغ للخلية ، وان عدد الدورات التي يمكن بلوغها يعتمد بدرجة أساسية على عمق عملية التفريغ .

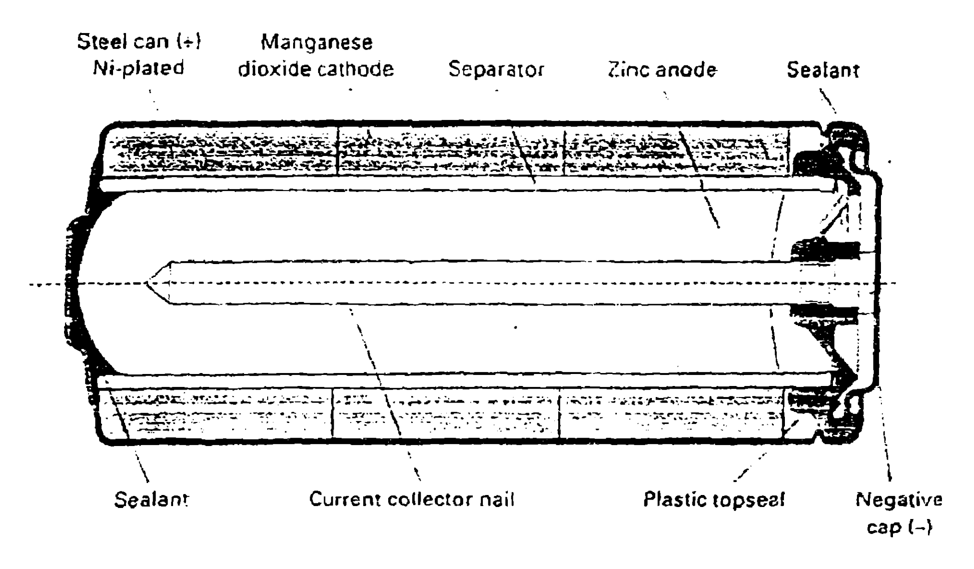
تصميم الخلية

ويكون مشابهاً لتصميم خلية ابتدائية (الشكل ١٠) . ويستخدم للكاثود ثنائي اوكسيد المنغنيز الالكتروليتي (EMD) مخلوطاً مع الكرافيت (بنسبة ١٠%) ويتم تحويلهما الى أقراص حلقية الشكل . وقد تحوي ايضاً كميات قليلة من بعض المضافات كعوامل مساعدة التي تعين في إعادة اتحاد ذرات الهيدروجين لتكوين هيدروجين غازي . وقد يضاف ايضاً مسحوق لمادة خاملة الذي يتحكم في مسامية مادة القطب . اما الانود فانه يصنع من مسحوق الخارصين في وسط هلامي من هيدروكسيد البوتاسيوم مع بعض المثبطات العضوية التي تفيد في تقليل



Comparison of discharge characteristics for Ni–Cd and Ni–MH cylindrical cells at 20°C. Cell height = 42 mm, cell diameter = 16.5 mm. Charge = 1 C, discharge = 0.2 C.

الشكل (٩) ــ مقارنة مميزات التفريغ لخلية نيكل وهدريد فلز بخلايا نيكل وكادميوم اسطوانية بدرجة ٢٠ مئوية



Cross-section of a RAM cell.

الشكل (١٠) ــ مقطع عرضي لخلية رام

تأكل القطب . وتحتاج الخلية الى تركيز عال من هيدروكسيد البوتاسيوم كي يساعد في تكوين الزنكات في بداية التفاعل .

$$Zn_{(s)} + 4OH^{-} \longrightarrow Zn(OH)_4^{2-}{}_{(aq)} + 2e \quad ....(12)$$

والتي تتحول الى طبقة مسامية من اوكسيد الخارصين حول دقائق الخارصين وفقاً للتفاعل :

$$Zn(OH)_4^{2-}{}_{(aq)} \longrightarrow ZnO_{(s)} + 2OH^{-}_{(aq)} + H_2O_{(l)} \quad ....(13)$$

ويضاف اوكسيد الخارصين ZnO ايضاً الى الالكتروليت (KOH) في البداية لغرض التقليل من احتمال تكوين الهيدروجين في عملية الشحن . وانه من المهم جداً منع استمرار التفريغ الى اكثر من مستوى الإلكترون الأول الذي يعني عملياً قبيل تكوين الحالة $MnO_{1.6}$. فإذا انخفض التفريغ الى اقل من ٩, ٠ فولت فانه تتحرر عندئذٍ دقائق قابلة للذوبان التي تتسبب في سلوك غير رجوعي لتأكل الخارصين . ويتم استعمال فواصل ثنائي او متعدد الطبقات تملأ بمادة ليفية وذلك لمنع تكوين دوائر مغلقة داخلية في الخلية عند تكوين شجيرات الخارصين خلال عملية الشحن .

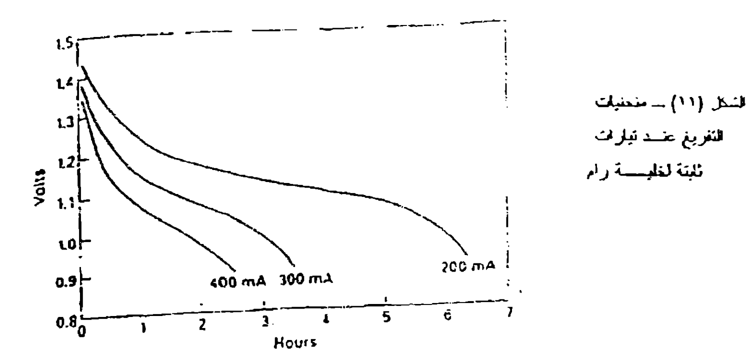
الأداء

تصنع خلايا رام وتباع بحالة مشحونة ولها سعة ابتدائية تبلغ ٨ ,١ أمبير ساعة للخلايا التي تكون بحجم AA والتي تتفرغ عند تيار (٥٠) ملي أمبير مقارنة بسعة (٢) أمبير ساعة لخلية ابتدائية مكافئة . وتهبط سعة خلية رام الى (١) أمبير ساعة عقب خزنها لمدة (٣) سنوات بدرجة الحرارة الاعتيادية . وعند التصريفات العالية للتيار تهبط السعة الابتدائية الى نحو (٠،٦) أمبير ساعة عند التفريغ بتيار (٤٠٠)

ملي أمبير (الشكل ١١) . تصمم خلايا رام عادة كي تعمل في مـــدى درجات الحرارة (صفر –٦٥) مئوية .

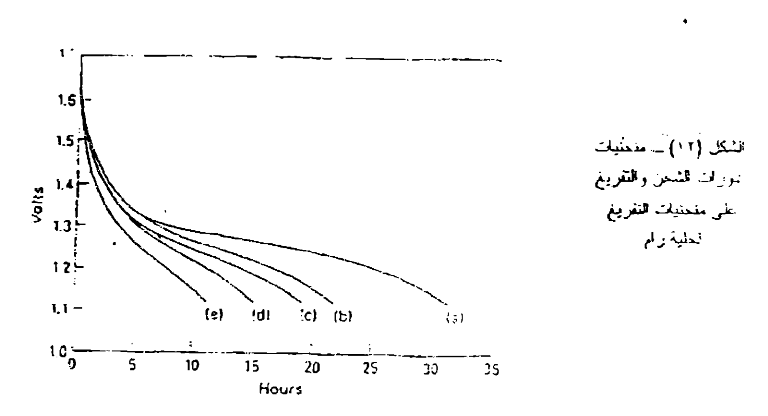
ان تعريض خلايا رام الى دورة شحن وتفريغ يؤدي الى فقـدان مستمر وأساسي في سعتها ولاسيما عند تعريضها الى تفريـــغ عميـق (الشكلان ١٢ و ١٣) . ويبين الشكل (١٤) منحنى خفوت السعة ، وتقل درجة خفوت السعة إذا ما تم إنهاء التفريغ عند فولتيات أعلى تتـــاظر الى استعمالات أوطأ للسعة . وعند ظروف التفريغ الجزئي (الشـــكل ١٥) فان خلايا رام يمكنها التعرض الى مئات الدورات بسعة قليلـــة . ولا تعاني خلايا رام ظاهرة تأثير الذاكرة (**memory effect**) ، ومثـل هذه الظاهرة تحدث عادة في خلية النيكل والكادميوم وفي بعض خلايـــا النيكل وهيدريد الفلز التي تتسبب في تناقص واختزال مؤقت في ســـعة الخلية التي تعقب دورات الشحن والتفريغ غير العميقة التي تتعـــرض اليها الخلية . ويمكن خلايا رام تجهيزنا بسعة تفريغ عميـــق اعتيـادي عقـب دورات التعـرض الى دورات التفــريغ والشــحن القصـــيرة المضاعفة . ويبلغ معدل التفريغ الذاتي لخلايا رام نحو ٠,٠١ % فـــي اليوم لذا تعد خلايا رائعة وافضل من خلايا النيكل والكـــادميوم ومـن خلايا النيكل وهيدريد الفلز (الشكل ١٦) .

ويمكن شحن خلية رام عند جهد ثابت او عند تيار ثـــابت مـــع الالتزام بفولتية قطع تبلغ (١,٦٥) فولت وذلك منعـــاً لتكويـــن دقـــائق Mn(VI) وتستخدم عادة أجهزة شحن خاصة لخلايا رام التـــي تسـمح بإجراء دورات سريعة مثلى ، وهي تستعمل نبضات تيار تصـــل الـــى (٥٠ – ٦٠) هرتز ، وهي تعمل على مراقبة فولتية الدائـــرة المفتوحـــة للخلية خلال انقطاعات التيار . والجدول (١) يبين مقارنة بين خلية رام



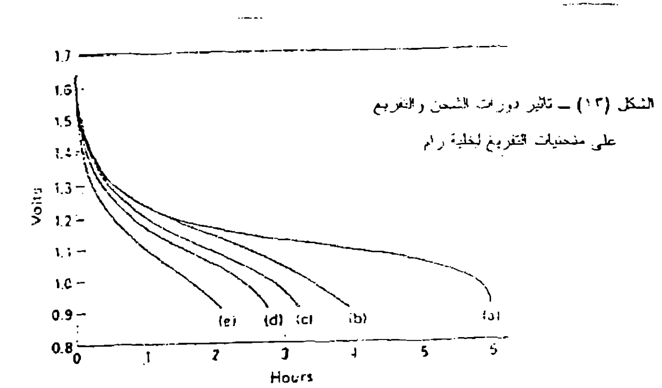
الشكل (١١) ـ منحنيات التفريغ عند تيارات ثابتة لخليـــة رام

Voltage profile for constant current discharge of a RENEWAL® AA RAM cell



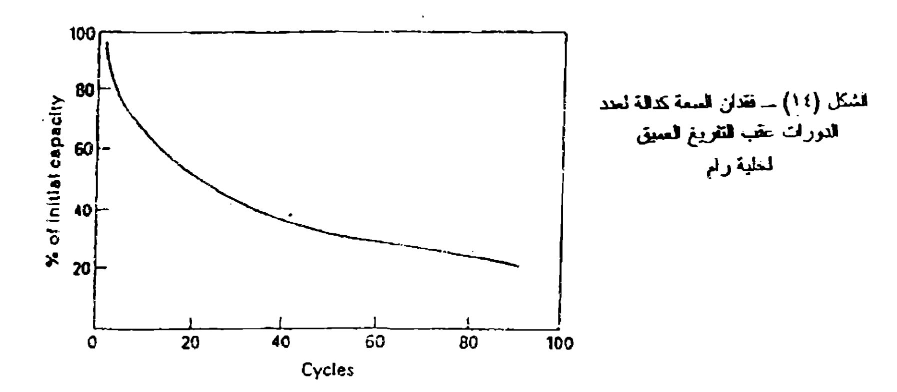
الشكل (١٢) ـ منحنيات دورات الشحن والتفريغ على منحنيات التفريغ لخلية رام

Effect of charge–discharge cycles on discharge curve of a RENEWAL® AA RAM cell. Constant current discharge at 50 mA. (a) Cycle 1, (b) cycle 5, (c) cycle 10, (d) cycle 25, (e) cycle 50.



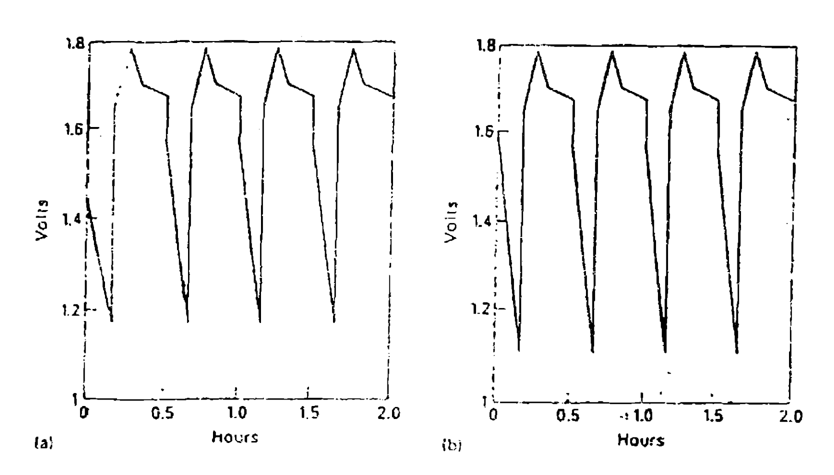
الشكل (١٣) ـ تأثير دورات الشحن والتفريغ على منحنيات التفريغ لخلية رام

Effect of charge–discharge cycles on discharge curve of a RENEWAL® AA RAM cell. Constant current discharge at 200 mA. (a) Cycle 1, (b) cycle 10, (c) cycle 25, (d) cycle 50, (e) cycle 100.



الشكل (١٤) ـ فقدان السعة كدالة لعدد الدورات عقب التفريغ العميق لخلية رام

Loss in capacity as a function of cycle number following full discharge for a RENEWAL® AA RAM cell.



Repetitive short discharge cycles for a RENEWAL® AA RAM cell; 400 mA constant current discharge for 10 minutes followed by standard recharge. (a) Cycles 1–4, (b) cycles 707–800.

الشكل (١٥) ـ دورات التفريغ المتقطع المتكرر لخلية رام

(من نوع Rayovacs Renewal) بخلية نيكل كادميوم وبخلية نيكـــل وهيدريد الفلز .

الجدول (١) مقارنة خليـــة رام بخليتـــي نيكل كادميوم ونيكل هيدريـــد الفلز :

خصائص الخلية	خلية نيكل كادميوم	خلية نيكل هيدريد الفلز	خلية رام
١. السعة الاعتيادية (mAh)	٧٥٠	١١٠٠	١٤٠٠ (ابتدائي)
٢. عمر الدورة	٢٠٠+	٣٠٠+	٢٥+
٣. الوزن (غرام)	٢٢	٢٦	٢٤
٤. كثافة الطاقة (Wh/kg)	٤١	٥١	٨٠ ابتدائي
٥. كثافة الطاقة(Wh/dm^3)	١١٥	١٧٠	٢٢٠ ابتدائي
٦. التيارالمعدل الاقصى (A)	اكثر من ٥	اكثر من ٢	٠,٥
٧. تيار الذروة (A)	اكثر من ١٠	اكثر من ١٠	١
٨. التفريـــغ الذاتـــي بدرجـــة حرارة الغرفة (% في اليوم)	١	٤	٠,٠١
٩. فولتية التشغيل (فولت)	(١,٣ – ١,٠)	(١،٣ – ١،٠)	(١,٤ – ٠,٩)

وتمتاز خلايا رام بقلة كلفتها وبعدم وجود فلزات ثقيلـــة فيـــها وبامتلاكها لعمر رف ممتاز وبقدرة عالية على الحفاظ على السعة . اما مثالبها فتكمن في محدودية عمر الدورة وبحصول تناقص ملحوظ فـــي السعة عند تعريضها الى تفريغ عميق ، لذا فان هذه الخلايا غير مناسبة لتطبيقات التيار العالي إذ تكون الحاجة الى تعريض الخلية الـــى دورات عميقة متكررة وكثافة طاقة خلايا رام اقل مما لخلايا أيون الليثيـــوم . وبإدخال خلايا رام في السوق التجاري أمكن تجهيز المســـتهلك بنـــوع

فريد من مصادر الطاقة الكهربائية ، فهي قابلة للاستعمال مباشرة عقب الشراء ، وهي تحتفظ بشحنتها مدة طويلة لحين إعادة شحنها من جديد .

خلايا الحديد واوكسيد النيكل Iron – Nickel Oxide Cells

لمنظومة الحديد واوكسيد النيكل القلوية ملامح كثيرة مشتركة مع منظومة النيكل والكاميوم . وقد طور هذه الخلايا اديسون في مطلع القرن العشرين وسجلت كبراءة اختراع عام ١٩٠١ ، وهي نفس السنة التي تم فيها تسجيل براءة اختراع بخلية النيكل والكادميوم . ويعد الحديد مادة فعالة ومفضلة لصنع النضائد بسبب كلفته الواطئة وتوفره ولسعته النوعية العالية التي تبلغ ضعف السعة النوعية للكادميوم .

وليس للحديد ضرر على البيئة كما هو الحال مع الكادميوم . ونظراً لكون جهد اختزال الحديد أوطأ مما للهيدروجين ، ولكون فوق فولتية الهيدروجين على الحديد واطئاً فان الاحتفاظ بالشحنة يكون فقيراً وتكون الكفاءة منخفضة .

بدأ تصنيع نضائد الحديد واوكسيد النيكل عام ١٩٠٨ ، ولكن المنظومة لم تلق نجاحاً مماثلاً للنجاح الذي رافق نضائد النيكل والكاميوم ، لذا بقي إنتاج هذه النضائد محدوداً في الولايات المتحدة وألمانيا وروسيا .

يمكن كتابة خلية الحديد تامة الشحن على النحو الآتي :

$Fe_{(s)} \mid KOH_{(aq)} \mid NiO(OH)_{(s)}$

وللخلية فولتية دائرة مفتوحة تبلغ ١,٤١ فولت بدرجة ٢٥ مئوية وتكون هذه الفولتية أعلى إذا كانت الخلية حديثة الشحن بسبب وجود وتكوين اكاسيد أعلى للنيكل في عملية الشحن . والتفاعل الأساسي للخلية هو :

$$Fe_{(s)} + 2NiO(OH)_{(s)} + 2H_2O_{(l)} \underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftharpoons}} Fe(OH)_{2(s)} + 2Ni(OH)_2 \quad .....(14)$$

ويمكن اشتمال المنظومة على دقائق ذائبة أخرى مثل $Fe(OH)_2^-$ و FeO_2^- ويمكن أيضا تكوين $Fe(OH)_3$ و Fe_3O_4 عند تعرض الخلية الى التفريغ العميق . وتبلغ كثافة الطاقة العملية لخلايا ذات صفائح أنبوبية تقليدية تبلغ (٢٠ –٣٠) واط ساعة للكيلو غرام . وتصل في الخلايا الأكثر حداثة التي تستخدم أقطاب حديد ملبدة بالكبس الى (٤٠ – ٦٠) واط ساعة للكيلو غرام .

الأقطاب الموجبة

التركيب الأكثر شيوعاً للأقطاب الموجبة هو بجعلها أنبوبية الشكل جيبية الخصائص ويتم تنظيمها في خطوط متوازية ترتبط جميعاً بإطار فولاذي مطلي بالنيكل . وتصنع هذه الأنابيب بلف شريط فولاذي مطلي بالنيكل ومثقوب بشكل حلزوني وتثبت على أبعاد ثابتة على امتداد أطوالها ، ويتم تكديسها على بعضها البعض بشكل طبقات متبادلة . إذ يتم وضع مسحوق هيدروكسيد النيكل الجاف ورقائق النيكل بين الطبقات . ورقائق النيكل تساعد على تحسين التوصيلية الإلكترونية . ويتم تحضيرها من صفيحة نيكل ونحاس متعددة الطبقات يتم تحضيرها كهروكيميائياً، ثم يتم قطعها الى قطع وغمرها في حامض الكبريتيك الذي يعمل على إذابة النحاس الموجود فيها . وتغلق الأنابيب بعد ذلك ثم كبسها باستعمال الضغط في داخل إطار لتكوين وحدة شبيهة بمنظومة الرصاص وثنائي اوكسيد الرصاص الأنبوبية . والأقطاب المحضرة تكون مكلفة وصعبة التحضير وبإمكانها مقاومة التمدد الذي قد يحصل

في المادة الفعالة . ويصل عمر الأقطاب المحضرة بهذه الطريقة الى اكثر من ٧ سنوات . وامكن مؤخراً استخدام صفائح سميكة ملبدة من النيكل على فولاذ مطلي بالنيكل ، وتمتلك مثل هذه الصفائح كثافات طاقة عالية .

الأقطاب السالبة

تكون المادة الفعالة في الخلايا الصفيحية الجيبية على هيئة مخلوط من مساحيق ناعمة من الحديد واوكسيد الحديد (Fe_3O_4) . وتختلف طرائق تحضير هذا المخلوط من مصنع الى آخر إلا أن جميع الطرائق المستعملة تنتهي بعملية أكسدة الحديد بالتحكم في الأوكسجين او باختزال اوكسيد الحديد Fe_3O_4 باستعمال الهيدروجين . وتضاف مواد مثل الكادميوم واوكسيد الكادميوم او الكرافيت لتحسين التوصيل الإلكتروني واحتفاظ الأقطاب لسعتها . ويتحسن أداء القطب بإضافة نحو ٠,٥ %من كبريتيد الحديد الى المخلوط .

الالكتروليت

وهو محلول مائي من هيدروكسيد البوتاسيوم بكثافة (١,٢٢ ـــ ١,٣) غرام على السنتمتر المكعب بدرجة ٢٥ مئوية . ويضاف قليل من هيدروكسيد الليثيوم بنسبة (١-٢)% إليه كما هو الحال مع خلية النيكل والكادميوم .

توضع فتحات تهوية في خلايا الحديد واوكسيد النيكل . وتكون الأقطاب صفيحية جيبية او أنبوبية ، وتوضع في أغلفة فولاذية مطلية بالنيكل . وتستخدم فواصل من ألياف نسيجية مصنعة بين الأقطاب

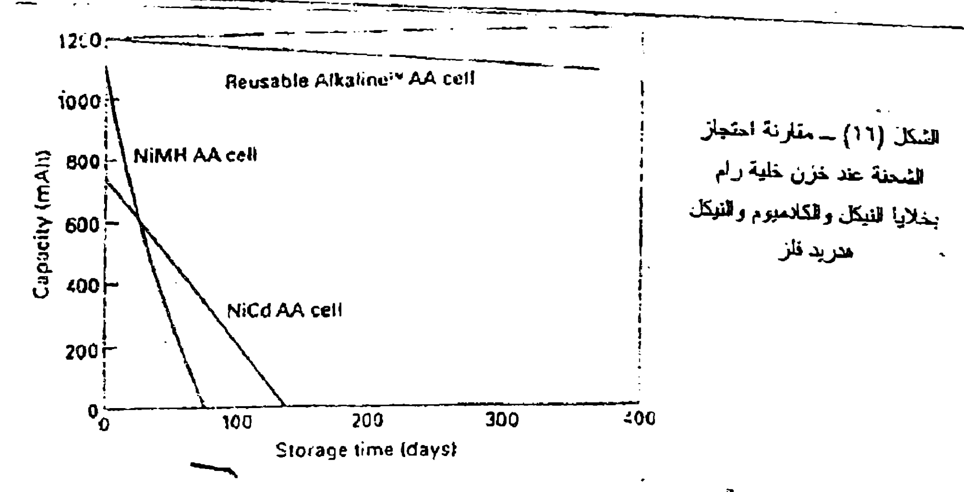
الموجبة والسالبة . والخلايا التي تشتمل على أقطاب صفيحيـــة ملبـــدة تكون المسافات الفاصلة بين أقطابها قصيرة .

الأداء والتطبيقات

تبلغ كثافة الطاقة النظرية لخلية الحديد واوكسيد النيكـــل ٢٦٨ واط ساعة لكل كيلو غرام . يبين الشكل (١٧) انموذجاً لمنحني الشـــحن والتفريغ بمعدل $\frac{C}{3}$ ويبلغ متوسط فولتيـــة التفريـــغ ٢,١ فولـــت . وتصل سعات الخلايا التجارية إلى المـــدى (٢٥٠ ــ ٦٠٠) امبـــير ساعة . وتكون كفاءة الدورة عادة واطئة بسبب الحاجة الى فوق شـــحن شديد الأداء في درجات الحرارة الواطئة يكون متواضعاً قياساً بخليـــة النيكل والكادميوم . استخدمت خلايا الحديد واوكسيد النيكل سنين طويلة لاغراض الإنارة في خطوط السكك الحديدية وفـــي القـــاطرات وفـــي العربات الصناعية .

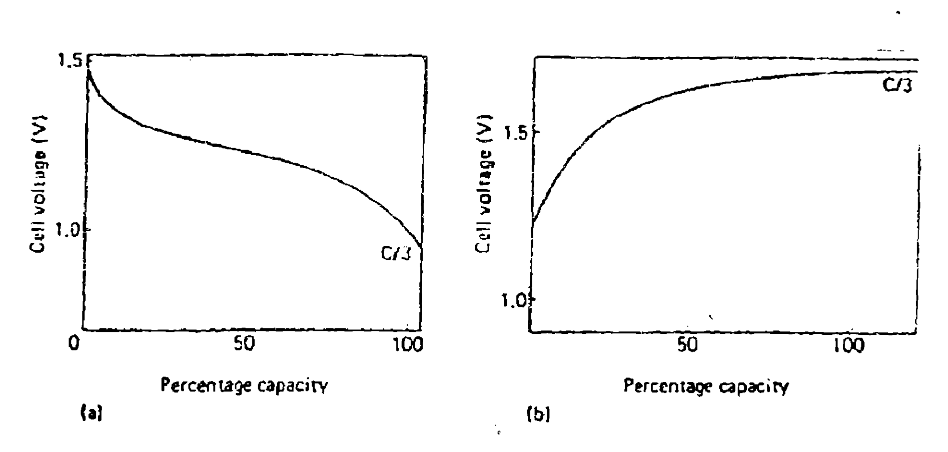
خلايا الخارصين واوكسيد النيكل **Zinc – Nickel Oxide Cells**

صنعت هذه الخلايا منذ نحو قرن من أقطاب خارصين واوكسيد النيكل المغمورة في محلول قلوي . استخدمت لاول مرة عـــام ١٩٣٠ على هيئة النضيدة المسماة بـــ ((درام **Drum**)) في مجـــال الســـكك الحديدية لسحب العربات في قطار المسافرين بـــارلندة . تتمتـــع هـــذه الخلايا بمزايا كثيرة أهمها هي فولتية التشغيل العالية ، وكثافة الطاقـــة العالية ، ومعدل التفريغ العالي ، وكذلك الكلفة الواطئة نسبياً للنضيـــدة . والسعة النوعية النظرية للخارصين (البالغة ٨٢٥ أمبير ساعة للكيلـــو غرام) عالية كما هو الحال مع خلية الحديد واوكسيد النيكل وتصل الى



الشكل (١٦) ـ مقارنة احتجاز الشحنة عند خزن خلية رام بخلايا النيكل والكادميوم والنيكل هدريد فلز

Comparison of charge retention on storage of a RENEWAL® AA RAM cell with typical nickel–cadmium and nickel–metal hydride cells.



Discharge (a) and charge (b) characteristics of a typical iron–nickel oxide cell at C/3, as a function of percentage capacity

الشكل (١٧) ـ خصائص التفريغ (a) والشحن (b) لخلية حديد واوكسيد النيكل انموذجية عند $\frac{C}{٣}$ كدالة للنسبة المئوية للسعة

ثلاثة أضعاف السعة النوعية لخلية الرصاص الحامضية . وللخلية بعض المثالب مثل عمر الدورة القصير نسبياً والاحتفاظ الضعيف بالشحنة .

يمكن تمثيل الخلية المشحونة على النحو :

$Zn_{(s)}$ | KOH $_{(aq)}$ | NiO $(OH)_s$

وتصل فولتية الدائرة المفتوحة لهذه الخلية الى ١,٨٥٤ فولت بدرجة ٢٥ مئوية ، واكثر قليلاً عندما تكون مشحونة حديثاً بسبب وجود اكاسيداً أعلى للنيكل في الخلية . ويكون التفاعل العام للخلية على النحو :

$$Zn_{(s)} + 2\,NiO(OH)_{(s)} + 2H_2O_{(l)} \underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftharpoons}} 2NiO(OH)_{2(s)} + Zn\,(oh)_{2(s)}$$

وناتج التفريغ الرئيس هو دقائق زنكات الخارصين الذائبة $Zn(OH)_4^{2-}$ التي تتجمع على قطب الخارصين .

بناء الخلية

ان تصميم الصفيحة الحبيبية غير مناسب بالنسبة للقطب الموجب بسبب إمكان ترشيح الزنكات الذائبة وما يعقبه من تناقص في سعة القطب الموجب . استعملت تقنيات حديثة لتحضير أقطاب هذه الخلية وتكون مادة الحشو على وفق هذه التقنيات من مادة بوليمرية مترابطة : يضاف الكتروليت الى الوسط الالكتروليتي في الخلية لغرض تحسين التوصيلية الالكترونية ، ويضاف الكوبالت لتحسين السعة . استعملت ايضاً أقطاب موجبة من ألياف نيكل .

ان المشكلات التي تتصل بهذه الخلايا تتعلق بالشكل البلوري والتوزيع الكهروكيميائي للخارصين .ويمكن للخارصين عند ظروف

معينة الترسب بشكل شجيري واختراق الفواصل الموضوعة بين الأقطاب الموجبة والسالبة وإحداث دوائر مغلقة داخلية . وبالمقابل تتكون رواسب ضعيفة الارتباط مسببة خفضاً في السعة الكهربائية للقطب . وقد تحدث تغيرات في الهيئة والشكل عندما يتم انتزاع الخارصين من حافات القطب خلال عملية التفريغ ، واعادة ترسبه بعد ذلك بالقرب من مركز القطب خلال عملية الشحن .

ولغرض التقليل من فرصة النمو الشجيري لا بد من التحكم في تركيز أيونات الزنكات وعدم السماح لها بالهبوط الى قيم واطئة . ويتم هذا من خلال عمل خلايا محددة النيكل . ولما كانت أقطاب NiO(OH) تحتاج عادة الى فوق شحن (أي شحن إضافي) بمقدار (٢٠ –٣٠) % لبلوغ السعة الكاملة (وذلك من جراء تحرر الأوكسجين) فانه يجري عملياً جعل سعة قطب الخارصين بقدر ضعف سعة القطب الموجب في الأقل . ويتحرر الأوكسجين على القطب الموجب في الخلايا المختومة ثم يتحد مع الخارصين على القطب السالب او انه يعاني اختزالاً كهروكيميائياً ، وبهذا نضمن عدم نضوب تركيز أيونات الزنكات حتى في حالة فوق الشحن مدة كافية ، والشحن الإضافي الشديد للخلايا المتهوية قد يؤدي الى ترسب الخارصين . وينبغي عند هذه الظروف جعل الخلية كدائرة مغلقة لغرض استعادة تركيز الزنكات . يبين الشكل(١٨) مزايا الشحن والتفريغ لخلية تعمل بدرجة حرارة الغرفة .

خلايا الخارصين واوكسيد الفضة Zinc – Silver Oxide Cells

عرفت هذه الخلايا منذ حوالي (١٠٠) سنة ، وهي من الخلايا الالكتروليتية المائية ذات الطاقة العالية . تبلغ كثافة الطاقة النظرية للخلية (٣٠٠) واط ــ ساعة للكيلو غرام (٤٠٠) واط ساعة للدسمتر المكعب . وامكن الوصول الى كثافة طاقة عملية بحدود (٤٠ ــ ١١٠) واط ساعة للكيلو غرام (او ١١٦ ــ ٣٢٠ واط ساعة للدسمتر المكعب) .

تم تطوير أول خلية ثانوية من الخارصين واوكسيد الفضة في فرنسا من قبل اندري (**Andre**) في أواخر الثلاثينيات من القرن المنصرم . وأمكن التغلب على مشكلة هجرة أيونات هيدروكسيد الفضة ($Ag(OH)_2^{-1}$ و $Ag(OH)_3^{-2}$ ودقائق أخرى مماثلة) الى قطب الخارصين من خلال استعمال فواصل من أغشية سليلوزية او سليفونية . وتتمتع هذه الخلايا بالأداء الجيد إلا أنها تكون بكلفة عالية وتعاني ضعف عمر الدورة . ويتدهور أداء الخلية بسرعة في درجات الحرارة التي تقل عن (١٠) مئوية . وتحتفظ الخلية بتيار تفريغ عالٍ في درجات الحرارة العالية ولا يترتب على ذلك استقطاب ملحوظ . وكثافة الطاقة العالية لهذه الخلايا تجعلها مناسبة للاستخدامات العسكرية ولأغراض الفضاء .

تكتب الخلية كاملة الشحن على النحو :

$$Zn_{(s)} \mid KOH_{(aq)} \mid AgO_{(s)} , Ag_{(s)}$$

ويتم تفاعل الخلية بمرحلتين :

$$2AgO_{(s)} + Zn_{(s)} + H_2O_{(l)} \underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftharpoons}} Ag_2O_{(s)} + Zn(OH)_{2(s)}$$

$$Ag_2O_{(s)} + Zn_{(s)} + H_2O_{(l)} \underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftarrows}} 2Ag_2O_{(s)} + Zn(OH)_{2(s)}$$

والجهد المناظر للتفاعل الأول هو ٨٥ , ١ فولت وللتفاعل الثاني ١,٥٩ فولت بدرجة ٢٥ مئوية . وتشترك دقائق الخارصين والفضة في تفاعلات الخلية .

بناء الخلية

هناك طرائق مختلفة لتحضير الأقطاب الموجبة . وتتناول إحدى هذه الطرائق بتلبيد مسحوق الفضة ، ويتم الحصول عادة على أقطاب بخصائص ميكانيكية مميزة . وكتلة الفضة المتكونة بتلبيد مسحوق الفضة في درجات الحرارة من ٤٠٠ الى ٧٠٠ مئوية تؤدي الى تكوين مشابك فضة أو فضة مكسوة بالنحاس ذات متانة عالية . وتسمح هذه الطريقة لإجراء عملية تصنيع مستمرة والحصول على قطب موجب بحالة غير مشحونة كلياً ، وهذا من شأنه تحسين خصائص النضيدة الخزنية ، فهي تخلو عندئذٍ من تفاعلات التفريغ الذاتي لأقطاب النضيدة : وتضاف راتخات عضوية ومواد مساعدة على تكوين المسام الى الفضة . وهناك طريقة غير تلبيدية تعتمد على استخدام ألواح مهيأة كهربائياً يتم فيها نشر طمي اوكسيد الفضة والماء على مشبك مساند مناسب .

واستعملت كذلك طرائق مختلفة لتصنيع أقطاب الخارصين . وتبدأ إحدى هذه الطرائق باستعمال اوكسيد الخارصين ومضافات مختلفة ، يتم بعدها إجراء اختزال كهروكيميائي في محلول هيدروكسيد البوتاسيوم . ويستعمل في طرائق أخرى مخلوط من الخارصين

واوكسيد الخارصين وعوامل ربط عضوية . ويتم تصنيع الأقطاب على مشابك مفتوحة . وتؤدي جميع الطرائق المستخدمة في الحصول على أقطاب ذات مسامية عالية ويسمك يمكن التحكم فيه . والمضافات هي منشطات سطوح التي تعمل على التقليل من النمو الشجيري للخارصين وتضاف أيونات الزئبقيك لزيادة فوق فولتية الهيدروجين على الخارصين والتقليل من التأكل .

ان الفواصل التي توضع بين الأقطاب الموجبة والسالبة في خلايا الخارصين واوكسيد الفضة الثانوية تعد من المكونات المهمة للخلية . فهي بالإضافة الى دورها في منع التماس بين الأقطاب الموجبة والسالبة ومنع تكوين الدوائر المغلقة الداخلية فأنها تؤدي وظائف أخرى نذكر منها :

١. منع هجرة أيونات الفضة الى القطب السالب (الانود) .
٢. التحكم في هجرة أيونات الزنكات .
٣. تمتاز خصائص انتفاخ مناسبة تتناسب والحصول على شكل بلوري جيد وتوزيع ملائم في عملية الشحن .
٤. الحفاظ على تكامل قطب الخارصين .
٥. التمتع بمقاومة كهربائية منخفضة وباستقرار حراري وكيميائي جيد وان يكون خفيفاً لغرض الحفاظ على كثافة طاقة عالية للخلية .

الخلايا التجارية تكون عادة بشكل متوازي المستطيلات (موشورية) ويكون غلاف الخلية من البلاستك . ويكون مقدار الالكتروليت الحر في الخلية محدوداً ، ويكون معظم الالكتروليت موجوداً في مسام القطب وفي مسام الفواصل . والخلايا حديثة التكوين يتم تعريضها الى دورات تكوين لغرض تنشيط المنظومة . وتباع

الخلايا مشحونة وبشكل جاف . ويمكن خزن الخلايا الجافة مدة غـــير محدودة اما الخلايا المشتملة على الالكتروليت فانه يمكن خزنها بحالـــة غير مشحونة ، وبذا يمكن التغلب على مشكلة ذوبان اوكسيد الفضة .

الأداء والتطبيقات

تكون كثافة الطاقة لخلية الخارصين واوكسيد الفضـــة العمليـــة اكبر بحوالي (٥ –٦) مرات مما لخلية النيكل والكـــادميوم المكافئـــة . الشكل ((a) ١٩) يبين منحنيات التفريغ للخليـــة بـــالمعدلين الواطـــئ والعالي . ففي التفريغ الواطئ للخلية تظهر هضبتان في المنحني عنـــد ١, ٧ و ١, ٥ فولت تناظران الى التفاعلين اللذين تمت الإشارة اليـــهما في صدر الموضوع . والتغير من Ag (II) الى Ag (I) في عمليـــات يمكن التحكم فيها يتوقف على معدل التفريغ ، وتختفي الهضبـــة العليـــا عند المعدلات العالية للتفريغ . ويمثل الشكل ((b) ١٩) منحنى إعـــادة شحن الخلية عند $\frac{C}{10}$. وتعتبر الخلية كاملة الشحن عندمـــا يصـــل جهدها الى ٢ فولت .

أمكن صنع خلايا ثانوية من الخارصين واوكسيد الفضة بسعات تمتد من ٥, ٠ الى ١٠٠ أمبير ساعة لغرض استعمالها فـــي الأقمـــار الصناعية الفضائية وفي الطائرات العسكرية وفي الغواصات لغـــرض الحصول على قدرات مناسبة .

خلايا الكادميوم واوكسيد الفضة Cadmium – Silver Oxide Cells

عند استبدال الخارصين بالكادميوم في خلية الخارصين واوكسيد الفضة تنخفض فولتيـــة الخلية لدائرتها المفتـــوحة الى (٤, ٠) فولت ،

Cell voltage (V)

2C C/1 C/10

0 100 200

Capacity (Ah)

(a)

الشكل (١٨) — خصائص التفريغ (a) والشحن (b) لخلية خارصين واوكسيد النيكل انموذجية (٢٠٠ امبير ساعة) كدالة للسرعة .

Cell voltage (V)

C/1 C/2 C/10

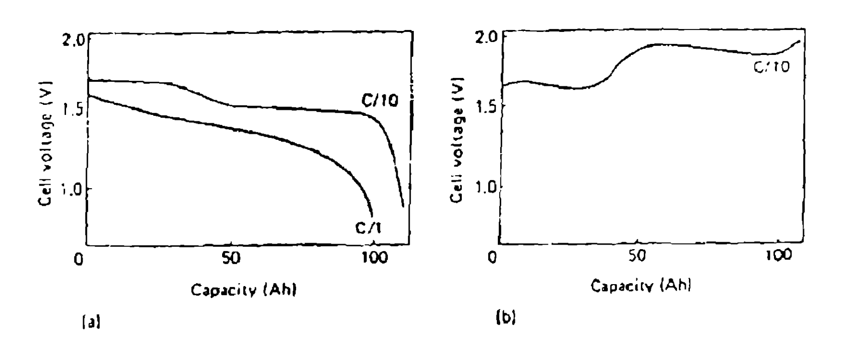
2.0 1.0

0 100 200

Capacity (Ah)

(b)

Discharge (a) and charge (b) characteristics of a typical 200 Ah zinc–nickel oxide cell as a function of rate



Discharge (a) and charge (b) characteristics of a typical 100 Ah zinc–silver oxide cell

الشكل (١٩) — خصائص التفريغ (a) والشحن (b) لخلية خارصين واوكسيد الفضة انموذجية (١٠٠ امبير ساعة

ويترتب عليه ازدياد في عمر الدورة للخلية . وخلية الكادميوم واوكسيد الفضة مشابهة كثيراً لخلية النيكل والكادميوم ولكنها تمتلك كثافة طاقة أعلى . وبالنظر للكلفة العالية لهذه الخلية فان استعمالاتها حصرت تقريباً في خلية الزر .

خلايا الحديد واوكسيد الفضة Iron – Silver Oxide Cells

ان التفاعل العام لخلية الحديد واوكسيد الفضة مشابهة تماماً لتفاعل خلية الخارصين واوكسيد الفضة وتكون النواتج النهائية لعمليات التفريغ في الخلية هي الفضة وهيدروكسيد الحديد Fe (OH) وتبلغ القوة الدافعة الكهربائية للخلية ٣٢ , ١ فولت . وتتمتع الخلية بعمر دورة أطول قياساً بخلية الخارصين واوكسيد الفضة . صنعت نضائد تصل طاقتها الى ١٠ كيلو واط ساعة من قبل بعض الشركات لأغراض خاصة .

خلايا هيدريد الفلز واوكسيد الفضة Metal Hydride– Silver Oxide Cells

يشتمل التفاعل العام للخلية على :

$$2M_{(s)} + Ag_{(s)} + H_2O_{(l)} \underset{\text{شحن}}{\overset{\text{تفريغ}}{\rightleftarrows}} 2MH + AgO_{(s)}$$

ولقطب الفضة كثافة طاقة عالية وعمر طويل للدورة بالنسبة لهيدريد الفلز . وتكون فولتية الخلية افضل قياساً بخلية النيكل وهيدريد الفلز وكذلك مقارنة بخلية الخارصين واوكسيد الفضة . وللخلية استخدامات للأغراض العسكرية والفضائية .

بعض المصادر المعتمدة :

١. جلال محـــمد صالح ، الكيمياء الكهربائية ، جامعة بغداد ، ١٩٩٥.

٢. جلال محمد صالح ، نضائد الرصاص الحامضية ، مجلة المجمــــع العلمي ، القسم الأول والقســـم الثـــاني لعـــام ٢٠٠٢ المجلـــد ٤٩ الصفحات (١٥ – ٤٨) و (٣٣ – ٨٠) .

3. J.O.'M., Bockris, A.K.N.Reddy and M.Gamboa, Modern Electrochemistry, 2nd Edn ., (Kluwer Academic – Plenum Publishers, New York, 2000).

4. D.Linden, Hand book of Batteries, 2nd Edn., (McGraw – Hill, New York, 1995) .

5. C.A.Vincint , Modern Batteries, An Introduction to Electrochemical Power soures, (John Wiley and Sons, New York, 1997) .

6. A. Santi, W. Tancher – Mautner and K. Kordesch, Battery Technology Incorporation, 2002, pp (1-3) .

7. J. Daniel – Ivad, K. Kordesch and E.Daniel – Ivad, Rechargeable Alkaline (RAM) Batteries, ECS Meeting Abstracts, 1998, Vol, MA 98-2, pp 43.

8. S.Kawuchi, T.Lijima and T.Kawase, New Battery Technologies, Matsushita Battery Industrial Co. Ltd,Osaka, 1994.

9. C.D.S. Tuch, Modern Battery Technology, (Ellis Horwood, New York,1991) .

10. S.Falk and A.J.Salkind, Alkaline Storage Batteries,Wiley , New York, 2003.

11. K. kordesch, Batteries, Vol I, Manganese Dioxide, Dekken, New York, 1974 .
12. D.W. Murphy, J. Broadhead and B.C.H. Steele, Materials for Advanced Batteries,Plenum Press , New York, 1980.
١٣. جلال محمد صالح ، خلايا الالكتروليتات المائيـــة الابتدائيـــة ، الجزء الأول ، المجلد (٥١) الصفحات (٤٣ - ١١٢) لعام ٢٠٠٤ .

علتا الاستخفاف والاستثقال عند ابن جني

أ. د. رشيد العبيدي

رئيس قسم اللغة العربية ــ الجامعة الإسلامية

الملخص

هذا البحث يتناول موضوع العلة النحوية والصرفية ، من العلل التي عرفها الباحثون المتقدمون ، وقد تناولنا فيه علتي الاستخفاف والاستثقال في معالجة بعض البنى والصيغ والتراكيب التي يحصل فيها تغيير أو تبديل عند أحد علماء اللغة في القرن الرابع الهجري ، وهو : (ابن جني : ت ٣٩٢ هـ) .

ويلاحظ القارئ أن قضية الثقل في الكلام توجب ــ غالبا ــ على الناطق أن يقوم بتغيير ما في البنية من أن اجل أن يخف ما فيه من الثقل على النطق ، لئلا يكلف لسانه ما يجهده او يجهد عضلات نطقه . وقد كثرت عند ابن جني الإشارات الى مثل ذلك ، فيقول ــ مثلا ــ ، (اعلم انه قد يقل الشيء في كلامهم وغيره اثقل منه ، قلل ذلك لئلا يكثر في كلاهم ما يستثقلون) ومع كون ابن جني قد اكثر من الإشارة الى مثل هاتين العلتين إلا أن سيبويه (ت : ١٨٠ هـ) قبله قد اهتم بهما اهتماما واضحا ، ثم درج علماء اللغة من بعده في الاستفاضة والتوسع .

ولقد ضم البحث جملة كبيرة من صور التعليل ــ فـــي الثقـل والخفة ــ مما يدل على أهمية ذلك عند أبي الفتح ابن جني ، ومعلوم أن التخفيف ، والهرب مما يثقل على اللسان في اللغة العربية ، هو سنة من سنن العربية وخصيصة من خصائصها .

تمهيـــد :

قضية الاستثقال والاستخفاف في اللسان العربي ، تحكمت فـــي كثير من التغيرات والتبدلات في التركيب والصيغة ، وتآلف الأصــوات أو تنافرها في كلامهم ، وشغلت هذه القضيـــة فـــي كتـــب النحويين واللغويين حيزا كبيرا من اهتمامـــاتهم ، فارجعوا الكثير من الظواهـــر إليها ، وعللوا بها ، فقالوا ــ مثلا ــ إنما حدث هذا طلبا للخفة ، وانمــا غيروا ذلك استثقالا من تتابع صوتين متقاربين او متماثلين .. الى غـير ذلك مما يعد علة وسببا للتغيير والتبديل وصياغـــة الكلــم ، وصحــة التراكيب ، يقول ابن جني في الحـــروف وائتلافـــها مـــع الحـــروف الأخرى : ((من ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه نحو : سصس وطس ، وظث ، وثظ ، وضش ، وشض وهذا حديث واضح ، لنفـــور الحس عنه والمشقة على النفس لتكلفه ، وكذلك نحو : قج وجق وكـــق وقك .. وكذلك حروف الحلق هي من الاختلاف ابعد لتقارب مخارجــها من معظم الحروف ، اعني : حروف الفم ، فان جمع بين اثنين منها قدم الأقوى على الأضعف ، نحو : أهل واحد واخ . وعهد وعهر ، وكذلـك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما الا بتقديم الأقوى منهما ، نحـــو : ارل ووتد ووطد))[1].

وتكثر مثل أحكام الخفة والثقل ــ في كتب ابن جني ، يســـتند إليها في تعليل الظواهر اللغوية الكثيرة ، ومن أقواله في هذا الجـــانب

---

[1] الخصائص : ١ / ٥٤ .

قوله : ((واعلم انه قد يقل الشيء في كلامهم وغيره اثقل منه ، كل ذلك لئلا يكثر في كلامهم ما يستثقلون))[٢].

وقوله : ((ان الضمة وان كانت اثقل من الكسرة ، فانها أقوى منها وقد يحتمل للقوة ما لا يحتمل للضعف .... وانما ضعفت الكسرة عن الضمة لقرب الياء من الألف وبعد الواو عنها))[٣].

وقوله ـ يعلل سبب الثقل في التماثل بين الحروف : ((إذا اختلفت أحوال الحروف حسن التأليف)) [٤]. وابن جني في ذلك يؤكد ما ذهب اليه سيبويه في كتابه حين قال : ((وقد يقل ما هو أخف مما يستعملون كراهية ذلك))[٥].

لقد جمع السيوطي في (الاقتراح) علل اللغويين ، فجعلها أربعة وعشرين نوعا ، وهي : علة السماع ، وعلة التشبيه ، وعلة الاستغناء ، وعلة الاستثقال ، وعلة الفرق وعلة التوكيد ، وعلة التعويض ، وعلة النظير ، وعلة النقيض ، وعلة الحمل على المعنى ، وعلة المشاكلة ، وعلة المعادلة ، وعلة القرب والمجاورة ، وعلة الوجوب ، وعلة التغليب ، وعلة الاختصار ، وعلة التخفيف ، وعلة الدلالة ، وعلة المحال ، وعلة الأصل ، وعلة التحليل ، وعلة الاشعار ، وعلة التضاد ، وعلة الأولى [٦].

---

[٢] نفسه : ١ / ٦٨ ـ ٦٩ .

[٣] نفسه : ١ / ٦٩ .

[٤] نفسه : ٢ / ٥٧ .

[٥] الكتاب : ٢ / ٤١٤ .

[٦] ينظر : الاقتراح : ٤٨ .

ومن بين هذه العلل ذكر علتين ـ وهما مدار حديثنا في هذا البحث ـ هما : علة الاستثقال ، وعلة التخفيف ، وهما علتان تدوران على السنة اللغويين كثيرا ، يستندون إليهما عند بيان أسباب حصول التغيرات الصوتية في الحروف صائتها وصامتها ، ولاسيما مباحث الإعلال والإبدال والإدغام والفك والحذف وما يتصل بذلك من الظواهر الصوتية في بنية التعبير .

ولعل اللغويين لا يجدون من العلل ما يرضي طماحهم بقدر يجدون في علتي الاستخفاف والاستثقال من حلول لاشكالات تعترض المنطق ، وتعتاص على اللسان ، وابن جني يجد ان تعذر الاعتلال في قضية لغوية يفرض عليه أن يجنح الى التفكير فيما في تلك القضية من ثقل وخفة ، فيرى الحل فيهما وصحة التفكير ، ((فكلما تعذر عليك أمر لم تعرف علته : جنحت الى طريق الاستخفاف والاستثقال ، فانك لا تعدم هناك مذهبا تسلكه))[٧].

وهذا الذي يؤكده ابن جني درج عليه النحويون في تعليل الكثير من الظواهر النحوية ، كتعليلهم الإضافة غير المحضة ، بانها لا تفيد تخصيصا ولا تعريفا ، بل هي تفيد تخفيفا[٨] ونحو تعليلهم حذف الهمزة من (لن) تخفيف إذ أن اصلها : (لا أن) كما يرى الخليل[٩]، وحذفها ـ أيضا ـ من (لكن) تخفيفا ، إذ أن اصلها (لكن أن) ـ عند الفراء

---

[٧] الخصائص : ١ / ٧٨ .

[٨] ينظر : شرح ابن عقيل : ٢ / ٢٦ .

[٩] ينظر / المغني لابن هشام : ١ / ٢٨٤ .

ـ فالتقت ثلاث نونات ، فحذفت النون الثالثة ، لالتقاء الساكنين الذي يحدث ثقلا في النطق[١٠].

ويقول ابن جني وهو يصف (الهمزة) : ((الست تعلم ان الهمزة مستثقلة ـ عندهم ـ فلم ذكرتها في الحروف الخفيفة ؟ فالجواب : ان الهمزة ، وان كانت كذلك ، فانك قادر على إعلالها وقلبها والتلعب بها ، تارة كذا ـ وتارة كذا ، وهذا لا يمكنك في الجيم ولا في القاف ، ولا في غيرهما من الحروف الصحاح))[١١] وانما قال ذلك لان الهمزة من الأصوات التي يميل الناطق بها الى تخفيفها وتليينها ، وقلبها ألفا او واوا او ياء ، او حذفها والتخلص من ثقل النطق بها .

وهذه الحالة التي تتصف بها الهمزة ، يعرفها اللغويون ـ غير ابن جني ـ فيقول ابن يعيش عنها : ((حرف شديد مستثقل ، يخرج من أقصى الحلق ، إذ كان ادخل الحروف في الحلق ، فاستثقل النطق به إذ كان إخراجه كالتهوع فلذلك من الاستثقال ساغ فيها التخفيف))[١٢]، ومن هنا جاء وصف الرضي الاسترابادي بان ((لها نبرة كريهة))[١٣]. وانما يجعلها اللغويون شديدة ، ومستثقلة ، ويصفونها بالتهوع في إخراجها ، وان لها نبرة كريهة ، لانهم يقصدون في ذلك كله ان تكون محققة في النطق ، أي : على طبيعتها في المخرج ، ولكن ابن جني يرمي الى ما تؤول اليه من التغيرات والتبدلات ، فهي تتحول الى واو ، في نحو : (شوم) من (شؤم) و (يومنون) في (يؤمنون) ،

---

[١٠] ينظر : شرح الاشموني : ١ / ١٣٦ .

[١١] ينظر : سر الصناعة : ٢ / ٨١١ : دمشق ١٩٩٣ م .

[١٢] شرح المفصل : ٩ / ١٠٧ .

[١٣] شرح الشافية : ٣ / ٣٠ .

وتتحول الى ياء في نحو : (بير وذيب) من : بئر وذئب ، وتتحـــول الى ألف في نحو : (فاس وراس) من : فأس ورأس ، وتحــذف فــي نحو (مُرْ) الفعل الأمري من (أمر) و (كل) الفعل الأمري مــن : أكل ، وفي نحو (سل) من الفعل إسأل ، وتلفظ (بيـــن بيــن) فــي قراءات القران ، وعامة الكلام [١٤]، الى غير ذلك من التغيرات التـــي يراد منها التخفيف في النطق والتخلص من الثقل ، يقول الاندرابـــي : ((فاما الهمز فإن من العرب من يستعمله وهم هذيل ــ يريـــد التلييـــن والتغيير فيها ــ واهل الحجاز تحذف ، والهمزة حرف يزيدها بعضـــهم ويحذفها بعضهم))[١٥].

فقد أعطانا الاندرابي الحالات التي تتلون فيـــها الـــهمزة بيـــن التخفيف والتثقيل والحذف والتليين والتغييرات الأخرى .

ومما ينطبق عليه مبدأ الخفة والثقل في بنية الكـــلام وتركيـــب الجمل موضـــوع تقديم الفاعل وتأخير المفعول ، ورفع الفاعل ونصـــب المفعول .

ومعلوم ان الفاعل رتبته ان يتقدم ، وان الفتحة أخف من الضمة غير ان ابن جني يقول : ((انما يقدمون الأثقل ويؤخرون الأخف مـــن قبل ، ان المتكلم في أول نطقه أقوى نفسا ، واظهر نشاطا))[١٦].

وهذا التعليل من ابن جني مرتبط بالجهد الذي يبذله المتكلم فـــي نطقه الكلام وابن جني يؤكد ذلك في اكثر مـــن موضـــع مـــن كتابـــه

---

[١٤] ينظر : أبحاث ونصوص : ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٠ .

[١٥] الإيضاح في القراءات (خط) ((ورقة / ١٥)) وينظر الكتاب : ٣ / ٥٤١ وشرح المفصل : ٩ / ٣٧ .

[١٦] الخصائص : ١ / ٥٥ .

الخصائص ، وحين تعرض لموضوع تقارب الحرفين اللذين يكونان من مخرج واحد ، يقرر ان الأقوى هو الذي يتقدم ، وذلك في نحو : ((أهل واحد واخ)) يقول : ((انما يقدمون الأقوى من المتقاربين من قبل ان جمع المتقاربين ثقيل على النفس فلما اعتزموا النطق بها قدموا الأقوى))[١٧].

ان هذه النظرة الى القوة والضعف في النطق قد تختل في أحكامها في مواضع اخرى من الكلام العربي ، ولقد ذهب اللغويون في لفظ (حيوان) ان اصله : ((حييان)) وان الواو استبدلت بالياء ، لاستثقالهم اجتماع الياءين ، فصاروا الى الواو فقالوا : (حيوان) والواو كما هو معلوم ــ عنده ــ ((اثقل من الياء))[١٨] فلماذا صاروا اليها مع ثقلها ؟ ولماذا لم يبتدئوا بها فيقولون : ((حويان)) ؟

والواو والياء اثقل من الألف ، وان أبنية الخماسي ــ مثلا ــ يزاد فيها الألف لخفتها ، في حين يجعلون (الواو والياء) حشوا فيها نحو : ((عضرفوط)) و ((حيزبون)) و((دردبيس)) و ((جعفليق)) وغيرها من المفردات التي يتضح فيها ان الزيادة في حشوها ، قال : ((وذلك لان بنات الخمسة ــ لطولها ــ لا ينتهي الى آخرها الا وقد ملت فلما تحملوا الزيادة في آخرها طلبوا أخف الثلاثة وهو الألف ــ فخصوه بها ، وجعلوا الواو والياء حشوا في نحو : عضرفوط و .... لانهم لو جاءوا بهما طرفا سداسيين مع ثقلهما لظهرت الكلفة في تجشمها وكدت في احتمال النطق بهما))[١٩].

---

(١٧) نفسه : ١ / ٥٤ .

(١٨) نفسه : ٣ / ١٨ .

(١٩) نفسه : ١ / ٣٣٠ .

ففي نحو ((حيوان)) لم يقدموا الأثقل ، وفي نحو : ((عضرفوط)) قدموا الواو على الألف جريا على نظرته في تقديم الأقوى على الأخف .

وفعلوا مثل ذلك في (حيوة) التي يرى بعض اللغويون انها من (حيـةٌ) وان الياء الثانية قلبت واواً .

يقول ابن جني ((الا ترى ان ـ حيوان ـ عند الجماعة ـ الا ابا عثمان ـ من مضاعف الياء وان اصله حييان ، فلما ثقل عدلوا من الياء الى الواو ، وهذا مع إحاطة العلم بان الواو اثقل من الياء))[٢٠].

والذي أراه ، ان حركة الياء والواو ، وهي الفتحة ، أضعفت قوة الواو كلما أضعفت قوة الياء ، وانها اقتربت بهما من صوت نصف الصائت او نصف الصامت ، فتساويتا في المقدار ، ويسرت النطق بهما ، ولم يجد المتكلم جهدا في إخراجهما صوتين متحركين ، والا كان ينبغي للمتكلم عند تحريك الواو او الياء بحركة الفتح ان يحولهما الى الحرف الأخف وهو الألف ، كما حصل في (قال) من (قَوَل) و (باع) من (بَيَع) .

وكون الواو اثقل من الياء يفرض على الياء ان تتحول الى الواو في نحو : ((يُيقن)) و ((يُيْسر)) فتصير : يُوقْن ويُوْسر ، وذلك ان الياء فيهما قد سَكَنتا وما قبلهما مضموم ، فانقلبتا واواً ، لقوة الواو وضعف الياء بازائها .

ويرى ابن جني في قلب الواو ألفا أنها اصعب من قلب الياء ألفا ويورد لذلك نحو : ((حورة)) و ((بيعة)) ، فيقول : ((ان تصحيح

---

(٢٠) الخصائص : ٣ / ١٨

نحو : حورة اسهل من تصحيح نحو : (بيعة) ، وذلك لان الألف لما قربت من الياء أسرع انقلاب الياء اليها))[٢١].

ويرى اللغويون سبب هذا القرب والبعد بين الواو والالف من جهة والياء والألف من جهة ثانية : ((ان الفتح من أقصى الحلق والكسر من وسط الفم ، والضم من الشفتين))[٢٢]. ويؤيد ابن جني ذلك[٢٣]، وانما كان هذا التقارب بين الألف والياء ، ان الألف اقرب الى الياء من الواو في المخرج ، وهذا ما قاله ابن جني فيهما ـ اعني الواو والياء وقربهما من الألف ، يقول : ((ترك قلب الياء الفاً اثقل عليهم من ترك قلب الواو ألفا ، لبعد ما بين الألف والواو وقربها من الياء ، وكلما تدانى الحرفان أسرع انقلاب أحدهما الى صاحبه))[٢٤].

وقانون العربية في التعامل مع الصوائت الطويلة او القصيرة ، هو تقديم الأخف والانتهاء بالأثقل يقول السيوطي : ((إذا عُدل الى الحركة قدّم الأخف فالأخف ، وذلك الفتحة ثم الكسرة ثم الضمة))[٢٥]

وتسليم معظم النحويين ، وخاصة القدماء ـ بان الفتحة هي الأخف من غيرها ـ إلا السكون ، فانها هي اصل التخفيف في العربية جعلوا الفتحة اقرب الى السكون ثم تليها الكسرة ، ثم الضمة وحيث وجدوا الحروف وبعض الأسماء المبنية قد بنيت في الغالب على الفتح ، قال : ((انما بنيت على الفتح ، لان ما قبل آخرها ساكن ـ نحو :

---

[٢١] الخصائص : ١ / ١٢٣ .

[٢٢] شرح الاشموني : ١ / ٣٨ ، وينظر أسرار العربية .

[٢٣] ينظر : الخصائص : ١ / ١١١ .

[٢٤] همع الهوامع : ١ / ٦٢ .

[٢٥] الخصائص : ١ / ١٥١ .

((ايانَ وأينَ وكيفَ وليتَ وشتان وسوف ـ والفتحة خفيفة . فاختاروا الانتقال من السكون الى أخف الحركات))[٢٦]، أي : الانتقال من الخفيف الى الأخف .

وحقيقة الأمر ان خفة حركة الفتح أمر ألفتّه العربية ، والناطقون بها منذ عهد بعيد ، ويشير براجستراسر الى ان الفتح في الفعل الماضي موجود في العربية منذ زمن طويل [٢٧].

ويلازم الفتح الحرف الذي يكون على صوت واحد ، نحو : (الباء واللام والتاء والواو والفاء) حتى قال ابن جني : وان الاصل في عامة ما جاء على حرف واحد ان يكون مفتوحا))[٢٨].

فكاف التشبيه ـ مثلا ـ تكون مفتوحة وكذا لام الابتداء وهمزة الاستفهام وواو العطف وتاء القسم ، كلها حروف مبنية على الفتح ، ولكن ذلك لا يمنع من ان تكون بعض هذه الحروف مكسورة ، نحو : (باء القسم) و (لام الجر) و (لام الأمر) ولكن اللغويين يذهبون الى ان الأصل في هذه الحروف هو ان تكون مفتوحة واستدلوا على ذلك بدخول لام الجر على الضمائر فتكون مفتوحة ـ أيضا ـ على الأصل ، نحو : ((له ولك ولنا)) وذلك ان الضمائر كما يرى سيبويه ترد الأشياء الى أصولها [٢٩]، فان دخلت على الياء في نحو (لي) كسرت ، لان الياء يكون الحرف الذي قبلها مناسبا لصوتها عند النطق وذلك نحو : (كتابي) بكسر الباء من (كتاب) مجانسة للياء ، وقاس

---

[٢٦] شرح ملحة الإعراب : الحريري : ٢٥١ ـ : الأردن : ١٩٩١ .

[٢٧] التطور النحوي : ٤٢ .

[٢٨] سر الصناعة : ١ : ١٦٠ .

[٢٩] ينظر : الكتاب : ٢ : ٢٧٦ .

بعض اللغويين كسر (باء الجر) على اللام ، لكونهما من احرف الذلاقة [٣٠].

وبعض العرب يفتح (لام الأمر) في النطق ، وهذا هو الأصل فيها ، اما نطقها مكسورة في نحو : ((لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ)) فقد ذهب الاشموني الى انهم كسروها جريا على كسر لام الجر في الأسماء فلام الأمر في الفعل المضارع كسرت في مقابل لام الجر في الاسم [٣١].

ومن هنا كان رأي ابن جني في هذه الحروف انها لو خلصت من الكسر لم تكن الا مفتوحة ، ولم يرد من هذه الحروف في العربية مضموما بسبب ثقل الضمة[٣٢]، وتتضح في قضية الاختلاس انه يقع في الكسرة والضمة ولا يقع في الفتح ، لان الفتحة خفيفة ، فلا تحتاج الى تخفيف فوق خفتها [٣٣]. فالاختلاس في نحو : ((ويعلّمْهُم الكتاب)) [البقرة / ١٢٩] و ((عن أسلحْتِكم)) [النساء / ١٠٢] .

ويرى ابن جني ان الهرب من الثقل يلجئهم أحيانا – الى ارتكاب نوع من النطق لا تتسامح به العربية إلا قليلا ، ولاسيما في الشعر ، لكي يوفروا النطق الأسهل على اللسان ، يقول ابن جني : ((ومن التقاء الساكنين ، قوله :

---

[٣٠] ينظر ملحة الإعراب : ٦٣ .

[٣١] ينظر شرح الاشموني : ١ / ٢٦ .

[٣٢] ينظر : الخصائص : ١ / ٧١ .

[٣٣] ينظر الحجة في علل القراءات السبع : ٢ / ٢ – ٦٤ وانظر : الكتاب : ٤ / ٢٠٢ .

وذي ولدٍ لم يلْدَهُ أبوان

لانه أراد لم يَلِدْهُ ابوان ، فاسكن اللام استثقالا للكسـرة وكـانت الـدال ساكنة فحركها لالتقاء الساكنين))[٣٤]. وهذا ما تنبه عليه سيبويه ، حين أشار الى انهم سكنوا اللام في (يلده) طلبا للتخفيف [٣٥].

وذلك كله ينطبق على تحريك النون في : (مِنَ) بالفتح ، مـن دون الكسر عند التقاء الساكنين في نحو : ((مِنَ الله)) [البقرة /٦١] و ((من الذين هادوا)) [النساء / ٤٦] ، تخلصا من تتابع كسـرتين في (من ..) لو حركت النون بالكسر لالتقـاء السـاكنين ، وتتـابع الكسرتين ثقيل على النطق ، فكان الميل الى الخفة بوضع حـركة الفتح على النون [٣٦] .

والميل الى الاستخفاف ، والتخلص من الثقل عند ابـن جنـي ــ وغيره من اللغويين ــ متعدد المظاهر ، متنوع الحالات ، يشمل كـل الظواهر الصوتية والتركيبية ، والصيغية في نظام اللغة ، وخصـائص ابن جني ، وسر الصناعة وشرح تصريف المازني وغيرها من كتبـه ، مشحونة بالتعليلات التي تجعل من الخفة والثقل مجالا لتفسير ما يحـدث في اللغة من إدغام وفك وإعلال وابدال وحذف وزيادة وتقديم وتأخير ، وتذكير وتأنيث وما يتصل بذلك من ظواهر التغيير والتبديل في نطـق مستعملي اللغة .

ولعل موضوع المماثلة والمخالفة ــ في ميدان البحث الصوتي ــ يعطينا صورة التضعيف صورة دقيقة من حالات التبدلات الصوتية فـي

---

(٣٤) الخصائص : ٢ / ٣٣٣ .

(٣٥) الكتاب : ٢ / ٢٦٥ .

(٣٦) ينظر الكتاب : ٤ / ١٥٣ وانظر ملحة الإعراب : ٢٤٣ .

النطق ، ويرى سيبويه : ((ان يثقل على ألسنتهم ، وان اختلاف الحروف أخف عليهم من ان يكون من موضع واحد))[٣٧] ، ويريد بذلك تفسير ظاهرة (الإدغام) والقلب في لسان العرب ، فلكي لا يكرر المتكلم الحرف ، يحاول ان يدغمه في الثاني لينطقه مرة واحدة ، فيكون ذلك أخف على لسانه من تكريره ، فهو يقول : يثقل عليهم ان يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ثم يعودوا له ، فلما صار ذلك تعبا عليهم ان يداركوا في موضع واحد ولا تكون مهلة كرهوه وادغموه لتكون رفعة واحدة ، وكان أخف على ألسنتهم مما ذكرت لك))[٣٨].

ومع ان ثمة ثقلا في التحول من صوت الى صوت ، وخاصة تحول النطق من صوت ثقيل الى ما هو اثقل منه ، نجد ابن جني يعلل ذلك بان مجرد تغيير الصوت الى ما يخالفه ، ونطقهما متخالفين ، يولد ذلك يسرا على اللسان وخفة في إخراج الحرفين المختلفين ، وفسر تغييرهم (الحييان) الى (حيوان) ــ كما مر ــ بإبدال الياء واوا ، على الرغم من الواو اثقل من الياء[٣٩]. هيأ لهم ذلك التغيير سهولة في النطق ، ومثل للمخالفة بين الأصوات في النطق بــ (عمبر) فاصلها (عنبر) بالنون ــ والنون أخف من الميم ، فحولوها الى الميم ، وهي اثقل من النون ، ولكن مجرد التغيير ، كان قد وفر يسراً في نطق الكلمة [٤٠].

---

[٣٧] الكتاب : ٤ / ٤١٧ .

[٣٨] نفسه والجزء والصفحة أنفسهما .

[٣٩] الخصائص : ٣ / ١٧ ــ ١٨

[٤٠] نفسه : ٣ / ١٨ .

ولذا يرى ابن جني ان العرب ــ في نطقها إنما تلجأ الى المخالفة والمغايرة طلبا لليسر والسهولة ، فيقول : ((اذ كان الصوت مع ما يقتضيه اظهر منه مع قرينه ولصيقه ، ولذلك كانت الكتابة بالسواد في السواد خفية ، وكذلك سائر الألوان))[٤١] ويعني بعبارته هذه انك لو كتبت بالمداد الأسود على صفحة سوداء لما اتضح المكتوب ولكان خفياً ، فإذا كتبت بالسواد على بياض لوضح المكتوب ، وكذلك المخالفة بين سائر الألوان ، وهذا أمر منطقي ، وبضدها تتميز الأشياء ومن هنا كانت العرب قد خالفت في : (قيراط) واصله : قراط و (ديوان) واصله (دوان) ، و (دينار) واصله (دنار) و(ديباج) واصله (دباج) ، فابدلت الحرف الأول من الحرفين المدغمين ياءً ، ونطقت بالثاني لأجل المخالفة في النطق ، وبذلك حصلت الخفة . ويقاس على هذا قولهم في : (قصصت أظفاري) : قصيت اظفاري ، وفي (تسررت) : تسريت ، وفي (تمطط) : تمطى .

أما تتابع الحركات ، فهو ــ كما يصفه النحويون ــ تثقيل في النطق والعربية ، تتخلص من هذا التثقيل بإسكان أحد الأحرف المتحركة طلبا للخفة ، والفراء في (معاني القرآن) يشير الى هذه الظاهرة الصوتية في كلام العرب ، وقول : ((العرب تسكن الميم من اللزوم ، فيقولون : أنكر مكموها وذلك ان الحركات قد توالت فسكنت الميم لحركتها وحركتين بعدها ، وانها مرفوعة ، فلو كانت منصوبة لم تستثقل فتخفف))[٤٢]. ولذلك نجد قراءة ابي عمرو بن العلاء التخفيف

---

[٤١] نفسه : ٢ / ٢٢٧ .

[٤٢] معاني القرآن : ٢ / ١٢ .

في مثل ذلك ، ولقد أشار ابن خالويه في الحجة في القراءات السبع الى جملة مما أسكن في القراءة تخفيفا[43]، ومن ذلك : ((الى بارئكم)) [البقرة / ٥٤] و ((يامركم)) [البقرة / ٦٧] ، و ((يلعنهم)) [البقرة / ١٥٩] و ((ينصركم)) [آل عمران / ١٦٠]و ((أسلحتكم)) [النساء / ١٠٢] وغيرها ، ويعلل ابن جني هذا التخفيف بحذف الحركة بأنك ((انما سكنته لتخلطه بالثاني ، وتجذبه الى مضامته ومماسه لفظة بلفظة بزوال الحركة التي كانت حاجزة بينه وبينه))[44]، ويريد بذلك انك حين تبطل إحدى الحركتين المتواليتين على حرف واحد رفعت الحاجز بينهما ــ وهو الحركة ــ وجعلت الحرفين متماسين متضامين ، مما يؤدي الى اليسر في النطق وان اللسان ينبو نبوة واحدة كما هو الحال في الإدغام أولا يتباطأ اللسان في النطق ، كما يتباطأ في نحو (كتب) المسند الى (تاء الفاعل) فيقال : (كتبت) بأربع حركات متوالية ، فحين تخفف حركة الباء وتسكنها ، يسهل نطق الفعل مع المسند اليه ، فيقال : ((كتبت)) وهو ايسر من توالي الحركات الأربع[45]، ولذلك كانت قراءة الاختلاس للحركة في نحو : (أسلحتكم) التي مرت الإشارة اليها ، فالحاء المفتوحة تتصل بالتاء المختلسة الحركة ، بنطق سريع ، ميسور ، أنتجه قرب حركة التاء من السكون ، ان التثقيل والتخفيف ــ كما يبدو من كلام ابن جني : ((انهم إنما يميلون

---

[43] الحجة : لابن خالويه : ٧٨ .

[44] الخصائص : ٢ / ١٤٠ .

[45] ينظر : الحجة في علل القراءات السبع : ابو علي الفارسي : ٢ / ٦٣ .

على الحس ويحتجون فيه بثقل الحال او خفتها على النفس))[٤٦] يعطي لهاتين العلتين ثقلا كبيرا من بين العلل .

والخلاصة ، ان ما تقدم من ظواهر التخفيف والتثقيل ـ عند ابن جني ـ واتخاذ علتي الاستثقال والاستخفاف طريقا لتفسير ما يحصل في اللغة من تبدل وتغير في الصيغ والأبنية والتراكيب ، يؤكد ان العلل اللغوية الكثيرة التي أحصاها السيوطي في كتابه (الاقتراح)[٤٧] تمثل حقيقة ناصعة من الحقائق التي تميزت بها العربية وتؤكد منطقيتها من بين سائر لغات العالم بل هي خصيصة طبيعية في بنية العربية ، واصول التعبير بها .

---

(٤٦) الخصائص : ١ / ٥١ .

(٤٧) ينظر : الاقتراح : ٤٨ .

المصـــادر والمراجـــع

ـ أبحاث ونصوص في فقه اللغـــة العربيـــة : د. رشـــيد العبيـــدي ـ ((التعليم العالي)) : ١٩٩٨ ـ بغداد .

ـ الاقتراح : السيوطي (٩١١ هـ) : القاهرة .

ـ التطور النحوي ، برجستراسر : القاهرة : ١٩٢٩ م .

ـ الحجة في القراءات السبـــع : ابـــن خالويـــه (٣٧٠ هـــ) : ط : بيروت .

ـ الحجة في علل القراءات السبع : أبو علي الفارسي : (٣٧٧ هـــ) ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م .

ـ الخصائص : ابن جني : (٣٩٢ هـ) : النجار : بيروت الثانية .

ـ سر صناعة الإعراب : ابن جني : تحـ : السقا وشركائه ـ مصر : ١٩٥٤ .

ـ شرح الاشموني : (٩٢٩ هـ) : تحـ : محمد محي الديـــن عبـــد الحميد ـ بيروت : ١٩٥٥ .

ـ شرح ابن عقيل على الألفية (٧٦٩ هـ) : ط : محمد محي الديـــن عبد الحميد ـ القاهرة .

ـ شرح الرضي على الكافية : الاســـترابادي : (٦٨٨ هـــ) : دار الكتب العلمية : ١٩٨٥ .

ـ شرح الشافية : الرضي : تحـ : نور الحسن وشريكيه ـ بـيروت : ١٩٧٥ م .

ـ شرح ملحمة الإعراب : الحريري (٥١٦ هـ) :الأردن :١٩٩١م .

ـ الكتاب : سيبويه (١٨٠ هـ) : ط : بولاق ـ القاهرة وط : عبد السلام هارون ـ القاهرة .
ـ مغني اللبيب : ابن هشام (٧٦١ هـ) : ط : محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة .
ـ وغيرها مما ذكر في حواشي البحث .

موقف المسلمين من أهل نجران

أ. د. حمدان عبد المجيد الكبيسي
كلية الآداب / جامعة بغداد

خلاصة البحث

كان لمنطقة نجران ، وأهل نجران ، قضيـــة لـــها أبعادهـــا ، المحددة ، السياسية والأمنية والإدارية والدينية والاقتصادية . ذلـــك ان إقليم نجران خضع للدولة العربية الإسلامية منذ وقت مبكر من قيامها ، ولأن مواقف أهل نجران لم تكن واحدة تجـــاه الإســـلام والمســـلمين ، فاقتضى الأمر ان يكون للمسؤولين في الدولة موقف محدد حيال أهـــل نجران .

تمهيد :

نجران أحد الأقاليم التي خضعت للدولة الإسلامية منذ وقت مبكر من قيامها . ولآن خضوعها لم يتم على هيئة واحدة ، ولان سكانها لم يكونوا على دين واحد قبل إسلامهم ، ولان مواقفهم لم تكن واحدة تجاه الدولة الإسلامية اقتضى الأمر ان يكون للمسؤولين في الدولة موقف متميز حيال أهل نجران ، فرضته الظروف التي مرت بها الدولة الأمر الذي جعل كل واحد من الخلفاء الراشدين يسهم في قضية أهل نجران ، ودفع الخليفة هارون الرشيد ان يتساءل من الفقيه أبي يوسف عن نجران واهلها ، وكيف كان الحكم قد جرى فيهم وفيها .. ؟ ولَمَ أُخرِجْوا منها .. ؟

ان كل هذه الأمور وغيرها تصبح مدعاة للباحث في ان يتناول ((قضية أهل نجران)) كما سماها قاضي القضاة أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ان هذا البحث سيحاول إماطة اللثام عن التخرصات والملابسات التي أحاطت بهذه القضية ، ليكشف عن العوامل الدينية والإدارية والأمنية والاقتصادية التي تضافرت مع بعضها لتكون من نجران واهل نجران ، قضية لها أبعادها المحددة السياسية والدينية والاقتصادية .

موقع نجران :

قال ((ياقوت)) نجران في مخاليف اليمن الشمالية من جهة مكة[١]. وتقع في وادي نجران الخصيب[٢]، وهي بين بلحارث وهَمْدان[٣]. ويفيدنا في هذا الشأن صاحب ((كتاب الإكليل)) الذي

---

[١] ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٦٦ .

[٢] الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٦٤ .

[٣] ن . م ، ص ٢٣٧ .

قـــال : نجران مخلاف في منتهى شمال اليمن ، كثير الخير ، غزيـــر البركة ، يقع الى الشرق من صعدة [٤]، بينها وبينه مســـافة يوميــن . ومخلاف نجران يبعد عن مدينة صنعاء شمالا بتسع مراحل[٥].

ونجران وادي يجري في منبسط من الأرض الواسعة الســـهلة والمرتفعة نسبيا التي يخترق وسطها الوادي المعروف بوادي نجـــران، من أعلاه إلى أسفله حيث يغور في الربع الخالي . وتحيـــط بـــه مــن الجنوب والشمال سلسلتان من الجبال والهضاب ، وبه خمس وثلاثـــون قرية عامرة بالسكان ، ومثلها مهجورة منذ حين [٦].

واول من عمر نجران ونزلها نجران بن زيدان بن ســـبأ بــن شجب بن يعرب بن قحطان وبذلك جاء اسمها من اســـمه[٧]، ذلــك ان (ياقوت) قال : ان نجران بن زيدان رأى رؤيـــا فهالتـــه وأرعبتـــه ، فارتجت لها فرائسه ، فخرج رائدا حتى انتهى به المقام الى واد فنزل به فسمي به[٨]. وفي رواية أخرى ان أول من سكن نجـــران مــن بنـــي الحارث[٩] بن كعب بن عمرو بن عُلَه بن جَلْد بن مالك بن أدَد بن زيـــد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يزيد بن عبد المدان .

---

[٤] صعدة : عن صعدة ينظر: الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٨١ و ٨٢ و ١١٥ .

[٥] الهمداني ، الإكليل ، ج١ ، ص ١٤ .

[٦] ن . م .

[٧] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٣ .

الهمداني ، الاكليل جـــ ١ ، ص ١٢٧ ، ياقوت معجم البلدان، جـــ ٥ ، ص ٢٦٦ .

[٨] ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٢٦٦ .

[٩] بلحارث : هم بنو الحارث بن كعب بن علة بن جلد بن مذحج ، ســـادة مذحـــج وأشرافها واحد جمرات العرب . هم ملوك نجران ، ولهم تـــاريخ حـــافل بـــالفخر والمكارم قبل الإسلام وبعده . (ينظر : الهمداني ، الإكليل ، ج ١ ، ص ١٣٢) .

ذلك ان عبد المسيح زوجه ابنته (دُهَيْمة) فولدت لـــه عبـد الله بــن يزيد ، ومات عبد اللّه فانتقل ماله الى يزيد فكان أول حارثي حل فــي نجران[١٠].

وتشير النصوص الى ان عدة قبائل كانت تسكن وادي نجــران منها قبائل (يام) ثم همدان وبلحارث بــن كعــب وآل عبـد المـدان المدحجيين من اهل الملك والسلطان وأصحاب كعبة نجران المشهورة ، التي عددها (الهمداني) من عجائب بلاد العرب . وفي وادي نجــران أثار حميرية مهمة[١١].

قال الفرزدق في نجران :

سمونا لنجران اليماني أرضعه ونجران ارض لم تدين مقالة[١٢]

وهنا نلاحظ ان الشاعر قال سمونا ، ولم يقل : دخلنا .. وهــذا يدل على مناعة وحصانة ارض نجران ، بحيث اصبح لا يطمع فيــها طامع[١٣]. ويروى ان الشاعر أمية بن ابي الصلت الثقفي قــال: أتيــت نجران فدخلت على عبد المدان بن الذيان فإذا به على ســرير وكــأن وجهه قمر وبنوه حوله كأنهم الكواكب ، فدعا بطعام شهي فأكلنا فقلت :

---

[١٠] ياقوت ، البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٦٩ .

[١١] الهمداني ، الإكليل ، ج ١ ، ص ١٤ .

[١٢] المقالة : جمع قيل : وهو دون الملك . (ينظر : الهمداني ، الإكليــل ، ج ٦ ، ص ١٤٩) .

[١٣] الهمداني ، الإكليل ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

ولقد رأيتُ القائليــن وفعــلهم فرأيتُ أكرمهم بني الديان

ورأيت من عبد المدان خلائقا فَضل الأيام بهن عبد مدان

البريلبك[١٤]بالشهاد[١٥] طعامه لا ما يعللنا بنو جدعان[١٦]

وكان للشاعر الأعشى بغرر المدائح (ميمون بن قيس بن جنــدل بــن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن عكامية بن صعب بن بكــر بــن وائل) ، وقد وفد على أشراف نجران بني عبد المدان واجازوه بأســنى الجوائز ، فقال :

وقد طغت للمــال آفاقــه عمان فحمص (فاوريشلم)

أتيت النجاشي في أرضه وارض النبيط وارض العجم

فنجران فالسرو من حمير فــأي مــرام لــه لــم أرم

ومن بعد ذاك الى حضرموت فأوفيت همي وحينا أهــم[١٧]

ومن أشراف نجران اوس بن حجر بن يزيد الذي كان ســـخيا" فاوصى بماله ضيافة على قبره . وكانت ضيافته على القبر تكفي عشرة آلاف شخص . ولفرط سخائه وكرمه صاروا يطلقون عليــه ((قــاتل الجوع)) . وفيه قال الشاعر (ابن سلماني) الذي وفد علــى الخليفــة الوليد بن عبد الملك ،فأكرم مثواه ، واجزل له العطاء ، فقال في حــق اوس بن حجر :

ألا ان اوسا" قاتل الجوع قد مضى واورث مجدا ما تنال أطاوله

---

[١٤] يلبك : يخلط .

[١٥] الشهاد : يراد به الشهد ، أي العسل .

[١٦] الهمداني ، الإكليل ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

[١٧] ن . م ، ج ١ ، ص ٥١ .

لهم كـــان ملــك الجاهلية كله ومنهم مجير الجوع جودا قاتله[١٨]

وتذكر إحدى الروايات التاريخية ان الخيرزان بنت عطاء الجرشي مــن حمير ، وقيل أنها من بلحارث بن كعب من أهل نجران [١٩].

ديانة أهل نجران :

كان أهل نجران يعبدون أصناما خاصة بهم ، شأنهم فـــي ذاك شأن بقية العرب . لكن (ياقوت) أورد رواية ابن إسحاق التي رفعـــها الى المغيرة بن لبيد مولى الاخنس ، عن وهب بن منبه اليماني ، انــه قال : ان دخول النصرانية الى نجران جاء عن طريق رجل صالح يقال له : (فَيْمِيُون) ، كان بنّاء يعمل في الطين ، ويأكل من كسب يــده ، ويدين بالنصرانية ، فاستطاع ان يكسب له أنصــاراً جعلــهم يدينــون بالنصرانية [٢٠].

ويبدو ان عددهم اصبح كبيرا ، وان اعتناقهم النصرانية جـــاء عن قناعة وإيمان عميقين . لذا اقدموا على تشييد بناء على غرار الكعبة فعظموه وسموه ((كعبة نجران)) واختاروا له موقعا مهما على نـــهر نجران . وان الذي تولى هذه المهنة التي لابــد انــها تطلبــت نفقــات اقتصادية ليست قليلة . وحسب رواية هشام الكلبي ان كعبـــة نجــران كانت على هيئة قبة من أدم من ثلثمائة جلد . وأصبح في اعتقادهم انــها تمنح الأمان لكل خائف يحل بها ، وتلبي طلب حاجة كل طـــالب [٢١] .

---

[١٨] الهمداني ، الإكليل ، ج ٢ ، ص ٣٦ . (الهمداني في كتابـــة صفــة جزيــرة العرب ، ص ١١٦) يسمى الشاعر (ابن السليماني) .

[١٩] الهمداني ، الإكليل ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

[٢٠] ياقوت ، البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٦٦ – ٢٦٨ .

[٢١] ن . م ، ج ٥ ، ص ٢٦٨ .

وعد (الهمداني) كعبة نجران من مواضع العبادة المهمة في شبه جزيرة العرب ، وزعم انها عظمت على غرار مكة وايلياء واللات بأعلى نَخْلة وذي الخلصة بناحية تبالة ، وريام في بلد هَمْدان ، وكنيسة الباغوتة بالحيرة [٢٢] وفي كعبة نجران أساقفة معتمدون هم الذين يمثلون قومهم ، وهم الذين وفدوا على النبي(ﷺ) [٢٣].

وكانت ملكية المنطقة التي أقيمت عليها ((كعبة نجران)) لعبد المسيح بن دراس بن عدي بن معقل . ويسقيها نهر نجران ، وتغل له ريعا سنويا قدره عشرة آلاف دينار[٢٤]. ونستطيع ان ندرك أهمية نجران من خلال ما روى عن رسول اللّه (ﷺ) انه قال : ((القرى المحظوظة أربع : مكة والمدينة وايلياء ونجران . وما من ليلة الا وينزل على نجران سبعون ألف ملك يسلمون على أصحاب الأخدود))[٢٥] .

ومن المفيد ان نذكر ان منطقة نجران تكون مناصفة بين بلحارث ومَهْدان [٢٦]، وان كثيرا من مناطق اليمن عامة ونجران خاصة، غلب عليها اسم ساكنها ، ذلك ان هؤلاء الرجال كانوا ذوي شهرة كبيرة وواسعة ، فسميت المناطق باسم متوطنيها[٢٧]. ويمدنا (الهمداني) بمعلومات دقيقة عن نجران . حيث قال ان هناك مياه فتح

---

[٢٢] الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٤٠ .

[٢٣] البلاذري ، فتوح ، ص ٧٠ . ياقوت ، البلدان ، ج ٥ . ، ص ٢٦٨ .

[٢٤] ياقوت ، البلدان ، ج٥ ، ص ٢٦٨ – ٢٦٩ .

[٢٥] ياقوت ، البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٦٩ .

[٢٦] الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٣٧ .

[٢٧] الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .

عِدً جارية في الأرض لا تنقطع ، ومياه حمى لكل أبناء المنطقة لهم بها نصيب ، ومياه قَلْت ، وهي مياه محدودة الكمية تكـــون فـــي بطـــون الوديان ، وفي الأعم الأغلب يمتلكها أشخاص ، أو اسر ويستأثرون بها دون غيرهم[٢٨]، ويضيف (الهمداني) الى ما تقدم :الغُماريـــة ، ميـــاه الجفر ، وعينا ذئب ، وهما ماءان تابعتان لبني الحارث ، يتجهان نحـــو نجران ويزودانها بالماء العذب . مياه حمى أخرى بـــأطراف جـــبال غـــاذ . كما توجد مياه قلت سميت بأسماء المناطق التي وجدت فيـــها ، منها قلت يَدَ مات ، وقلت الملَحات ، ولوزة وشِسقْي ، هذا فضلا عـــن قلت اسافل جبال غاذ[٢٩]. كما شخص (الهمداني) موقع بئر بـــالرمل (دون العارض)[٣٠] التي احتفرها عبد اللّه بن الربيع المداني في عـــهد الخليفة العباسي الأول ابي العباس الســـفاح [٣١] وذكـــر (الـــهمداني) البراق وقال عنه انه ماء بأعلى وادي نار ، وتناول مـــاء الزياديـــة ، والربيعية بأسفل نجران ، ومذود ، والهَرَاء ، والبتراء ، شمالي منـــازل بني الحارث وتوجد مياه اخرى لبني الحارث في : قضيب التي تقع بين نجران والجوف ، ومياه اليُتمة التي يستمر جريانها طيلـــة العـــام دون انقطاع[٣٢]. هذا فضلا عن بئر زياد الحارثي الغزير المياه [٣٣].

---

(٢٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٢٨ .

(٢٩) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٢٩ .

(٣٠) العارض : جبل منقاذ ، يعارض من خرج عن نجران باتجاه الشرق .(ينظر: الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٨) .

(٣١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٢٨ .

(٣٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٢٨

(٣٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٢٩ .

انضواء نجران تحت لواء الدولة الإسلامية :

تشير النصوص الى ان انضواء نجران تحت لواء الدولة الإسلامية تم سنة ١٠ هـ / ٦٣١م في زمن الرسول (ﷺ) [٣٤]. ففي هذا الصدد تضاربت الروايات . ((فابن هشام)) ذكر ان الرسول (ﷺ) بعث خالد بن الوليد على رأس جيش الى بني الحارث بن كعب بنجران وامره ان يدعوهم الى الإسلام قبل ان يقاتلهم . ومن حسن الحظ انهم استجابوا لدعوة القائد خالد بن الوليد الذي أقام بين ظهرانيهم يعلمهم مبادئ الدين الحنيف ، وكتاب الله العزيز ، وسنة نبيه (ﷺ) [٣٥] في حين جاء ((الطبري)) برواية البراء بن عازب الذي كان ضمن الجيش الذي أرسل الى نجران بقيادة خالد بن الوليد ، فروى البراء ان خالدا أقام يدعوهم الى الإسلام ((ستة اشهر لا يجيبونه الى شيء)) ، عندئذ اضطر (رضي الله عنه) الذي انصاعت له همدان كلها في يوم واحد ودخلت الإسلام[٣٦] .

أما رواية (ابن إسحاق) التي رفعها الى عبد الله بن أبي بكر ، فتؤكد ان بني الحارث بن كعب[٣٧] استجابوا لدعوة خالد بن الوليد ،

---

[٣٤] ابن هشام ، تهذيب سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ . الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٣ ، ص ١٢٦ . ابن خياط ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ٥٨ .

[٣٥] ابن هشام ، تهذيب سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ – ١٣٣ . ابن الأثير ، الكامل ، ٢ / ٢٠٠ .

[٣٦] الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٣ ، ص ١٣١ – ١٣٢ . ابن هشام ، تهذيب سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ .

[٣٧] الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٣ ، ص ١٢٨. (ينظر : اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٦٧) .

وانهم اسلموا ولم يقاتلوا ، وان القائد خالدا كان قد كتب بذلك الى رسول الله (ﷺ) ، الذي تلقى الخبر بغبطة وسرور، وكتب الى القائد خالد بن الوليد يثني فيه على عمله هذا ، ويأمره بالعودة اليه على ان يستقدم معه وفدا من بني الحارث بن كعب[٣٧]. وفعلا قدم وفدهم ، وفيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قَنان ذي الغصة ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن المُحَجل ، وعبد الله ابن قريظ الزيادي ، وسداد بن عبد الله القناني وعمرو بن عبد الله الضبابي ، وقابلوا رسول الله (ﷺ) وامر عليهم قيس بن الحصين . ورجع الوفد الى نجران ، ولم يمكثوا بعد ان قدموا الى قومهم الا أربعة اشهر حتى توفي الرسول (ﷺ)[٣٨].

ومن خلال مضمون رواية ((الزهري)) التي أوردها ((البلاذري)) ان أهل نجران جاؤوا بوفدين [٣٩]، أحدهما من عبدة الأصنام سابقا ، وقد اسلموا واستجابوا لدعوة القائد خالد بن الوليد ، وقدموا معه لملاقاة رسول الله (ﷺ) ، كما أشرنا توا . ووفد آخر فيه النصارى ، ورئيسهم أبو حارثة الأسقف ، ومعه العاقب والسيد وعبد المسيح وكوز وقيس والايهم[٤٠]. ((واليعقوبي)) يقول انهم قبلوا مباهلة

---

[٣٧] الطبري ، تاريخ الرسل : جـ ٣ ص ١٢٨ . (ينظر : اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٦٧) .

[٣٨] الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٣ ، ص ١٢٨ . ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ .

[٣٩] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٠٧٠ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠

[٤٠] اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٠٧١ البلاذري ، فتوح ، ص ٠٧٠ . ياقوت، البلدان ٢٦٩/٥ .قدامة ، الخراج ، ص ٢٧٢ .

الرسول (ﷺ) ، إذ احضر معه الحسن والحسين وفاطمة والإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)[41]. في حين ذكر ((البلاذري)) ان رسول الله (ﷺ) ((دعاهما الى المباهلة ، واخذ بيد فاطمة والحسن والحسين ، فقال أحدهما لصاحبه ، اصعد الجبل ولا تباهله ، فانك إنْ باهلته يبوئ باللعنة . قال فما ترى ؟ قال : أرى ان نعطيه الخراج ولا نباهله))[42]. ومن هنا يتضح ان النصارى هم الذين تراجعوا عن المباهلة بعد ان ضعفت حجتهم .

والغريب في الأمر ان ((ابن هشام)) لم يشر في كتاب السيرة الى لقاء وفد نصارى نجران للرسول (ﷺ) ، كما ان يحيى بن ادم الذي قال : ((وقد رأيت كتابا في أيدي النجرانيين كانت نسخته شبيهة بهذه النسخة ، وفي أسفله ــ وكتب علي بن ابي طالب ــ))[43]، لكنه يستدرك ويقول : ((ولا ادري ما أقول فيه))[44]. واحسب انه يريد ان يشكك في صحته . لكن الفقيه (أبا يوسف) يورد تساؤلات الخليفة هارون الرشيد بشأن نصارى أهل نجران ، وكيف كان الحكم جرى فيهم وفيها ؟. وان الرسول (ﷺ) أعطى لنصارى نجران : ((جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وانفسهم وارضهم ... لايغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ... ولا يطأ أرضهم جيش...))[45].

---

(41) اليعقوبي ، تاريخ جـ ٢ ، ص ٧١ . (ينظر : ابو عبيد ، الأموال ، ص ٣٢) .

(42) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧١ . ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠

(43) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٢ .

(44) ن م .

(45) ابو يوسف ، الخراج، ص ٧١ – ٧٢ . ابو عبيد، الأموال ، ص ٢٠١ – ٢٠٢

وورد خلاف أخر بشأن من شهد على هذا العهد ، كما ورد خلاف حول من تولى كتابة العهد الذي أعطاه الرسول (ﷺ) لنصارى أهل نجران . فأبو يوسف ذكر أسماء الذين شهدوا العهد ، قال: هم أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بني نصر ، والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة ، وان الذي تولى كتابته عبد الله بن أبي بكر[٤٦]. في حين قال اليعقوبي : ان الذين شهدوا على صحة هذا العهد هما : عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة، وان الذي تولى الكتابة هو الإمام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه)[٤٧]. ويتفق ((البلاذري))[٤٨] مع ((ابي يوسف))[٤٩]. و ((ابي عبيد))[٥٠] في ذكر أسماء الأشخاص الذين شهدوا على صحة العهد. لكن ((البلاذري)) أهمل اسم الشخص الذي تولى كتابة العهد.

ويجدر بنا ان نتلمس الجدوى العسكرية والحربية من انضواء نجران تحت لواء الدولة الإسلامية . فنصوص العهد الذي أعطاه الرسول لاهل نجران تشير كلها ((ولا يطأ أرضهم جيش))[٥١]، وان الرسول(ﷺ) قال لهم : (ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة

---

(٤٦) الخراج، ص ٧٢ ــ ٧٣ .

(٤٧) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٧٢ .

(٤٨) فتوح البلدان ، ص ٧٢ .

(٤٩) الخراج ، ص ٧٣ .

(٥٠) الأموال ، ص ٢٠٣ . (ينظر: ابن الأثير، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠) .

(٥١) أبو يوسف ، الخراج، ص ٧٢ . أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٠٢ . البلاذري فتوح البلدان، ص ٧٢.

محمد النبي رسول الله على أموالهم وانفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم))[٥٢].

وبذلك يتضح انهم اخذوا عهدا من الرسول (ﷺ) ان لا يطأ جيش المسلمين ارضهم، وانهم يقعون ضمن دائرة جوار الله وذمة رسوله فأمنوا من خلال هذا العهد على أموالهم وانفسهم واراضيهم وحيواناتهم وعشيرتهم من أي اعتداء محتمل[٥٣]. لكنهم في الوقت نفسه ألزموا بأن يمدوا يد العون والمساعدة لجيش المسلمين حين تضطره الظروف((اذا كان كيد باليمن ذو مقدرة))[٥٤]. فإذا حصل كيد وغدر منهم عندئذ تقع عليهم تبعات تعبوية حربية، اذ يلزمهم ان يجهزوا جيش المسلمين بثلاثين درعا، وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً[٥٥] على ان ترد اليهم حال انتهاء الظروف التي استدعت الى أخذها[٥٦].

الجدوى الاقتصادية من انضواء نجران تحت لواء الدولة الإسلامية :

مرة أخرى نقول ان أهل نجران انضووا تحت لواء الدولة الإسلامية على هيئة فريقين ، الأول منهما الذين اسلموا عندما دعوا

---

[٥٢] أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٢ . البلاذري ، فتوح البلدان، ص ٧٢.

[٥٣] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٤ . قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٢٧٢ .

[٥٤] أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٠١. البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٢ . قدامة ، الخراج، ص ٢٧٢.

[٥٥] أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٢ . ابو عبيد، الأموال ، ص ٢٠١. البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧١ . قدامة، الخراج، ص ٢٧٢ .

[٥٦] أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٢ . ابو عبيد ، الأموال ، ص ٢٠١ ، البلاذري، فتوح البلدان ، ص ٧٢.

للإسلام فصار لهم ما للمسلمين، وما عليهم ما على المسلمين من تبعات مالية في مالهم وفي إنتاجهم الزراعي[٥٧] قال الرسول(ﷺ): ((من أسلم على شئ فهو له))[٥٨]. وروى ان كل ارض اسلم أهلها عليها من ارض العرب او غيرهم ، فهي لهم يؤدون عنها العشر، كما هي الحال في ارض المدينة، وارض اليمن وغيرها[٥٩]. وفي هذا الشأن قال(ياقوت) : إن انضواء نجران تم ((صلحا على الفيء على ان يُقَاسَمْوا العشر ونصف العشر))[٦٠]. وهو يريد بذلك ان إنتاجهم الزراعي الذي يسقى سيحا ، او بالمطر ، على مستثمره ان يدفع للدولة العشر. في حين يدفع نصف العشر من إنتاج زرعه الذي يسقى بالآلات الرافعة (الغرب) . وعلى وفق هذه القاعدة عوملت جميع الأراضي التي خضعت للدولة الإسلامية سلما ، أي بدون مجهود قتالي[٦١].

وحسب رواية محمد بن إسحاق التي أوردها كل من ((أبي يوسف))[٦٢] و((الطبري))[٦٣] : أنّ رسول الله (ﷺ) بعث عمرو بن حزم الأنصاري الى بني الحارث بن كعب بعد ان قفل وفدهم ، وامره

---

[٥٧] ابن الجوزي ، الخراج ، ص ٨١ .

[٥٨] ابو يوسف ، الخراج ، ص ٥٩ – ٦٠ .

[٥٩] ابو يوسف ، الخراج ، ص ٦٩ . ابن ادم ، الخراج ، ص ٨٢ و ١٤٤ و ١٤٦. ابن رجب الحنبلي ، الاستخراج في احكام الخراج ، ص ٥٤.

[٦٠] ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥ ، ص ٢٦٨ .

[٦١] البخاري، الجامع الصحيح ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ – ١٥٦ . مسلم، الجامع الصحيح، جـ ٣ ،ص٦٧.

[٦٢] الخراج ، ص ٧٢.

[٦٣] تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

ان يأخذ من المغانم خمس الله، وان يأخذ عشر إنتاجهم الزراعي الذي يسقى غيلا او بالمطر، ويأخذ نصف العشر من إنتاج الزرع الذي يسقى بالقرب[٦٤]، وفي كل عشر من الإبل شاتان ، وفي كل عشرين من الإبل أربع شياه ، وفي كل أربعين رأسا من البقر بقرة ، وفي كل ثلاثين رأسا من البقر تبيع جذع ، أي مازال يتبع أمه ، وفي كل أربعين رأسا من الغنم سائمة شاة[٦٥]. وبلا ريب ، فان هذه التبعات المالية التي أشارت اليها النصوص إنما هي فريضة الزكاة التي كلف بأدائها المسلمون. وهذا ما يعزز الفرضية التي سبق ان وضعناها، والتي مؤداها ان بني الحارث بن كعب قد اسلموا وصاروا يؤدون فريضة الزكاة شأنهم في ذلك شأن بقية المسلمين.

وأشار ((الطبري)) ان عمرو بن حزم الأنصاري توفي سنة ١٠ هـ[٦٦]. وبذلك ذكر((ابن الأثير)) ان رسول الله(ﷺ) بعث الإمام علي بن أبي طالب الى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم[٦٧]. التي هي الأخرى ورد في نصوصها استثناء ، لم نعهده في النصوص التي تناولت مقدار الجزية التي فرضت على رؤوس أهل الذمة . فالبلاذري قال: حدثنا عمرو الناقد عن ابن شهاب الزهري، قال: أنزلت في أهل الكتاب: ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون

---

[٦٤] ن . م ، ص ١٢٩ . ابن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، جـ ١ ، ص ٦٢ .

[٦٥] ابن هشام ، تهذيب السيرة ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ . الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٣ ، ص ١٢٩ .

[٦٦] تاريخ الرسل ،جـ ٢ ، ص ١٣٠ .

[٦٧] ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٢٠٥ . (ينظر: ابن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، جـ ١، ص ٦٢).

ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون))[٦٨] وقد نزلت هذه الآية في السنة التاسعة من الهجرة ، ووضعت أسس التعامل مع أهل الكتاب[٦٩].وان ((أول من أعطى الجزية أهل نجران ، وكانوا نصارى))[٧٠]. والذي يهمنا في هذا الأمر ان ((ابن هشام))ذكر ان الرسول(ﷺ) امر عمرو بن حزم الأنصاري ان يأخذ من كل ذمي((حالم ذكر او أنثى ، حر او عبد ، دينار وافٍ او عوضة ثيابا))[٧١]. علما بان نصوصا تشير الى ان الجزية التي فرضت على الذميين استثنت النساء واقتصرت على الرجال البالغين القادرين ماليا على دفعها [٧٢]. اذ قال (الماوردي) : ((ولا تجب الجزية الا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون، ولا عبد، لانهم اتباع وذراري))[٧٣]. وتخفيفا عن كاهل دافعي الجزية والحلل التي سبق ذكرها توا كان يقبل منهم ما يستطيعون إعطاءه من سلاح، او خيل او ركاب ، او عرض من عروض التجارة بقيمته

---

[٦٨] سورة التوبة، أية ٢٩.(ينظر: البخاري، صحيح البخاري ، جـ ٤ ، ص ٥٢٧ الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٤٢). ابو عبيد، الأموال ، ص ٣١ .

[٦٩] الصابوني ، صفوة التفاسير جـ١ ، ص ٥١٨ ..

[٧٠] ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٢ .

[٧١] ابن هشام، تهذيب سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ . ابوعبيد، الاموال ، ص ٣٢ .

[٧٢] ابو يوسف، الخراج، ص ١٢٢ . ابن ادم ، الخراج، ص ٧٢ . قدامة، الخراج، ص ٢٦٨. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٤٤ .

[٧٣] الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٤٤ .

قصاصا من الجــزية او الحلل . وعليهــم ان يضيفــوا رسل رســـول الله (ﷺ) شهرا ، فما دونه[٧٤]. كما اشترط عليهم ان لا يمارسوا الربـا ولا يتعاملوا به، لان ذلك محرم شرعا[٧٥].

أما الفئة الثانية من أهل نجران فهم الذين ظلــوا علـــى دينـــهم السابق وعوملوا على أساس انهم من اهل الذمة . فالبلاذري الـذي أورد رواية الزهري ذكر ان الرسول(ﷺ) صالح نصارى((أهـــل نجـــران على الفي حلة في صفر، والف حلة في رجب. ثمن كل حلـــة أوقيـــة ، والأوقية وزن أربعين درهما))[٧٦]. وفي هذا الحال يؤدون ثلاثـــة آلاف حلة، أي مئة وعشرين ألف درهم . وفي مكان أخر أورد ((البلاذري)) روايـــة ((يحيى بن أدم)) الذي قـــال : أخذت نسخة كتـــاب رسول الله (ﷺ) لاهل نجران من كتاب رجل عن الحسن بن صالح ان الرســـول (ﷺ) صالح اهل نجران على ان يؤدوا اليه الفي حلة. يؤدون منها الف حلة في شهر رجب، والف حلة في شهر صفر[٧٧]. وهذه الرواية تتفـــق

---

[٧٤] ابن هشـــام ، تهذيب ســـيرة ابن هشام ، جـــ ٢ ، ص ١٣٦ . ابـــو يوســـف، الخراج ، ص ٧٢ .ابو عبيد،، الاموال ، ص ٢٠١ و ٢٠٣ . البـــلاذري ، فتـــوح البلدان ص ٧٠ – ٧١ .

(ذكر ابو يوسف وابو عبيد، ان كتاب رسول الله (ﷺ) الزم اهل نجران تضييـــف رسل رسول الله عشرين يوما فما دون ، ينظر: الخراج ، ص ٧٢، الامـــوال ، ص ٢٠١) .

[٧٥] ابو يوسف، الخراج، ص ٧٢ . ابو عبيد، الأموال ، ص ٢٠٢ . البـــلاذري ، فتوح البلدان ، ص٧١ . قدامة ، الخراج، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

[٧٦] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٠ .

[٧٧] البلاذري ، فتوح البلدان، ص ٧١ .

مع رواية ((أبي يوسف))[٧٨] ورواية ((ابي عبيد))[٧٩] ورواية ((قدامة بن جعفر))[٨٠] ورواية ((ابن الأثير))[٨١]، التي جاء فيها ان الرسول (ﷺ) صالح نصارى((أهل نجران على ألفي حلة، ألف منها في صفر وألف منها في رجب . ثمن كل حلة اوقية، والاوقية وزن أربعين درهما)) . وبذلك تكون كل الروايات متفقة في ان مقدار الحلل ألفان ، عدا الجزء الأول من رواية الزهري التي أوردها البلاذري ، والتي ذكرناها توا[٨٢]. بقي ان نقول ان عهد الرسول(ﷺ) سمح لنصارى أهل نجران ، أن يدفعوا عوضا عن الحلل التي فرضت عليهم، ما يوازي قيمتها من دروع ، او خيل او ركاب او أي عرض من عروض التجارة تخفيفا عن كاهلهم[٨٣] لان الحلل إنما تجب عليهم لجزية رؤوسهم في ارض نجران خاصة[٨٤].

ويفيدنا في هذا الشأن((أبو يوسف)) الذي ينفرد بذكر رواية يعلي بن أمية الذي بعثه الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) الى نجران ، انه قال: ((لما بعثني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على خراج ارض نجران – يعني نجران التي قرب اليمن – كتب اليّ ان انظر كل ارض

---

(٧٨) الخراج ، ص ٧٢.

(٧٩) ابو عبيد، الاموال، ص ٢٠٣ .

(٨٠) قدامة ، الخراج، ص ٢٧٢ .

(٨١) ابن الاثير ، الكامل، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٨٢) فتوح البلدان ، ص ٧٠ .

(٨٣) ابو يوسف، الخراج، ص ٧٢ . البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٠ – ٧١ ، ابو عبيد، ص ٢٠٣ .

(٨٤) ابو يوسف، الخراج، ص ٧٥ .

جلال أهلها عنها ، فما كان من ارض بيضاء تسقى سيحا، او تسقيها السماء ، فما كان فيهما من نخيل او شجر فادفعه اليهم يقومون عليه ويسقونه ، فما اخرج الله من شئ فلعمر وللمسلمين منه الثلثان (أي ست وستون في المئة) ولهم الثلث . وما كان منها يسقى بغرب فلهم الثلثان ولعمر وللمسلمين الثلث . وادفع اليهم ما كان من ارض بيضاء يزرعونها فما كان منها يسقى سيحا او تسقيه السماء فلهم الثلث ولعمر وللمسلمين الثلثان . وما كان من ارض بيضاء تسقى بغرب فلهم الثلثان ولعمر وللمسلمين الثلث))[٨٥].

والذي يمكن ان يقال في هذا النص ان المقدار الذي أخذه الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) يمثل أعلى نسبة أخذت من مستثمري الأراضي الخراجية، وان الخليفة عمر أخذ بنظر الاعتبار طريقة سقي المحاصيل الزراعية الخاضعة لضريبة الخراج، مقدار الجهد المبذول والكلفة الإنتاجية. كما يشير النص الى جلاء عمال الأراضي السابقين ، اذ قال الخليفة ليعلي بن امية ((انظر كل ارض جلا أهلها عنها..))[٨٦]. وان عملية الجلاء هذه تمت سنة ١٩ هـ حسب رواية ((ابن الأثير))[٨٧] وسنة ٢٠ هـ حسب رواية ((الطبري))[٨٨].

وتشير النصوص الى ان أهل نجران الذين أجلاهم الخليفة الراشد الثاني كانوا قد تظلموا الى الخليفة الراشد الثالث عثمان

---

[٨٥] ابو يوسف ، الخراج ، ص ٧٥ و ٨٥ . ابن رجب الحنبلي، الاستخراج في أحكام الخراج ، ص ١٥.

[٨٦] ابو يوسف ، الخراج ، ص ٧٥ .

[٨٧] الكامل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٨ .

[٨٨] تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ، ص ١١٢ .

بن عفان(رضي الله عنه) وشكوا له ثقل ما فرض عليهم . فبادر الخليفة عثمان فوضع ((عنهم من جزيتهم مائتي حلة لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم))[٨٩]، واوصى واليه على الكوفة الوليد بن عقبة بن ابي معيط بأن يحسن معاملتهم لانهم ((قوم لهم ذمة))[٩٠]. وفي رواية ((الكلبي)) ان صاحب النجرانية في الكوفة كان يبعث رسله الى جميع من بالشام والنواحي من اهل نجران فيجيبونهم مالا يقسمه عليهم لاقامة الحلل التي وضعت عليهم[٩١]. فلما ولى معاوية (وفي رواية أخرى يزيد بن معاوية) شكوا اليه تفرقهم، وموت من مات ، واسلام من اسلم منهم، واحضروا له كتاب عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بما حطهم من الحلل واوضحوا له أن عددهم نقص وان قدرتهم المالية انخفضت ((فوضع عنهم مائتي حالة))[٩٢] أخرى . فلما ولى الحجاج بن يوسف الثقفي العراق ، وخرج ابن الاشعث عليه ، اتهمهم الحجاج بموالاته ((فردهم الى ألف وثمانمائة حلة))[٩٣] لكنهم وجدوا ضالتهم في عهد الخليفة

---

(٨٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٣ . ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠١. ابوعبيد ، الاموال ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ (قال ابو يوسف : ثلاثين حلة ، ص ٧٤.

(٩٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٣ . قدامة ، الخراج ، ص ٢٧٣ . ابن الاثير الكامل ، جـ ٢ ، ص ٧٣ . قدامة ، الخراج ، ص ٢٧٣ . ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ .ابو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٣ .

(٩١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٣ – ٧٤ . قدامة ، الخراج ، ص ٢٧٣ .

(٩٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٤ . قدامة، الخراج ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ .

(٩٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٤ . قدامة ، الخراج ،ص ٢٧٤. اخطأ ابن الاثير) حين قال ان الحجاج ردهم الى الف وثلثمائة حلة . ينظر : الكامل ، جـ ٢ ص ٢٠١) .

عمر بن عبد العزيز الذي حل قضيتهم حلا جذريا عادلا ومنصفا حيث أمر بأن يعاد إحصاؤهم ((فأحصوا فوجدوا على العشر من عدتهم الأولى . فقال أرى هذا الصلح جزية على رؤوسهم ، وليس هو بصلح عن أرضهم . وجزية الميت والمسلم ساقطة . فألزمهم مائتي حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم))[٩٤]، انسجاما مع نهج الدولة في تعاملها مع أهل الذمة .

ويبدو ان أهل نجران لم ينعموا طويلا بالإجراء المنصف الذي منحهم إياه الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ذلك ان والي العراق الجديد يوسف بن عمر الثقفي ، أيام الخليفة الوليد بن يزيد ، ردهم الى أمرهم الأول عصبية للحجاج[٩٥]. وحينئذ ألزموا بدفع ألف وثمانمائة حلة . غير ان أهل نجران لم يركنوا لهذا الحيف الجديد الذي لحق بهم ، فصاروا يتحينون الفرص واستثمارها لتحقيق أهدافهم . وقد تلمسوا متنفسا جديدا أبان قيام الدولة العباسية التي كانوا المسؤولون فيها يبادرون الى خطب ود الناس لتثبيت أسس دولتهم الفتية . وخيّل للنجرانيين ان تقلد ابي العباس السفاح دست الخلافة سيتيح لهم مجال تجديد مطالبهم ، ورفع الحيف عنهم . فعمدوا الى طريق الخليفة الجديد يوم ظهر بالكوفة ، فألقوا فيه الريحان ونثروا الورود عليه وهو منصرف الى منزله من المسجد الجامع . فاكبر الخليفة السفاح هذا الموقف الودي المؤازر للعباسيين ، لاسيما انه حصل منذ وقت مبكر من قيام الدولة . كل هذه الأمور مهدت السبيل أمام النجرانيين لان

---

[٩٤] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٤ . قدامة الخراج ، ص ٢٧٤ .

[٩٥] قدامة ، الخراج ، ص ٢٧٤ . ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ .

يرفعوا أمرهم الى الخليفة ابي العباس السفاح[٩٦]. وتعزز مركزهم حين فطنوا الى صلتهم بأخوال الخليفة السفاح ، حيث قالوا لـــه : ((ان لنـــا نسبا في أخوالك بني الحارث بن كعب . وتكلم فيهم عبد الله بن الربيـــع الحارثي ، وصدقهم الحجاج بن ارطأة فيما ادعوا))[٩٧] ... وحينئذ لـــم يكن إمام الخليفة بدّ إلا أن يجيب مطلبهم ، فردهم ((الى مـــائتي حلـــة قيمتها ثمانية آلاف درهم)) [٩٨].

وتستمر مسألة أهل نجران الاقتصادية صعـــودا لتصـــل عـــهد الخليفة هارون الرشيد ، الذي شخص الى الكوفة يريد الحج ، فأنتـــــهز النجرانيون هذه الفرصة فرفعوا اليه أمرهم ، وشكوا له تعنت العمـــــال تجاههم أثناء جمع الضرائب المستحقة عليهم فأمر ((ان يعفـــوا مـــن معاملة العمال ، وان يكونوا مؤداهم بيت المال بالحضرة))[٩٩] .

مبررات إخراج أهل نجران :

تتواتر الروايات التاريخية التي تؤكد ان الرسول (ﷺ) كـــان ينوي إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب . ففي هذا الشأن قال ((ياقوت))[١٠٠] : ان أبا عبيد قال : ((حدثني يزيد بن حماد بن أبـــي

---

[٩٦] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٤ . قدامة الخراج ، ص ٢٧٤ .

[٩٧] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٤ . قدامة الخراج ، ص ٢٧٤ . ابن الأثـير ، الكامل ، جـــ ٢ ، ص ٢٠١ .

[٩٨] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٤ – ٧٥ . قدامـــة ، الخـــراج ، ص ٢٧٤ . (ابن الأثير ، الكامل ، جـــ ٢ ، ص ٢٠١ قال ردهم الى مائة حلة) .

[٩٩] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٥ . قدامة ، الخراج ، ص ٢٧٤ ، ابن الأثـير الكامل ، جـــ ٢، ص ٢٠١ .

[١٠٠] معجم البلجان ، جـــ ٥ ، ص ٥٦٩ .

الزبير عن جابر ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : لاخرجـن اليـهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا ادع فيها إلا مسلما))[١٠١] . وفي كتاب الأموال أورد ((ابو عبيد)) حديثا عن ابن سمرة عن ابي عبيـدة عن النبي (ﷺ) : ((انه كان أخر ما تكلم به انه قال : اخرجوا اليهود من الحجاز ، واخرجوا اهل نجران من جزيرة العرب))[١٠٢] . وبشـأن هذا الحديث قال ابو عبيد : إنما نـراه قـال ذلـك صلـي الله عليـه وسلم ،لنكث كان منهم ، او لامر أحدثوه بعد الصلح ، وذلك يبين فـي كتاب كتبه عمر اليهم قبل اجلائه إياهم منها[١٠٣].

ويخيل لي ان الظروف التي مر بها الرسول (ﷺ) لم تمكنـه من تحقيق ما عزم عليه . كما ان الخليفة الراشد الأول ، هو الآخر ، لم تسعفه الظروف التي أحاطت بالدولة ان يحقق الهدف الذي كان يصبـوا اليه النبي (ﷺ) ، الا ان هذا الامر تم في عهد الخليفـة عمـر بـن الخطاب (رضي الله عنه) .. قال ((ياقوت))[١٠٤] : إنما أجـاز عمـر (رضي الله عنه) إخراج اهل نجران لما روى عن النبي (ﷺ) قال : ((اخرجوا اليهود من الحجاز ، واخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب))[١٠٥] .

---

[١٠١] ابو عبيد ، الاموال ، ص ١٠٧ (ينظر : البخاري ، صحيح البخاري ، جـ ٤ ص ٥٣١) .

[١٠٢] الأموال ، ص ١٠٨ .

[١٠٣] ابو عبيد ، الأموال ، ص ١٠٨ .

[١٠٤] ينظر : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٦٩ .

[١٠٥] ابو عبيد ، الأموال ، ص ١٠٨ . البـلاذري ، فتـوح البلـدان ، ص ٧٣ . ياقوت، البلدان ، ٥ / ٢٦٩ .

وهكذا نفذ الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) وامر بإخراج نصارى نجران من جزيرة العرب واستشرى منهم عقارهم واراضيهم ، ومع ذلك أمر بتعويضهم عن أرضهم واملاكهم . وترك لهم الخيار في الجهة التي يريدون قصدها ، فاختار قسم منهم التوجه نحو سواد العراق حيث نزلوا بقرب قرية من (حمراء ديلم) ، ومالبثوا ان احتكوا بسكان المنطقة ، فتنصر بعضهم ومنهم رجل مجوسي يقال له (فيروز) الذي صار يرغبهم بدخول القرية ، فدخلوها وغلبوا على القرية واستأثروا بها واخرجوا أهلها ، وابتنوا لهم كنيسة دعوها (الاكيراح) . فشخص أهل القرية الى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فتظلموا منهم . فكتب الخليفة الى عامله المغيرة بشأنهم ، فانصرف النجرانيون الى قرية نهر ابان القريبة من الكوفة ، واستقروا بها[١٠٦] .

ويبدو ان النجرانيين لم يكفوا عن الاعتداء على سكان المنطقة التي نزلوا بها حديثا ، فكانوا يلحقون بهم الأذى ، مما دفعهم الى الشخوص الى الخليفة الراشد الثالث والتظلم لديه ، مستجيرين به ، عله يستطيع ان يرفع عنهم الظلم الذي لحق بهم من النجرانيين . فما كان من الخليفة إلا ان كتب في امرهم الى الكوفة الوليد بن عقبة[١٠٧] .

إن هذه الحوادث تعزز الاتجاه الذي يرى ضرورة في إخراج اهل نجران من جزيرة العرب. ولنا ان نضيف رواية (ابي عبيد) التي مؤداها : أن محمد بن سيرين قرأ كتابا موجها من الخليفة

---

[١٠٦] ياقوت ، البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٧٠ .

[١٠٧] ن . م .

عمر (رضي الله عنه) الى أهل نجران ذكر فيه انـــهم دخلـوا الإســلام دون ان يكرههم اليه احد ، لكنهم ارتدوا الى النصرانية بعد إسلامهم[١٠٨]. هـــذا فضلا عن انهم أكلوا الربا في عهد عمر (رضي الله عنه) فأجلاهم . ففي هـــذا الشأن قال (ابو عبيد) ((فلما ولي عمر بن الخطاب أصابوا الربا فـي زمانه فأجلاهم عمر))[١٠٩]. وفي هذا الحال قد خـــالفوا العـــهد الـــذي أبرموه مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والذي نص فيه : ((على ان لا يـــأكلوا الربا))[١١٠]. فثبوت أكلهم الربا ، انما هو نقض صريح ومتعمد للعـــهد الذي قطعوه على أنفسهم أمام الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ويضيف (البلاذري) عاملا جديدا دفع الخليفة الراشد الثـــاني الى إجلائهم ، حيث جاء برواية يحيى بن آدم الذي قـــال : ((وكـــثروا فخافهم على الإسلام))[١١١] . ولنا ان نضيف في هذا المجـــال روايـــة (الاعمش) عن سالم عن ابي الجعد ، قال : ((كان أهل نجـــران قـــد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم فأتوا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقالوا : أجلنا . وكان عمر قد خافهم على المسلمين فأغتنمها فـــأجلاهم))[١١٢]. وقد توجه قسم من النجرانيين نحو بلاد الشام واســتقروا فـــي منطقـــة عامرة يقال لها (حوران) مـــن نواحـــي دمشـــق . قـــال يـــاقوت :

---

[١٠٨] ابو عبيد ، الاموال ، ص ص ١٠٨ – ١٠٩ .

[١٠٩] ابو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٢ و ٢٠٤ . البلاذري ، فتوح البلدان . ص ٧٢ قدامة ، الخراج ، ص٢٧٣ .

[١١٠] ابو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٢ .

[١١١] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٢ . قدامة ، الخراج ، ص ٢٧٣ .

[١١٢] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٣ .

((وللسلطان عليهم قطيعة وافرة يؤدونها اليه كل عام))[113]. ويبدو ان النجرانيين الذين اتجهوا نحو بلاد الشام لم يتعرضوا لمشاكل ومضايقات كما هو شأن النجرانيين الذين قصدوا سواد العراق ، كما ان المصادر سكتت عن اعتداءاتهم وتجاوزاتهم التي ربما لم تكن موجودة أصلا .

والحق ان الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) لم يبخس حقهم ، حيث كتب الى عماله في العراق وبلاد الشام بأن ((يوسعوا عليهم من خريب الأرض وما اعتملوا من شئ فهو لهم لوجه الله ، وعقبى ارضهم))[114]. بقي ان نقول ان كلا من (الطبري) و (ابن الأثير) ذكرا ان الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) أجلى اهل نجران سنة ٢٠ هـ[115] .

ويبدو ان بعض أهل نجران ظل يراودهم الحنين الى وطنهم الأول . ففي هذا الشأن قال (البلاذري) : ان النجرانيين كانوا قد ندموا على طلبهم الى الخليفة عمر (ﷺ) بإجلائهم عن نجران، فأتوه والتمسوا منه أن يعيدهم الى نجران ، الا انه رفض ذلك . واستغلوا فرصة تقلد الإمام علي بن ابي طالب (ﷺ) دست الخلافة ، ونزوله الكوفة ، بين ظهرانيهم فأخذوا يلحون عليه ان يسمح لهم بالعودة الى نجران اليمن . فقالوا : ((شفاعتك بلسانك ، وكتابتك بيدك . أخرجنا عمر من أرضنا فردها الينا صنيعة . فقال : ويلكم ، ان عمر كان رشيد

---

[113] ياقوت ، البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٧٠ .

[114] ابو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٣ . قدامة الخراج ، ص٢٧٣ .

[115] الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٤ ، ص ١١٢ . ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٢ ص ٣٩٨ .

الأمر ، فلا أغير شيئا صنعه))[١١٦] ومع ذلك فان النصوص تشير الى انهم كانوا يكنون للإمام علي (رضي الله عنه) محبة كبيرة ، وان له عندهم منزلة عالية . قال عبيد الله بن موسى بن جابر الهذلي الحارثي ، يرثي الامام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه)[١١٧] :

بكيـتُ علياً جَهْدَ عينـي فلم أجِد	عَلى الجُهدِ بَعْد الجُهْدِ ما أستزيدُها
فما أمسكَتْ مكنونَ دمعي وما شَفَتْ	حزيناً ولا تُسلى فيرجى رُقُودُها
وقد حَمَلَ النعش ابن قيس ورهطه	بنجران والأعيانُ تبكي شهُودُها
علي خيرِ مَن يبكي وينجعُ فَقْـدُه	ويضربن بالأيدي عليه خدودها

وخلاصة القول ، ان الخليفة عمر بن الخطـاب (رضي الله عنه) ، وقـع تحت ظروف ضاغطة ، لم يكن إمامه مناص الا تنفيذهـا . فأحـاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) تشير بوضوح الى ضرورة اخـراج نصـارى أهـل نجران من جزيرة العرب .

---

[١١٦] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٣ . (ينظر : ابن أدم ، الخراج ص ٢٣)

[١١٧] ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٧٠ .

أهـم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير ، علي بن ابي الكرم محمد بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)

الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ،(بيروت ،١٩٦٧) .

ابن آدم ، يحيى القرشي ، (ت ٢٠٣ هـ)

الخراج ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (بيروت ،١٩٧٩) .

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ) .

الخراج ، مخطوطة في مكتبة الدراسات العليا / كلية الآداب ، جامعة بغداد .

ابن خياط ، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ)

تاريخ خليفة بن خياط ، مطبعة الآداب ، (النجف ، ١٩٦٧).

ابن رجب الحنبلي ، عبد الرحمن بن احمد (ت ٧٩٥ هـ)

الاستخراج لاحكام الخراج ، دار المعرفة (بيروت ، ١٩٧٩).

ابن هشام ، عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ)

تهذيب سيرة ابن هشام ، دار الفكر ، (بيروت ، ١٣٧٤ هـ)

ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) .

كتاب الأموال ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ١٩٨٦) .

ابو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم ، (ت ١٨٢ هـ) .

كتاب الخراج ، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت ١٩٧٩) .

البخاري ، ابو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦) .
صحيح البخاري ، دار القلم ، (بيروت ، ١٩٨٧) .
البلاذري ، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩) .
فتوح البلدان ، مطبعة الموسوعات (القاهرة ، ١٩٠١ م) .
الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .
تاريخ الرسل والملوك ، مطابع دار المعارف ، (القاهرة ، ١٩٦٦) .
قدامة ، ابن جعفر الكتاب (ت ٣٣٧ هـ) .
الخراج وصناعة الكتابة ، دار الرشيد للنشر (بغداد ، ١٩٨١).
الماوردي ، محمد بن علي (ت ٤٥٠ هـ) .
الأحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ١٩٧٨) .
مسلم ، مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ) .
الجامع الصحيح ، دار الطباعة المعاصرة ، (مصر ، ١٣٣٢).
الهمداني ، الحسن بن احمد (ت ٣٤٤ هـ) .
صفة جزيرة العرب ، دار الشؤون الثقافة العامة (بغداد ، ١٩٨٩) .
ياقوت ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ)
معجم البلدان ، (طهران ، ١٩٦٥) .
اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب (ت ٢٩٢ هـ) .
تاريخ اليعقوبي ، منشورات المكتبة الحيدرية ، (النجف ، ١٩٦٤) .

تطلعات روسيا القيصرية نحو فلسطين
في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

أ. د. نوري السامرائي
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة بغداد

الملخص

بدأت تطلعات روسيا نحو فلسطين منذ نهاية القرن العاشر الميلادي بعد اعتناقهم العقيدة المسيحية فتوافد الحجاج الروس الى الأماكن المقدسة في فلسطين . وعند قيام الدولة الروسية الموحدة ظهرت توجهات روسيا السياسية نحو الممتلكات العثمانية لاسيما في عهد بطرس الكبير ١٦٨٢ ــ ١٧٢٥م مستغلين ادعاءاتهم بحق الأشراف على الكنائس المسيحية في فلسطين وحماية الارثوكس من سكان الإمبراطورية العثمانية فقاموا ببناء المدارس الدينية والكنائس والأديرة والفنادق في فلسطين وشجعوا النشاط الثقافي مع الموانئ الفلسطينية وتم فتح القنصليات في المدن الفلسطينية المهمة على الرغم من تحديات السلطات العثمانية المدعومة من الدول الأوربية وبخاصة إنكلترا وفرنسا والتي أدت الى اندحار روسيا في حرب القرم وتوقيع اتفاقية باريس عام ١٨٥٦ .

ترجع علاقة روسيا[*] بالبلاد العربية الى ما قبل القرن التاسع الميلادي ومما يؤكد وجود علاقات تجارية بين روسيا والبلاد العربية في العصر العباسي ما أورده ((ابن خرداذبة)) (ت ٣٠٠ هـ) الذي قال : ان التجار الروس كانوا قد وصلوا الى بغداد وهم يحملون معهم سلعهم التجارية ومن جملتها جلود الخنزير وجلود الثعالب السود والسيوف ، ويبدو انهم كانوا يحققون أرباحا جيدة ويبيعون سلعهم بأثمان مرتفعة ، وبذلك يحصلون على أرباح عالية ، علما انهم يدفعون جزية العشر اكثر من مرة لانهم يمرون بأراضي اكثر من دولة واحدة [١].

---

[*] ينتمي الروس الى العنصر السلافي وهو مجموعة من القبائل سكنوا اراضي أوربا الوسطى والشرقية منذ القرن الاول الميلادي في المناطق التي تمتد من جبال الكاربات غربا حتى نهر الفولغا شرقا ومن بحر البلطيق شمالا حتى مصب نهر الدينبر والدانوب في البحر الاسود جنوبا وقد اطلق الرومان على هذه المجموعة من القبائل مصطلح السلاف وهي كلمة لاتينية تعني الرقيق ذلك لان التجار الرومان كانوا يشترون اطفال هذه القبائل ، وحورت هذه الكلمة الى اللغة العربية الى مصطلح ((الصقالبة)) . ويرجع هؤلاء لغويا الى الشعوب الإيرانية ، ينظر فيدوسوف ـ تاريخ الاتحاد السوفيتي ، موسكو ، ص ٢٥ . اما كلمة (روس) فقيل انها نسبة الى احدى القبائل السرماتية المسماة بالقبيلة الساطعة والتي اطلق عليها اسم ((Rus)) باللغة السريانية في القرن السادس الميلادي . ينظر : عبد القادر احمد اليوسف ـ العصور الوسطى الاوربية ، بيروت ١٩٤٧ ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

[١] ابن خرداذبة ، ابو القاسم عبيد الله ((ت ٣٠٠ هـ) ، المسالك والممالك ، بريل (ليدن) ١٨٨٩ م ص ٦٥٤ .

ومما يؤيد وجود العلاقات التجارية بين روسيا والبلاد العربية ، العثور على النقود والمسكوكات العربية وبعض اللقط في روسيا والتي يعود تاريخها الى القرنين الثامن والتاسع الميلادي .

وفي عام ٩٨٨ م اعتنق الأمير فلاديمر سفياتوسلانتش (٩٨٠ ـ ١٠١٥ م) أمير إمارة كييف النصرانية على المذهب الارثذوكسي وفرضها على اتباعه . وهناك رواية طريفة حول سبب اعتناق هذا الأمير النصرانية ، فقيل انه تقابل مع أربعة وفود دينية ، تمثل الإسلام والكاثوليكية والارثذوكسية واليهودية وبعد مناقشة حادة مع أعضاء هذه الوفود قرر الأمير فلاديمر اعتناق المسيحية على المذهب الارثذوكسي ، وقيل انه رفض الإسلام لتحريمه الخمر وقال ((لا نستطيع العيش بدونها))[٢] وبعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ على يد العثمانيين أصبحت أبرشية موسكو المركز الحقيقي للكنيسة الارثذوكسية وصارت تسمى ((روما الثالثة)) وكان الأمير ايفان الثالث (١٤٦٢ ـ ١٥٠٥) حاكم إمارة موسكو قد تزوج أميرة بيزنطية هي الأميرة صوفيا ، فادعى بوراثته للأباطرة البيزنطيين[٣].

بدا أمراء موسكو يلقبون أنفسهم بالقياصرة اعتبارا من ١٥٤٧ . وكذلك اتخذوا من ((النسر ذوي الرأسين)) شعار بيزينطا ، شعارا للدولة الروسية . وفي عام ١٥٨٩م أقامت السلطة الحاكمة في موسكو بطريقة مستقلة في موسكو بحجة انها بطريقية اسطنبول أصبحت

---

[٢] د. عبد القادر احمد اليوسف ، المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

[٣] بيفانوف ، فيدوسوف ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

عاجزة عن إدارة أمور الكنيسة لوجودها في قلب العاصمة العثمانيـة[٤].
ان اعتناق الروس للديانة النصرانية قد أضاف سببا آخر الـــى السـبب الاقتصادي لتقوية علاقاتهم بالأقطار العربية ولاسيما فلسطين لزيـــارة الأماكن المقدسة في مدينة القدس وبيت لحم . فبدأت رحلات الحج الــى فلسطين وكانت هذه الرحلات في بدايتها مقتصرة على رجــال الديــن فقط ، لكنها سرعان ما توسعت لتشمل عامة النصارى من ابناء روسـيا فضلا عن اهتمام السياح والرحالة والباحثين ورجال الفكر من الـــروس لتعرف معالم هذه البقعة المقدسة واوضاعها الاجتماعية والاقتصاديــة والجغرافية فبدا الحجاج الروس يشدون الرحال الى فلسطين على شكل فرق لا يزيد عدد أفراد الفرقة الواحدة على العشـــرات ، فضـــلا عــن الرحلات الانفرادية التي يقوم بها السياح والباحثون الذين لــم تقتصــر رحلاتهم على الديار المقدسة بل سرعان ما اتسعت لتشمل معظم أقــاليم الشرق الأوسط . وقد انتظمت هذه الرحلات في نهاية القــرن العاشــر الميلادي وفي بداية القرن الحادي عشر منذ عهد الأمير فلاديمــر ٩٨٠ حاكم إمارة كييف الذي اجبر شعبه على اعتناق المسيحية بعد ان وجــد فيها وسيلة لتوحيد شعبه والقضاء على الديانـــات الوثنيــة المتعــددة ، يضاف الى ذلك ان تعاليم المسيحية تتفق مع مصلحة الأمير الإقطاعي ، فقد أكدت المسيحية ان الأمير مسلط على الشعب من الله سبحانه وتعالى لذلك فما على أبناء الشعب الا طاعته[٥]. فظهر التحالف بيـــن الأمـير والكنيسة ، عندها بدا الأمير يشجع رحلات الحج الى فلســطين تلبيــة

---

[٤] د. سعيد عبد الفتاح عاشور / اوربا العصور الوسطى ، ج١ التاريخ السياسـي / بيروت ١٩٦٤ ، ص ٦٦١ .

[٥] بيفانوف ، فيدوسوف ـ تاريخ الاتحاد السوفيتي ، موسكو ، بلا ، ص ٤١ .

لرغبة رجال الدين . كذلك تشجيع الرحالة والسياح للسفر الى فلسطين لهدف جمع المعلومات حول هذه البقعة المقدسة .

ومنذ ذلك التاريخ بدا المثقفون والشعراء الشعبيون من أبناء روسيا تدوين المعلومات حول فرق الحج الروسي الى فلسطين . وكانت أوائل تلك المدونات هي القصيدة الشعبية المنسوبة الى (فاسيلي يوسلاييف) من سكان مدينة ((نوفكورد)) عن كيفية وصوله ورفاقه الى تابوت المسيح ـ كنيسة القيامة ـ للانحناء والتقبيل والتبرك ثم الاستحمام في مياه نهر الأردن . اما القصيدة الشعبية الثانية المتعلقة بفلسطين التي عنوانها ((الأربعون من المتدينين البسطاء)) فتحوي معلومات قيمة حول رحلة هؤلاء الحجاج الى بيت المقدس وما عانوه من مصاعب وشدائد في طريقهم من روسيا الى فلسطين[٦].

غير ان أول مدونة وردت فيها معلومات جغرافية واجتماعية واقتصادية وتاريخية حول الأماكن المقدسة في فلسطين كانت في بداية القرن الثاني عشر وهي مدونة رئيس الدير الروسي في مدينة كييف الراهب دانييل الذي شد الرحال الى فلسطين في عام ١١٠٦ ـ ١١٠٨م .

وصادف وصوله الى بيت المقدس بعد احتلال الصليبيين لها بمدة قصيرة ولا شك في ان عددا كبيرا من الكنائس والأديرة قد تم تهديمها فيما بعد ، لذلك تعد المعلومات والإحصائيات التي دونها دانييل عن أبعاد هذه المدينة المقدسة ومساحتها وخططها مهمة جدا ، وبسبب

---

[٦] ب .م. دانتسيغ ـ الرحالة الروس في الشرق الأوسط ، عن الروسية د. معروف خزنة دار ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٢٣.

القيمة العلمية لهذه المعلومات فقد تمت ترجمها الى اللغات الفرنسية والألمانية واليونانية .

وكان اهتمام دانييل كبيرا في وصفه للمدينة المقدسة فيقول عنها ((القدس مدينة عظيمة . أسوارها قويو ودائرية ، مبنية على أربع زوايا في هيئة صليب ، وفيها حقول واسعة للأدغال وحولها جبال صخرية ، وهذا المكان بلا ماء ، أي لا يوجد فيه نهر ولا عين ماء ولا بئر غير انه يوجد مكان واحد يمكن التبرك بمائه وهو ((سيلو عام))(*) فالناس جميعهم والمواشي أيضا يعتمدون على مياه الأمطار في تلك المدينة)) . تنبت الحبوب والغلال بوفرة حول مدينة القدس في الأراضي الصخرية ... ويزرع القمح والشعير ، وهناك شجيرات الخضار وافرة الإنتاج ، وبينها أشجار التوت والتين والزيتون ، كما يصف الطريق الذي سلكه من المدينة المقدسة حتى نهر الاردن ، ويصف البحر الميت بقوله : ((اما البحر الميت فانه ميت ولا يعيش فيه أي كائن حي بأي شكل من الأشكال ولا يوجد فيه سمك ولا حيوان السرطان ويخرج من أعماق البحر القطران الأسود)) . ويعطينا صورة عندما يتكلم على أبناء شعبه من الرهبان الروس الذين التقى بهم في القدس وبيت لحم بقوله : ((لقد ساعدني الرب أنا الضعيف .... هناك مرقد المسيح المقدس ويعيش فيه من أبناء الروس المتطوعون ،

(*) سيلوعام Silo am اسما لحوض ماء يأتي ماؤه من ينابيع تقع في القسم الجنوبي

الشرقي من مدينة القدس ، ما زالت اثاره باقية حتى الوقت الحاضر ، يعتبر من الأماكن المقدسة ، المترجم .

التقيت بهم وتكلم بعضنا مع البعض ، انا الضعيف)) ويذكر ان العرب والصليبيين كانوا يهتمون به ويرعونه بشكل خاص [٧].

وغالبا ما تتأثر رحلات الحج الروسية الى فلسطين بالعلاقات السياسية بين بيزنطا وروسيا وقيام الحروب بينهما على الرغم من وجود المعاهدات بينهما كمعاهدة عام ٩١١م [٨]. والاحتلال الصليبي للقسطنطينية والغزو المغولي للأراضي الروسية ١٢٤٠ ــ ١٤٨٢م . لذلك كانت رحلات الحج الروسية الى فلسطين متقطعة وغير منتظمة . وبعد سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين عام ١٤٥٣ ظلت رحلات الحج الروسية الى فلسطين تعاني من الصعوبات بتأثير الحروب الكثيرة بين العثمانيين والروس ، حتى أصبحت رحلة الحج الى فلسطين لا يمكن ان تتم إلا بعد حصول على فرمان من السلطان العثماني . وكان قياصرة الروس قد بداوا يبذلون اهتماما كبيرا في رحلات الحج والزيارة الى فلسطين للحصول على كثير من المعلومات حول فلسطين ويأتي في مقدمتهم في هذه المرحلة القيصر ((ايفان الرابع)) ١٥٣٣ ــ ١٥٨٤م الذي شجع الرحلات الى فلسطين ، كما قدم الأموال لبناء الأديرة والكنائس في مدينة القدس وبيت لحم وتوزيع الصدقات على الفقراء من أبناء هذه المدن باسم ابنه ، ففي عام ١٥٥٩ م وصل الراهب يوزنياكوف الى فلسطين بأمر من القيصر ايفان الرابع لتحقيق هذه الأغراض ، فأقام في فلسطين ثلاثة اشهر ، دون خلالها معلومات

---

[٧] حياة وسيرة الراهب دانييل رئيس الأرض الروسية ، ف . م فينونتسيوف ، بطرسبورغ ١٨٨٣ ، ص ٤ ت. د. معروف خزنة دار ، بغداد ١٨٩١ ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

[٨] فيدوسوف ، المصدر السابق ، ص ٣٨.

قيمة حول الزراعة في فلسطين والأحوال المعاشـــية لمدينــة القــدس وأساليب معيشتهم واهتم بالدرجة الأولى بطرق تزويد المدينـــة بميــاه الشرب ، ويذكر ان موسم نزول الأمطار في القـــدس هــو الخريــف والشتاء وهو موسم الحرث والبذار حتى تاريخ مولد المسيح ، اما الربيع والصيف فلا وجود للمطر فيه ويصف أحياء مدينة القدس وشكل البيوت فيقول عنها إنها متلاصقة ببعضها مع البعض الآخر وسطوحها محنيــة الى الأسفل ويوجد بئر في فناء كل بيت تتجمع فيه مياه الأمطار وتتوافر فيه المياه طول أيام السنة (*) (٩).

ومن استقراء المعلومات التي دونها الرهبان والسياح الـــروس الذين زاروا فلسطين منذ القرن الثاني عشر حتى السادس عشر ، تبيــن ان هؤلاء اهتموا في هذه المرحلة اهتماما كبيرا بوصف المدن ومواقعها ومرافقها العامة واسباب الراحة فيها وتوزيــع الميــاه علــى منازلــها والاطلاع على حياة السكان اليومية وطرق المواصلات التي ســـلكوها للوصول الى فلسطين . ولكن بعد هذه المرحلة برزت اهتمامات الرحالة الروس بالتجارة والنشاط الاقتصادي لكل الأقاليم والمدن التي يمـــرون بها في سفرهم الى الديار المقدسة ــ فلســـطين ــ واهتمامــهم بتلــك المعلومات التي تتعلق بالزراعة والتجارة وحرف الســكان والتركيبــة

(*) وقع هذا الراهب في خطا ، اذ ان هذه الحفر ليست ابار بل احواض تتجمع فيها مياه الأمطار .

(٩) ((مسيرة التاجر فاسيلي يوزنياكوف الى الاماكن المقدسة في الشرق)) . مجموعة فلسطين الارثدوكسية ، إعــداد م. لوباريف ، المجلد ٦ ، النشــرة ٣ سانت بيترسبورغ ١٧٧٨ ، ص ٥٧ / معروف خزنة دار ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

السكانية في المدن الفلسطينية . ففي عام ١٦٣٤م قام الراهب كاكار برحلة من موسكو الى فلسطين استغرقت ثلاث سنوات وعلى الرغم من ادعائه ان الهدف من رحلته هذه هو الوصول الى القدس وبيت لحم لاداء الصلاة وطلب الرحمة والمغفرة والتكفير عن ذنوبه ، لكنه دون معلومات قيمة تتعلق بالوضع الاقتصادي من تجارة وزراعة وحرف السكان لكل الأقاليم والمدن التي مر بها في طريق رحلته الى فلسطين ، علما انه بدا رحلته من القوقاز ثم آسيا الصغرى وبلاد الشام وزار مصر والقاهرة وسيناء حتى مدينة القدس وكان في القدس ثلاثة أيام فقط والتقى بالرهبان الروس في مدينة القدس وبيت لحم . أما طريق عودته الى موسكو فكان عن طريق : السامرة ودمشق وأدنه وديار بكر وانقرة وسينوب حتى وصل غاليولي ثم ملدافيا وكييف وموسكو[١٠].

والجدير بالذكر هو انه لم يمر أي سائح روسي او حاج قبله بهذه المدن والأقاليم ، وكان قصده من هذه الرحلة بالدرجة الأولى هو جمع المعلومات عن الأوضاع الاقتصادية لهذه المدن والأقاليم .

وبتولي بطرس الأول ((الكبير)) مسؤولية الحكم في روسيا ١٦٨٢ ــ ١٧٢٥ برز هدف آخر ، مما زاد من نشاط العلاقات بين روسيا وبلدان الشرق الأوسط فضلا عن الأهداف السابقة ، ويتمثل هذا الهدف بشعار الوصول الى المياه الدافئة ، ويعني ذلك الوصول الى البحر الأسود ثم البحر المتوسط عبر المضايق وبذلك يتم التوسع على حساب الممتلكات العثمانية خاصة في الحدود الجنوبية للدولة الروسية

---

[١٠] دانتسيغ ــ الرحالة الروس في الشرق الأوسط ، ت معروف خزنة دار ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٥١ ــ ٥٦ .

والتوسع نحو الشمال حتى الوصول الى سواحل بحر البلطيق على حساب الأراضي السويدية ، فتأثرت الدراسات والمعلومات التي قام بها السياح الروس والرهبان عن أقطار الشرق الأوسط بهذه الأهداف السياسية التي عمل بموجبها بطرس الأول ((الكبير)) فزاد اهتمامهم بتعرف الأوضاع العامة للأقاليم العثمانية . ومنذ عهد بطرس الاول اصبح لدى روسيا سفارة دائمة في اسطنبول ، وكان اول سفير روسي لدى البلاط العثماني هو تولستوي وهو الجد الرابع للأديب الروسي تولستوي ، وقد وصل العاصمة العثمانية عام ١٧٠١ م وكان من مهمات هؤلاء السفراء هو التوسط لدى السلطات العثمانية للحصول على فرمان يسمح للحجاج والسياح الروس بزيارة الاماكن المسيحية المقدسة في فلسطين ، وغالبا ما كان يقوم السفراء الروس بزيارة القدس وبيت لحم ، كما فعل السفير تولستوي . وزار فلسطين في هذه المرحلة عدد كبير من السياح والعسكريين والحجاج والتجار الروس ، ففي عام ١٨٢٥ م وصل السائح الروسي بارسكي فلسطين ، وكان اهتمامه كبيرا بالحياة اليومية للسكان العرب في فلسطين فوصف ملابسهم ومأكولاتهم وعاداتهم وطريقة سكناهم ، فيقول عن العرب الذين يعيشون بين يافا والقدس : ((ليست لهم منازل خاصة بهم لا في المدن ولا في القرى وانما يعيشون في السهول ، يحطون الرحال في الخيام ، اما لباسهم فهو رداء واحد ويرتدي أولادهم ونساؤهم الصنادل في أرجلهم لان المرء لا يستطيع السير في الأراضي الصخرية وهو حاف ولا يلبس الرجال شيئا في أقدامهم ويحمل كل واحد منهم سكينا كبيرا يشده في وسطه ، وجميعهم يرتدون جلابيب زاهية متشابهة ومصنوعة من

قماش بسيط ، أما طعامهم فهو الخبز وزيت الزيتون ، أما الخمر فلا يشربونها أبدا .

ويكرر مسالة عدم شرب العرب للخمور اكثر من مرة ويظهر امتعاضه من العرب بشكل واضح على هذا العمل . ولاحظ وجود عدد قليل من بساتين الكروم بين مدينة يافا والقدس ، ويرى ان السبب في ذلك يعود الى كسل العرب وعدم شربهم للخمر[١١].

كما زار فلسطين القس اندريه واخوه ستيفان عام ١٧٠٧ م والقس افرام عام ١٧١٢ م والقس لوكيانوف عام ١٧٠٣م والقس سلفستر عام ١٧٢٢م . ان توجه هذا العدد الكبير من رجال الدين الروس الى فلسطين يدل على تزايد اهتمام الحكام الروس للقيام بهذه المهمة لمعرفة مزيد من المعلومات حول الأرض المقدسة .

وبعد جلوس الامبراطورة كاترين الثانية ١٧٦٢ ــ ١٧٩٦م على العرش الروسي سارت على النهج الذي بداه بطرس الاول ، وهو الوصول الى المياه الدافئة ويعني التوسع نحو الجنوب على حساب الممتلكات العثمانية ، لكن هذه السياسة أثارت حفيظة الدول الأوربية ، خاصة فرنسا والنمسا اللتين قدمتا الإسناد للدولة العثمانية وحرضتها على إعلان الحرب على روسيا ، فأعلنت الحرب على روسيا عام ١٧٦٨م ، فحققت القوات الروسية انتصارات كبيرة على الجيوش العثمانية ، لكن شغل روسيا في مشكلة تقسيم بولندا ، ونشوب الثورة الفلاحية التي عمت معظم الأقاليم الروسية ، اضطرت روسيا الى إنهاء القتال ، فوقعت معاهدة الصلح بين الدولتين في تموز ١٧٧٤م في قرية

---

[١١] دانتسغ ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

((كجك كنيارجة)) التي حققت روسيا بموجبها مكاسب إقليمية وفضلا عن ذلك أصبح لروسيا حق في التحدث باسم رعايا السلطان المسيحيين[١٢]. كما اصبح لروسيا حق إقامة كنيسة ارثدوكسية في اسطنبول على رأسها أساقفة روس ، واصبح من حق رعاياها الحج الى الأراضي المقدسة ، ونعني بها فلسطين دون الحصول على موافقة الإدارة العثمانية ، وحقها في إقامة القنصليات في المدن العثمانية ، حتى ارتفع عددها الى الثلاثين ما بين قنصلية ووكالة قنصلية في تركيا الآسيوية ، اشهرها قنصلية القدس وبيت لحم وحيفا ويافا وغزة فضلا عن سفارتها في اسطنبول[١٣]. حتى الحرب العالمية الأولى وبذلك اصبح من حق روسيا التدخل في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية تحت حجة حماية النصارى الارثدوكس . ومنذ تلك المرحلة تحددت الطرق التي أضحى بإمكان روسيا بواسطتها الزحف على الممتلكات العثمانية في آسيا وأوربا الشرقية وهي : رابطة الشعوب السلافية وعلى رأسها روسيا ، على أساس انها اكبر القوميات السلافية لإثارة المتاعب للدولة العثمانية في البلقان وجنوبي شرقي أوربا والدفاع عن الارثدوكس الذي تدعي روسيا لنفسها حق حمايتهم خاصة في فلسطين[١٤].

فلما وضعت شروط معاهدة ياسي عام ١٧٩٢ حرصت الإمبراطورية كاترين الثانية على وضع شرط يتعلق بتأييد الحق

---

(١٢) د. هاشم التكريتي ــ المسالة الشرقية ــ المرحلة الاولى ، بغداد ١٩٩٠ ص ٣٨.

(13) B.M Danseg – Near East, Moscow 1976 , 254.

(١٤) د. محمد انيس ــ الدولة العثمانية والمشرق العربي ، القاهرة ، بلا ص ١٦٩ .

المذكور ، وكانت الإمبراطورة كاترين لا تقل عن بطرس الأول في انتهاز كل فرصة لتعلن عن موقفها المدافع عن نصارى الإمبراطورية العثمانية لاعتقادها ان هذا سيؤدي الى الخلافات مع العثمانيين فتشتمل الأعذار لإعلان الحرب على الإمبراطورية العثمانية[١٥].

وقد انعكست طموحات كاترين وموقفها من الدولة العثمانية على سياسة روسيا في اهتمامها الكبير بالأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين فشجعت رحلات الحج الى فلسطين لهدف من أهدافها التوسعية على حساب الممتلكات العثمانية فضلا عن تشجيع السياح لزيارة أقطار الشرق الأوسط ولاسيما فلسطين للحصول على مزيد من المعلومات حول هذه الأقاليم . ففي عام ١٧٩٣ وصل الراهب المسكوفي ميليتي مدينة يافا ، وكانت أول ملاحظاته من خلال وجوده في هذا الميناء الفلسطيني هو ان الترك يتصرفون مع الروس بروح مليئة بالكراهية . ودون ملاحظاته حول وصف هذه المدينة ، فوصف شوارعها ومساكنها والبساتين التي تحيط بها والانتماءات القومية والدينية فيها ، فقال ان معظم السكان من العرب المسلمين واليهود قلة ، كذلك عدد النصارى من الارثدوكس والكاثوليك ، وعدد قليل من الحكام والأتراك العسكريين وقال ان مرفا المدينة غير صالح للملاحة ، كما شاهد موسم الحج في القدس وبيت لحم فقدر عددهم بـ ٥٠٠٠ حاج من كل الطوائف المسيحية ، ويدعى ان غالبيتهم من الارثدوكس . وفي عام ١٨٠٤ ـ ١٨٠٥م قام الراهب المسكوفي فيشيناكوف برحلة الى القدس عن طريق اسطنبول ويافا فتلمس من كل مدينة من مدن فلسطين كره العرب

---

[١٥] حسين لبيب ـ المسالة الشرقية ـ القاهرة ١٩٢١ ، ص ٦٠ .

للحكام الأتراك ، وان معظم سكان القدس من العرب المسلمين مع قلة من الأتراك وعدد كبير من النصارى الارثذوكس والكاثوليك ، اما اليهود فعددهم قليل يسكنون في أحياء خاصة بهم ، منازلهم جيدة ، يسكن معظمهم بجوار هيكل سليمان في الأقسام الشرقية من القدس . وهم في معزل عن السكان الآخزين ولهم أسواقهم الخاصة لبيع المأكولات ويمارسون التجارة والحرف المتنوعة[١٦]. وفي عام ١٨٣٠م قام الكاتب اللاهوتي ومؤرخ الكنيسة الارثذوكسية والموظف في الشعبة الدبلوماسية التابعة لأركان الجيش الثاني مورافيوف برحلة الى فلسطين عبر صحراء سيناء وفي طريقه للقدس وصف مدينة غزة وقال عنها نشطة في المجال الاقتصادي وهي أغنى مدن فلسطين ، والمعروف ان سعف شجرة النخيل الذي جلبه معه مورافيوف الى روسيا قد أوحى للشاعر ليرمنتوف من الخيال والقدرة فنظم في عام ١٨٣٧م قصيدة عنوانها ((غصن فلسطين))[١٧]. وصف فيها طبيعة فلسطين الخلابة ، جبالها وسهولها ومياهها وهواءها واشجارها وكان مطلعها :

قل لي يا غصن فلسطين
أين نموت وأين أزهرت
أي تلال وأي وديان
كنت لها زينة
عند مياه الأردن النقية
كانت أشعة الشمس تداعبك

---

(١٦) دانتسنغ دار ، المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(١٧) مختارات من شعر ليرمنتوف / موسكو ١٩٥٨ ، ص ٥٩ (باللغة الروسية) .

في الليل كانت الريح من جبال
لبنان تحركك بغضب .

وفي عام ١٨٣٥م وصل الرحالة نوروف فلسطين عن طريق صحراء سيناء وزار مدينة يافا وأبدى إعجابه بالأحواض المنتشرة في أحيائها والمزينة بآيات من القران الكريم ترحب بالمسافر المتعب عند دخوله المدينة ، معظم سكانها من العرب يتجاوز عددهم ٤٠٠٠ نسمة اما النصارى فلا يزيد عددهم على ٦٠٠ نسمة ، وبعد زيارته لبيت المقدس وبيت لحم توجه الى البحر الميت وسجل انطباعاته عن هذا البحر الذي قال فيها لا وجود للحياة فيه من حيوان او نبات .

وفي عام ١٨٤٥م قام الطبيب زافالوج برحلة الى فلسطين عن طريق السويس وصف ببراعة مدن : غزة والرملة ويافا والقدس ، ومما جلب انتباهه كثرة الفقراء في مدينة القدس وغالبا ما يتزاحمون حول كنيسة القيامة ، والقسم الأكبر من النصارى يعيشون على هبات الأديرة ، اما اليهود فيعيشون على المبالغ التي يتبرع بها إخوانهم في الدين في مختلف أرجاء العالم ، اما المسلمون فليسوا اكثر ثراءً [١٨].

وفي ٢٩ اب ١٨٠٤م ابحر السائح فشيكوف من مياه اوديسا فوصل الى اسطنبول ، بعدها أبحر الى يافا ثم وصل الى القدس عن طريق اللد والرملة . واجلب انتباهه عند مروره بهذه المدن كره العرب للأتراك . وقابل في مدينة القدس الرهبان الارثدوكس من الروس الذين يعيشون في المدينة بصورة دائمية ، فضلا عن ذلك التقى أربعة من المواطنين الروس اثنين منهم من تجار مدينة قازان واثنين من التتار الذين رجعوا بعد تأدية فريضة الحج في مكة المكرمة وهم في طريقهم الى ديارهم

---

(18) B.M Danseg, OP. Cit, 168 .

في روسيا[19]. ومالوف لدى الحجاج المسلمين زيارة المسجد الاقصى وقبة الصخرة بعد أدائهم فريضة الحج في مكة المكرمة .

وبعد ان اعتلى العرش العثماني عبد المجيد ١٨٣٩م بدا العمل بإصلاح شؤون الدولة العثمانية يعاونه وزيره الأول رشيد باشا ، فخشيت روسيا ان تنتعش الدولة العثمانية وتصبح قادرة على رد المعتدين عليها من الدول الأوربية وبالدرجة الأولى روسيا ، لذلك عمدت الى التلاعب بوسائل مختلفة لتنفيذ أهدافها التوسعية على حساب الممتلكات العثمانية ، فأثارت مجددا مسالة حماية المسيحيين وحقها في الأشراف على الكنائس والأماكن المقدسة في فلسطين[20] .

وكان الباب العالي قد سلم مفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس وبيت لحم للرهبان الكاثوليك ترضية لفرنسا ، فأعلنت روسيا معارضتها لذلك على زعم ان لها وحدها حق الحماية المسيحية في الأقاليم العثمانية بحكم المعاهدات المعقودة بين الدولتين ــ الروسية والعثمانية ــ كما جاء في معاهدة ((كجك كينارجـه)) لعام ١٧٧٤م ومعاهدة ياسي لعام ١٧٩١م ، لكن فرنسا عارضت المطالب الروسية ، فاشتدت الخلافات عام ١٨٥٠م بين نيقولا الأول قيصر روسيا ونابليون الثالث إمبراطور فرنسا حول إدارة الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم فكان في القدس رهبان من جنسيات مختلفة تابعون لطوائف وكنائس مسيحية مختلفة ما بين كاثوليكية وارثدوكسية وأرمنية ، وكان الرهبان من الكاثوليك والرهبان الارثدوكس لا يتوقفون عن النزاع

---

[20] محمد قاسم وحسين حسني / تاريخ القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١٩٣ ــ ١٩٤

[19] B.M Danseg, OP. Cit, 167.

والخلاف على إدارة الأماكن المقدسة ولاسيما حول الأشراف على كنيسة المهد وكنيسة القيامة . وكانت فرنسا تحمي الرهبان الكاثوليك وروسيا تحمي الرهبان الارثوذكس . ((وحارت تركيا بين الفريقين ولم تعرف كيف توفق بينهما))[٢١].

وقد هاجم القيصر نيقولا الأول بصفته المدافع عن الارثوذكسية سلكان تركيا لانه لم يفلح في المحافظة على السلام في الأرض المقدسة ـ فلسطين ـ وطالب بالاعتراف بحق روسيا في حماية النصارى داخل الإمبراطورية العثمانية استنادا الى بنود معاهدة ((كجك كينارجه)) عام ١٧٧٤م ومعاهدة ((ياسي)) عام ١٧٩١م ، لكن الإمبراطور نابليون الثالث سرعان ما أشار الى ان حقا مزعوما كهذا يتناقض مع حقوق فرنسا القديمة التي حصلت عليها بموجب المعاهدات السابقة في حماية الكاثوليك مثل معاهدة ١٧٤٠م وطالب السلطان العثماني بوجوب مقاومة الادعاءات الروسية ، فاستجاب السلطان العثماني لطلب الإمبراطور الفرنسي[٢٢].

وكان هذا النزاع الذي بدا بخلافات بين الرهبان الكاثوليك والرهبان الارثذوكس حول حماية الأماكن المقدسة في فلسطين سوعان ما تحول الى قضية دولية عندما سارعت فرنسا بإسناد رجال الدين الكاثوليك وروسيا بإسناد رجال الدين الارثوكس[٢٣]. فقد طالب الإمبراطور نابليون الثالث عام ١٨٥١م السلطان العثماني ان يعلن وثيقة

---

[٢١] حسين لبيب / المصدر السابق ، ص ٧٤ .

[٢٢] كارلتون هيز / التاريخ الاوربي الحديث ١٧٨٩ ـ ١٩١٤ ، ت المرحوم الدكتور فاضل حسين ، الموصل ١٩٨٧ ، ص ١٦٧ .

[٢٣] د. هاشم التكريتي / المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

رسمية يؤكد فيها الوضع الأفضل لرجال الدين الكاثوليك ولجميع الكاثوليك الذين يتمتعون بالحماية الفرنسية حسب الامتيازات التي وردت في معاهدة ١٧٤٠م والتي لم يعد رجال الدين الكاثوليك في فلسطين قادرين على التمتع بها بسبب الإسناد الروسي للرهبان الارثوذكس في فلسطين وشغل فرنسا بمشكلاتها الداخلية وحروبها الخارجية في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر [٢٤]. وقد أيدت الدول الكاثوليكية مثل النمسا وأسبانيا وبلجيكا والبرتغال مطالب الإمبراطور نابليون الثالث هذه ، فاضطر السلطان العثماني الى الاستجابة لمطالب فرنسا ، لكن هذه الخطوة التي اقدم عليها السلطان سببت امتعاضا شديدا لدى القيصر الروسي نيقولا الأول ، حتى طلب من العثمانيين العدول عن ذلك القرار . والواقع ان قضية الأماكن المقدسة في فلسطين لم تهم نابليون الثالث ونيقولا الأول بل كانت بالنسبة لهم ستارا لقضايا اعمق واكثر أهمية ، ففرنسا استهدفت استغلال ذلك لتحطيم الحلف الفارسي الذي حجم نفوذها في العلاقات الدولية لمدة نصف قرن فأراد الإمبراطور الفرنسي استغلال هذه المسألة لإبعاد بريطانيا والنمسا عن روسيا في هذه المنطقة التي تتصادم فيها مصالح هاتين الدولتين مع مصالح روسيا . أما نيقولا الأول فأراد استغلال النزاع حول الأماكن المقدسة في فلسطين لتوسيع النفوذ الروسي في الأقاليم العثمانية ، ولهذا كانت روسيا مستمرة على توسيع نفوذها ورفع مكانتها بين الارثوذكس ولاسيما في فلسطين بمختلف الوسائل ، فقامت في هذا الوقت بتوزيع النقود على رجال الدين الارثوذكس وتعمير

---

[٢٤] نفس المصدر .

الكنائس والأديرة القديمة وبناء جديدة في فلسطين وأسست عدة معاهد دينية وغير ذلك من الإجراءات التي تعزز نفوذها في فلسطين بين الارثدوكس[٢٥] كتشجيع رحلات الحج والسياح والمثقفين الى فلسطين . وهذا في الواقع مما دفع نيقولا الأول الى ألا يكتفي بالمطالبة بحماية حقوق الكنيسة الارثدوكسية في القدس وبيت لحم فقط بل تعدى ذلك الى المطالبة بأن تعترف السلطة العثمانية به حاميا لجميع رعاياها الارثدوكس ، أي حق النزول له عن رعاية الجزء الأكبر من سكان الإمبراطورية العثمانية ، ولو استجابت السلطة العثمانية لمطالب نيقولا الأول لحاز الزعامة والحماية لـ ١٢ مليون من الارثدوكس في الإمبراطورية العثمانية[٢٦] ، لكن الباب العالي رفض هذا الطلب لكونه لا يتفق وسلامة الامبراطورية العثمانية بحسب ادعائه. عندها قرر القيصر نيقولا الأول إرسال عضو مجلس الدولة منشيكوف الى اسطنبول لتقديم إنذار إلى العثمانيين في حالة عدم قبولهم لمطالب القيصر الاخيرة . فوصل منشيكوف اسطنبول في ٩ آذار عام ١٨٥٣م . وكان القيصر قد فوضه حسم النزاع مع العثمانيين حول الأماكن المقدسة في فلسطين بتوقيع معاهدة مع العثمانيين تتضمن الاعتراف بحق الإمبراطور الروسي بحماية جميع رعايا السلطان الارثدوكس ، لكن الادارة العثمانية رفضت الطلبات التي تقدم بها منشيكوف بتشجيع من السفير البريطاني في اسطنبول ستراتفورد . فأضطر منشيكوف الى تقديم مسودة مشروع جديد في ٥ أيار ١٨٥٣ م الى الإدارة العثمانية

---

[٢٥] الدكتور هاشم التكريتي / المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

[٢٦] حسين لبيب ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

حذف منه مطلب حماية الكنيسة الارثدوكسية وكذلك البنود الخاصة بانتخابات البطارقة الارثدوكس ولكنها تضمنت حق روسيا في إنشاء كنيسة جديدة مع ملحقاتها في القدس وتأكيد جميع المعاهدات السابقة المعقودة بين روسيا والعثمانيين ، كما أكد المشروع وهو منح روسيا بشكل محدد الحق بحماية الارثدوكس في الإمبراطورية العثمانية بنفس الشكل الذي كان من حق فرنسا ، كما ورد في معاهدة ١٧٤٠م[٢٧] .

وجاء الرد العثماني على مشروع منشيكوف الاخير بأن وعد الباب العالي باحترام حقوق رعاياه الارثدوكس وحصانة الكنيسة الارثدوكسية ولكن رفض التوقيع على الاتفاق الذي طلبه منشيكوف لان ذلك يعرض استقلال الدولة العثمانية الى الخطر ، كما اخبر منشيكوف بان الإدارة العثمانية عازمة على الحفاظ على الوضع الراهن في الأماكن المقدسة في فلسطين ، وان أي تغير تقوم به السلطة العثمانية هناك لا يمكن ان يتم الا بعد الاتفاق عليه مع فرنسا وروسيا اللتين اعترف بهما تبعا لذلك ضامنتين للكنيسة المسيحية في الإمبراطورية العثمانية لا ترجح أحدهما على الأخرى في هذا المجال[٢٨] . وفي ٢٠ أيار ١٨٥٣ م قدم منشيكوف مشروعا جديدا الى الإدارة العثمانية جاء فيه أن تعلن السلطة العثمانية بيانا رسميا تلتزم بموجبه تأكيد جميع حقوق وامتيازات الارثدوكس السابقة وبمنحهم جميع الحقوق التي سيحصل عليها أصحاب المعتقدات المسيحية الأخرى في المستقبل . لكنه لم يتسلم الجواب على اقتراحاته الجديدة ، فغادر اسطنبول في ٢١

---

(٢٧) حسين لبيب ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٢٨) دكتور هاشم التكريتي / ص ١٧٨ / المصدر السابق

أيار ١٨٥٣ م وتبعه القائم بالأعمال الروسي في اسطنبول . عندها وجه القيصر نيقولا الأول إنذارا جديدا الى الحكومة العثمانية هـــدد بدخـــول القوات الروسية إمارتي الدانوب اذا لم تستجب الى اقتراحات منشيكوف الاخيرة، ولايعني هذا إعلان الحرب بل ليكون ذلك ضمانا ماديا لتنفيـــذ الباب العالي للمطالب التي قدمتها روسيا ، لكن السلطان العثماني رفض الإنذار الروسي نتيجة للإسناد البريطاني والفرنسي عندها احتلت القوات الروسية إمارتي الدانوب في تموز ١٨٥٣ م .

ولما كان احتلال روسيا لإمارتي الدانوب يهدد مصالح إنكلـــترا وفرنسا والنمسا فقد عقد في فينا مؤتمر غير رســـــمي يضـــم ســـفراء بريطانيا وفرنسا وبروسيا بمبادرة من وزير خارجية النمسا وذلك لحسم النزاع بين روسيا والدولة العثمانية بالطرق السلمية[٢٩]، وصــــدر عـــن المؤتمر مذكرة ترك فيها أمر حماية المسيحين غامضا بحيث تســـتطيع كل من بريطانيا والدولة العثمانية تفسيره طبقا" لمصلحتها ، لكن الدولـــة العثمانية ((أصرت على ان لا توضع حقوقها موضع الشـــك))[٣٠] . وقد عززت بريطانيا وفرنسا هذا الرأي ، فـــأعلنت روســـيا تمســـكها بمطلبها الأول ، فوجه السلطان العثماني إنذارا الى روسيا بسحب قواتها من إمارتي الدانوب بتشجيع من بريطانيا وفرنسا ولما لم تستجب روسيا للإنذار العثماني أعلن العثمانيون الحرب على روسيا في ١٦ تشـــرين أول عام ١٨٥٣م وردت روسيا على ذلـــك بـــإعلان الحـــرب علـــى العثمانيين في اليوم الأول من تشرين ثاني عام ١٨٥٣ م . وفي بدايـــة

---

[٢٩] د . هاشم التكريتي / المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

[٣٠] محمد قاسم وحسين حسني / المصدر السابق ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

الحرب منيت القوات العثمانية بهزيمة منكرة في معركة سينوب في ٣٠ تشرين ثاني عام ١٨٥٣ م . اذ تم تدمير الأسطول العثماني وكان نتيجة المعركة هذه السبب المباشر لدخول كل من بريطانيا وفرنسا وسردينيا الحرب بجانب العثمانيين ضد روسيا . اما النمسا فكان موقفها حياديا مضطربا ، وقد حاولت التدخل بين الأطراف المتحاربة لحسم النزاع ، وحينئذ توفي الإمبراطور نيقولا الأول وحل مكانه ابنه الاسكندر الثاني عام ١٨٥٥ م فزاد الأمل لدى بريطانيا وفرنسا لوقف القتال بما عرف عن الإمبراطور الروسي الجديد في ميله للسلام ، وصادف مجيئه الى مسؤولية الحكم الانحدارات الكبيرة التي ألحقت بالقوات الروسية ، فأضطر الى قبول الإنذار النمساوي المقدم الى روسيا في ٢٨ كانون أول عام ١٨٥٥ م الذي جاء من جملة بنوده وجوب تخلي روسيا عن حقها بحماية رعايا السلطان من المسيحيين الارثدوكس . وفي ١٨ شباط عام ١٨٥٦م أصدر السلطان العثماني مرسوم الإصلاح المسمى ((خطي همايون)) الذي أكد حرية العقيدة والمساواة المدنية لجميع رعايا الإمبراطورية العثمانية وقد اراد السلطان العثماني من ذلك ان يسلب الدول الحجة التي كانت تتذرع بها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية ، فأنعقد مؤتمر الصلح في باريس في ٢٥ شباط ١٨٥٦ م وانهى أعماله في ٣٠ آذار ١٨٥٦ م بالتوقيع على معاهدة باريس التي كان من بعض بنودها تخلي روسيا عن أي مطلب في حماية المسيحيين من رعايا الإمبراطورية العثمانية ، ووافقت على احترام كيان الإمبراطورية العثمانية [٣١] .

---

[٣١] كارلتون هيز / المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

وعلى الرغم من الهزيمة العسكرية التي حلت بروسيا والشروط القاسية التي فرضها مؤتمر باريس عليها ، فظلت الأهداف الروسية قائمة تجاه الإمبراطورية العثمانية على الرغم من مشكلاتها الداخلية التي ساعدت الحرب على نضجها ، لذلك لم ينجح مؤتمر باريس في القضاء على حالة العداء في العلاقات العثمانية – الروسية. فقد استمر السياح والرهبان الروس في رحلاتهم الى فلسطين ، ومما يجلب الأنظار اهتمام هؤلاء السياح والرهبان في هذه الحقبة بالدعاية لروسيا في وسط المجتمع العربي وحب العرب لهم والتودد للعرب والإشادة بسمعة في روسيا في وسط المجتمع العربي وتفضيلهم على غيرهم من بقية الأوربيين ، وكان هدفهم من ذلك رفع سمعة روسيا في وسط المجتمع العربي بعد انهيار سمعتها بتأثير حرب القرم . ففي عام ١٨٦٠ م قام السائح الروسي ((بيرك)) برحلة الى فلسطين ، وكان انطباعه الأول عن عرب فلسطين يتمثل بقوله : ان هذا الشعب – شعب فلسطين – يحب الروس ويميل إليهم بالقياس الى جميع الأوربيين الآخرين ، وهل تعرف لماذا ؟ الجواب لان الروس يتعاملون معهم ببساطة وإنسانية ، أما الفرنسيون والإنكليز وعلى وجه الخصوص الإنكليز فيعاملونهم كما يعاملون الحيوانات ، فالإنكليزي لا يمكن ان يتكلم معهم لأي سبب من الأسباب ، ويقذف لهم الجنيه ، كما يرمي الأكل الى الكلاب ، وهذا الشعب – الشعب العربي الفلسطيني – حساس اكثر من غيره ، يرنو الى لطف وبشاشة الجوالين الذين يأتون الى صحرائه أعطه اقل ولكن أعطه بإنسانية وهو يتذكر هذه الإنسانية مدة طويلة وينقل أسمك من جيل الى جيل [٣٢]. أما الطبيب الروسي

---

(32) B.M. Danseg, OP. Cit, P. 235 – 254.

بيليسيف الذي قام برحلة الى فلسطين عام ١٨٨١ م بتكليف من الجمعية الفلسطينية – الروسية فقد تجول في معظم المدن الفلسطينية بهيئة حاج بسيط ، دون معلومات حول الحياة الاجتماعية في المدن الفلسطينية ونشاط السكان الاقتصادي وتخطيط المدن ولاحظ في جميع مدن الشرق الأوسط التي زارها ابتداءً من اسطنبول ثم فلسطين وانتهاءً بالصحراء في شبه الجزيرة العربية فقد لاحظ التطور نحو الافضل في علاقة العرب بالروس فالاسم الروسي اصبح في الشرق الأوسط يعني الإخلاص ، فهو لا يقارن بالألمان والفرنسيين وخاصة الإنكليز ، ويدعي انه كان يقابل بالود والاحترام حين يحل في أي مدينة عربية ، ولا يشعر بوجود عداء للروس وحتى في أيام قصف الإسكندرية من جانب الأسطول البريطاني عام ١٨٨٢ م عندما كان العرب يقتلون أي أجنبي، فكانت كلمة واحدة ((أنني مسقوفي)) تنقذ الروسي من ذلك الخطر المحدق [٣٣] .

وفي المدة ١٩٠٨ – ١٩١٠ أقام العالم الروسي كراجكوفسكي في سوريا ومصر كمبعوث لجامعة بطرسبورغ وخصص جزاء من هذا الوقت لزيارة المدن الفلسطينية فزار القدس وبيت لحم ، ففي القدس عمل في المكتبة التي تحمل اسم ((المكتبة الخالدة)) كما زار الناصرة وأريحه وتعرف على مشاهير العلم والأدب في المدن الفلسطينية اذ يقول : ((التقيت أناسا لهم أهميتهم الخاصة حين تجولت في جبال فلسطين وسهول الجليل ، فكان معلمو القرى والصحفيون المحليون

---

[٣٣] ف . بسيلبسيف – الطريق الى سيناء في عام ١٨٨١ . سانت بطرسبورغ ١٨٨٣ م ص ٢ – ٣ / ت معروف خزنة دار ص ٣٢٧ .

ومراسلو الجرائد والأطباء يستقبلونني بود وصداقة انهم جميعا يثورون ويحملون بالانبعاث القومي ، وكان الأدب القومي يستقطب جميع ميولهم، وكانوا ينظرون بحب واجلال الى أثاره القديمة التي كانت ومازالت مستمرة في منح الحياة لهم .

وكان بإمكان المرء وهو يعرف اللغة الروسية فقط ان يقوم بالرحلة والسفر في جميع أنحاء فلسطين في بداية القرين العشرين)) واقتنع بان هيبة روسيا أصبحت عالية جدا(٣٤).

وكان هذا العالم يهتم بالعلم والأدب بحيوية ونشاط ، وكان يبحث في الصحف والمجلات والمطبوعات دارسا علاقة روسيا بالبلاد العربية .

وكان لهؤلاء الرحالة ورجال الفكر والرهبان دور كبير في تقوية العلاقات الثقافية بين روسيا وفلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . كذلك كان ((للجمعية الفلسطينية – الروسية)) دور كبير في تطوير العلاقات الثقافية بين روسيا وفلسطين التي أسست في ثمانينات القرن التاسع عشر التي أسهمت إسهاما فاعلا في نشر الثقافة العربية في روسيا وبالعكس . وكانت هذه الجمعية القائمة حتى اليوم قد أسست في فلسطين ولبنان وسوريا في أواخر القرن التاسع عشر عدة مدارس لابناء العرب وقام خريجو هذه المدارس بترجمة مؤلفات الأدباء الروس الى اللغة العربية (٣٥) .

---

(٣٤) ب . م . دانتسيغ ، ت / معروف خزنة دار – االرحالة الروس في الشرق الاوسط ، بغداد ١٨٩١ ، ص ٣٥٣ .

(٣٥) بوندار يفسكي – سياستان ازاء العالم العربي ، موسكو ١٩٧٥ ، ص ٢٦٦ .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر تعززت العلاقات التجارية بين روسيا والبلاد العربية خاصة مع بلاد الشام وفلسطين بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م إضافة الى ذلك فقد عمدت السلطات القيصرية الى تحقيق أهدافها السياسية على حساب الممتلكات العثمانية في أسيا وأوربا عن طريق تقوية العلاقات التجارية بأقاليم الإمبراطورية العثمانية ، فأخذت بتقديم الدعم المادي لتلك الشركات والمؤسسات الاقتصادية التي تقيم لها علاقات تجارية مع الأسواق العثمانية . وتكشف وثائق مركز حفظ الوثائق في مدينة بطرسبورغ عن حجم العلاقات التجارية بين روسيا والموانئ العثمانية خاصة ميناء حيفا وبيروت . وهناك تقارير كثيرة رفعها وكلاء الشركات الروسية في حيفا وبيروت الى وزارة التجارة الروسية عام ١٩١٢ م طالبوا فيها بإيجاد معرض دائم للسلع الروسية في فلسطين ويرشحون مدينة القدس لذلك المعرض ، وفي عام ١٩١٠ احتلت الموانئ بلاد الشام وفلسطين سدس مجموع حجم التجارة الخارجية للأقاليم العثمانية ، وقد احتلت الصادرات الروسية المرتبة الخامسة في تسلسل تلك الدول التي لها علاقة تجارية بموانئ بلاد الشام وفلسطين وهي : بريطانيا والنمسا وفرنسا ومصر وروسيا ، وكانت أشهر الصادرات الروسية هو نفط باكو حتى احتل المرتبة الأولى في الأسواق العثمانية من ١٩١٠ الى ١٩١١ ويأتي بعد النفط السكر الناعم فكانت الأسواق العثمانية تستهلك ٩مليون(*) بود من السكر في السنة ، وبالنسبة الى حصة فلسطين من هذا السكر فان ميناء حيفا استقبل نصف السكر المستورد

(*) البود : وحدة وزن روسية تعادل ١٦,٣٨ كغم .

من روسيا ويأتي بعد السكر المشروبات الروحية ، فقد استوردت بــلاد الشام خاصة ميناء حيفا وبيروت عام ١٩١٠ م ٨٠٠ر٤٨ بـــود مــن المشروبات الروحية كان نصيب روسيا من ذلك ٢١٤ر٣٩ بود . ويأتي بعد المشروبات الروحية الدقيق ، فقد بلغت قيمة المصدر منــه أربعــة ملايين قرش للفترة من ١٩١٠ – ١٩١١ م المصدر الى موانئ بيروت وحيفا فقط . كما استوردت الموانئ الفلسطينية (الســماور) الروســي والمناديل والشال والخزفيات والفراء وأثاث الكنائس .

والمصنوعات الفلزية والأحذية المطاطيـــة والأقمشـــة . امــا الواردات الروسية من فلسطين فكان اشهرها الخزف المطعم بـــالصدف والفواكه والزيتون والفستق والكرز المجفف والسجاد والبسط والأثـــاث الشرقي ((منتجات الصناعات الخشبية)) . وقد شغلت روسيا في عــام ١٩١٢ م المرتبة الثامنة في سلسلة الدول المستوردة من الدولة العثمانية والدرجة السادسة بالنسبة للدول المستوردة من بلاد الشام عــام ١٩١٣ . وعلى هذا الأساس فان واردات روسيا من الدولة العثمانية لم يكن لـــها شأن مهم وليس لها علاقة بالصناعة [٣٩] .

---

(٣٦) لنين – الشرق الادنى كسوق للبضاعة الروسية ، بـــتروغراد ١٩١٣م ص ٢١٩ .

(٣٧) مجلة الصناعة والتجارة / العدد ١٨ بتروغراد ١٩١٩م ، ص ١٣ .

(٣٨) لينن ــ المصدر السابق ، ص ٢١١.

(٣٩) سميليا نسكايا ــ العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشــام ١٩٠٠ ــ ١٩١٤ ص ٣٧٣ .

وقد لعبت ((شركة الملاحة والتجارة الروسية)) المؤسسة عام ١٨٥٧م دورا كبيرا في تطوير العلاقات التجارية بين روسيا والبلاد العربية وخاصة مع فلسطين فقد كان ميناء حيفا الميناء الأكثر نشاطا في النشاط التجاري بين فلسطين والعالم الخارجي . ففي عام ١٩٠٢ م أقدمت السلطة القيصرية على خطوة موجهة لتقوية العلاقات التجارية بين روسيا والأسواق العثمانية كجزء من سياستها لتحقيق مكاسب سياسية عن طريق العلاقات التجارية ، وهي تأسيس خط للملاحة البحرية بين الموانئ الروسية على سواحل البحر الأسود وموانئ الخليج العربي بالاتفاق مع شركة الملاحة والتجارة الروسية ، على ان يمر هذا الخط الملاحي بالموانئ آلاتية : أوديسا ، اسطنبول ، أزمير ، بيروت ، حيفا بورسعيد ، السويس ، جدة ، جيبوتي ، عدن ، مسقط ، بندر عباس ،، لنجه ، بندر بوشهر ، البصرة ، وتعهدت الحكومة الروسية بتقديم دعم مادي بهذه الشركة مقداره ١٥٠ ألف روبل عن كل رحلة واحدة . كما شجعت الإدارة الروسية على تنظيم معرض عائم للمنتجات والسلع الروسية عام ١٩١٠ م وقد ساهم في هذا المعرض ١٥٠ مؤسسة صناعية وتجارية روسية وإقليم المعرض على ظهر الباخرة الروسية نيقولا الثاني التي تمتلكها شركة الملاحة والتجارة الروسية ، وقد ساهمت وزارة الصناعة الروسية في تكاليف إنشاء هذا المعرض وقد بدأ هذا المعرض رحلته الأولى عام ١٩١٠ م من ميناء أوديسا ثم اسطنبول وسلانيك ، والاسكندرية وبور سعيد وحيفا وطرابلس والاسكندرونة وسمسون وطرابزون[٤٠].

---

[٤٠] ارشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٤٦٥ ، ورقة ١٧ سنة ١٩١٠ .

وقد بلغ عدد الشركات الروسية التي لها علاقات تجارية مع بلاد الشام وفلسطين حتى عام ١٩١٤م (٤٢ شركة) وكان اشهرها شركة ((النفط الروسية)) ((براتيا نوبيل)) وكان لها وكالات في كل من دمشق والاسكندرونة وحلب وطرابلس وعطا وحيفا ويافا والقدس وغزة ونابلس وصفد[٤١]. كما وجد في بيروت وحيفا والقدس عدد من التجار الذين يحملون التبعية الروسية وقد لعب هؤلاء دورا فعالا في تقوية العلاقات التجارية بين بلاد الشام وفلسطين وروسيا [٤٢]. وفي عام ١٩١٢م أسست في بيروت ((شركة التجارة الروسية الشرقية)) وكان مساهمو هذه الشركة من التجار العرب الذين لهم علاقات تجارية بروسيا وفي السنة نفسها أسست ((شركة الصادرات النفطية الروسية ـ العثمانية ـ السورية)) التي تولت عملية استيراد النفط الروسي وتوزيعه وبيعه[٤٣]، ومن الطبيعي ان يكون لهذه الشركات علاقات وثيقة بالأسواق الفلسطينية .

وصفوة القول نرى ان لروسيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر علاقات قوية بفلسطين ـ دينية وتجارية ـ وقنصلية على الرغم من دحرها في حرب القرم وموقف الدول الأوربية الكبرى ـ إنكلترا وفرنسا ـ الهادف الى تحجيم نفوذها في الأقاليم العثمانية وكونها ـ أي روسيا ـ اضعف حلقة في سلسلة الدول الرأسمالية حتى الحرب العالمية الأولى .

---

(٤١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٢٤٠ ، ورقة ٤٤ سنة ١٩١٠ .

(٤٢) نفس المصدر ، وثيقة ٨١٩ ، ورقة ٣٨ ، سنة ١٩١٠ .

(٤٣) نفس المصدر ، وثيقة ٢٣٠ ، ورقة ٣٣ سنة ١٩١٢ .

الوثائــق
وأهميتها في الكتابات التاريخية

د. سالــم الآلوسي
دار الكتب والوثائق
بغــداد

أولا ــ تمهيد :

يحسن بنا ونحن نبحث في الوثائق والمستندات وأهميتها في الدراسات والأبحاث التاريخية ، أن نمهد لموضوعنا بتوضيح بعض المصطلحات والتعريفات ذوات الصلة بالبحث . فهناك مصطلحان هما الوثائق والتوثيق ، كثيراً ما يختلط الأمر على كثير من الباحثين والقراء في التمييز بينهما ، ومصطلح آخر هو علم تحقيق الوثائق (الدبلوماتيك) .

فالوثيقة document أو record بالمعنى العلمي المصطلح عليه عند علماء الوثائق والأرشيفيين ، هي تلك المستندات والأوراق والسجلات والمواد الوثائقية الأخرى التي تودع في مراكز المحفوظات ودورها التي يطلق عليها في المصادر والأدبيات الوثائقية مصطلح ((الأرشيف Archives)) لأغراض علمية وفنية وادارية وقضائية وسياسية واقتصادية ومالية وغيرها ، وبمرور الزمن يصبح لها قيمة تاريخية كبيرة وهو ما يسمى بالأرشيف التاريخي[1] **The Historical Archives** .

---

[1] الالوسي (سالم عبود) ومالك (محمد محجوب) ــ الأرشيف ــ تاريخه ــ أصنافه ــ إدارته . بغداد ــ ١٩٧٩ ص ٤٥ ــ ٤٨ .

ومما يزيد في قيمة هذه الوثائق ، ترابطها وتلاحقها واستمرارها بسبب نموها الطبيعي المتسلسل زمنيا مما يسهل للعمل والمؤرخين والباحثين مهمة الاستقصاء والبحث العلمي ، ويمكنهم من الوصول الى حقائق دامغة واحكام صحيحة نتيجة اعتمادهم على مجموعة كبيرة من الوثائق لا على شواهد وأمثلة فردية .

ومن الحقائق الثابتة ، ان عنصر حفظ الوثائق وترتيبها الموضوعي والزمني مهم جدا لتمييز الوثائق الارشيفية The Archival document من غيرها من الوثائق الوسيطة او النهائية التي تقع في حيازة الوزارات والدوائر الحكومية وغيرها .

وهنا تبرز أهمية الإدارة الوثائقية The Archival Administration وأساليبها ونوع الوثائق التي يحوزها ويتعامل معها المؤرخون والوثائقيون وتختلف الأساليب بين دولة وأخرى ، وذلك يعتمد على ما يأتي :

١. المستوى العلمي والثقافي للدولة وماضيها الحضاري .
٢. نوع الوثائق التي في حيازة تلك الدولة وتسلسلها الزمني ووحدتها الوثائقية المتكاملة ، وعدم وجود ثغرات بين تلك الوحدات والسلسلات .
٣. توفر الخبرات والمهارات الوثائقية والملاكات المتخصصة بالشؤون الفنية والإدارية ، وتأمين المعدات والأجهزة الفنية والعلمية لادارة العمل .
٤. وجود الوعي والشعور بأهمية الوثائق ومراكزها – أي الارشيفات – لان الوثائق هي الأساس في الكتابة التاريخية ، وفي الأقوال المأثورة بهذا الصدد : ((لا تاريخ بدون وثائق)) ، و ((اذا

ضاعت الأصول ــ أي الوثائق ضاع التاريخ)) ، و ((الوثائق هي ذاكرة الأمة الحية)) ، و ((الأمة التي لا تاريخ لـــها كـــالمريض الفاقد الذاكرة)) و ((الوثائق وديعة الأجيال الحـــاضرة للأجيـــال القادمة)) ، و ((الحفاظ على وثائق الأمة حفاظا على تاريخها)) .

وهناك إجماع في الآراء على ان رقي الأمم والبلدان وتطورها يقـــاس باهتمامها وحرصها على وثائقها الوطنية وأرشـــفها القومـــي ومـــدى الاستفادة منها في شتى المجالات والأغراض ، والوثائق نشـــأت مـــع نشوء الحضارات القديمة وقد كشفت عنها التنقيبات الاثارية واســـتمرت حتى أيامنا هذه .

اما التوثيق Documentation : فيقصد به مجموعة العمليات والأساليب الفنية لتوفير أقصى استخدام ممكن للمعلومات المنشورة فـــي المطبوعات العلمية والثقافية والفنية المتخصصة ، الوطنية والإقليميـــة والدولية . وتتضمن إعداد الوثائق التي تحتوي تلك المعلومات وانتاجـها وجمعها وتحليلها وتنظيمها وتوزيعها .

والتوثيق ينبثق أساسا من التنظيم الببليوغرافي المكتبي ، ويتميز منه في عمق التحليل الموضوعي ، وان نشاطه يتصل بإنشـــاء نظـم معلومات وتطوير الطرق والوسائل التي تخدم هذه النظم وتحســـينها . وتتنوع مجالات التوثيق بحسب الأنشطة والفعاليات التي تمارسها دوائر الدولة ومؤسساتها الرســـمية وغـير الرسـمية ، وكذلـك الوكـــالات المتخصصة والمنظمات غير الحكومية . فـــهناك التوثيـق العلمـــي ، والتوثيق التربوي ، والتوثيق الثقافي والتوثيـــق التـــاريخي والتوثيـق الاجتماعي ، والتوثيق الاقتصادي والتوثيق الصناعي والتوثيق الصحفي ... الخ .

لقد ظهرت بوادر التوثيق وتقنياته الأولى وفنون تنظيمه والإفادة منه على يد كل من : بول اوتيليه (١٨٦٨ ــ ١٩٤٤) وهنري لافونتين (١٨٥٣ ــ ١٩٤٣) وهما محاميان من بلجيكا كانا من هواة جمع الكتب والمجلات . ويعود استعمال مصطلح التوثيق الى عام ١٩٥٤ في مصر يوم أنشأت الحكومة المصرية .

بالتعاون مع منظمة اليونسكو ((المركز القومي للإعلام والتوثيق))[٢].

يتضح مما تقدم ان الوثائق والمواد الأرشيفية تتكون من مواد مثل : الأوراق والدفاتر والسجلات والخرائط والصور الفوتوغرافية والأفلام والأشرطة الصورية والصوتية ، ومن الأختام (الطمغات) والنقود والأوسمة والنياشين والأسلحة والآثار القديمة بأنواعها وموادها فالوثائق مواد .

اما التوثيق فيتكون من مواد وأجهزة وأدوات فنية لتوثيق المعلومات التي تتضمنها البحوث والمقالات المنشورة في الدوريات وتسجيلها وتنظيمها وفهرستها وحفظها واستخراجها واستخلاص الحقائق منها وتوصيلها الى من يطلبها من الباحثين بأسرع وقت ، فالتوثيق مواد وعمل .

اما المصطلح الثالث لمعروف بــ (الدبلوماتيك **Diplomatics**) الذي عربناه بــ (علم تحقيق الوثائق) : فهو العلم الذي يحدد أصول الوثيقة وأهميتها من حيث الشكل الخارجي والشكل الداخلي ، ويتناول

---

[٢] يراجع بحث الدكتور محمد مقبول حلاوة بعنوان (التوثيق وضرورته في البحث العلمي) المنشور في مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ــ الرياض ــ العدد ــ ٦ (١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م) ، ص ٧٦٢ ــ ٧٦٣ .

بالدراسة النقدية المصادر الأدبية الرسمية للتاريخ ، خاصة تلــك التــي تدور حولها الريب والشكوك ووسائل صحتها أو زيفها وتزويرها [٣].

لا شك في ان الحاجة القانونية هي التي دفعت الى وضع قواعد علم (الدبلوماتيك) وأصوله ، فكان لا بد من الرجوع الـــى الوثـــائق الأصلية لإخضاعها لمناهج النقد ، ثم انتقل هذا العلم بعد ذلك الى ميدان التاريخ وفتح الأبواب على مصاريعها لنشوء مناهج البحث التـــاريخي وقيام العلوم المساعدة او (العلوم الموصلة) .

ثانيا ــ الشك أول مراتب اليقين

مذهب الشك [٤]:

ربَّ سائل يقول : ما الأسباب والظروف المؤدية الى الاهتمام بالوثـــائق ونشوء علم تحقيق الوثائق المعروف بـــ (البلوماتيك Diplomatics) والى ازدهاره ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة يمكننا القول ، ان ازدهار علم تحقيـق الوثائق (الدبلوماتيك) قد رافق ازدهار علم التاريخ ، وذلـــك بســـبب الصلة الوثقى بين هذين العلمين ، لان كتابة التـــاريخ لا تتـــم الا عـــن طريق الوثائق .

لقد خطا علم التاريخ في القرن السابع عشر خطـــوات ســـريعة وتقدم تقدما مطردا ، فالتاريخ كالقانون يعتد على إيجاد الدليل واستعماله وعلى المؤرخ والقاضي ان يجيبا على سؤال واحد متشابه وهو :

---

[٣] راجع كتابنا ((علم تحقيق الوثائق المعروف بالدبلومـــاتيك)) بغـــداد ت ١٩٧٧ وفيه تفصيلات عن ذلك .

[٤] يراجع : (١) علم تحقيق الوثائق ، ص ١٤ ــ ١٥ .

(٢) بالمر (روبرت) ، تاريخ العالم الحديث ، ج ٢ ، ص ٨٧ ــ ٧٨ .

هل حدث في الحقيقة مثل هذه الواقعة ؟

ولا ننسى ان هناك من يشكك في قيمة ما دونه المؤرخون من أحـــداث وما تناولوه من وقائع ، بدعوى ان الكثير من المؤرخين كتبوا بـــروح العصر الذي عاشوا فيه واثرت فيه أحداثه والنزعات التي دفعتهم الـــى ذلك .

ان كل معرفة تاريخية ، إذا أريد لها ان تتحرر مـــن الخرافـــة والتفكير الأسطوري والهوى الشخصي ، وجب ان تعتمد فـــي النهايـــة على مجموعة من الأدلة والمستندات المكتوبة والملموسة وغير ذلك من الأعمال التي حدثت في الزمن الماضي ، وعلى هذه المجموعـــة مـــن المواد تبنى صورة الماضي الواسعة وبدونها يظـــل الإنســـان جـــاهلا بأسلافه ، لا يعرف عنهم شـــيئا ســـوى القصـــص والتقـــاليد القبليـــة والمأثورات الشعبية . وكان مذهب الشك يكتب للتاريخ في القرن السابع عشر في أوربا . لقد قال بعضهم ان التاريخ ليس صورة مـــن صـــور المعرفة الصحيحة ، لان مادته ليست رياضية .

لقد ثار موقف التشكك هذا من المعنى الضيق للبرهان ، أو مـــن التأكد من ان ليس هناك في الحقيقة دليل على كثـــير ممـــا جـــاء فـــي الماضي ، ولكن علماء التاريخ نصبوا أنفسهم على جمع الأدلـــة التـــي كانت في متناول أيديهم ، وكانوا يرجون من وراء ذلك إيجـــاد تـــاريخ جديد يقتصر على القضايا والحوادث التـــي يصح الركون اليها ويوثـــق بها . وكانت أوربا في ذلك الحين تكتظ فيها الأوراق القديمة والرقوق ، كما كانت الأديرة وقصور الملوك والسجلات والقيود الملكيـــة مـــلأى بالمستندات والوثائق المكتوبة ، غير ان الكثير منها كان مجهول التاريخ والمصدر ، وكان في الغالب مكتوبا بخط اليد الذي لم يعد الناس قادرين

على قراءته بسهولة ، فنذر فريق من العلماء والمجتـــهدين الغيوريـــن أنفسهم لارتياد هذه المجاميع من المستندات والوثائق والكشف عنـــها ، فأضافوا الشيء الكثير الى مجهودات من سبقهم من العلماء لخلق علـــم ومعرفة عصرية انتقادية ، وكان لعلماء عصر النهضة في إيطاليا فضل كبير في هذا الميدان من أمثال (كوزيمو) و (لورنز وفالا) من أسرة مديتشي . فاستطاع العالم الراهب (لورنزو فالا ١٤٠٧ ــ ١٤٥٧) نقد الكتاب المقدس (الإنجيل) والكشف عن الوثيقة المزيفة المعروفة بـــ (هبة قسطنطين)[٥]، وكان عمله هذا بـاكورة الجــهود لتــي فتحــت الأبواب على مصاريعها لعلم (الدبلوماتيك) ، كمـــا اســتطاع العــالم البندكتي (دون جان مابيون **Don Jean Mabillon** ١٦٣٢ ــ ١٧٠٧م) في عام ١٦٨١ ان يصدر اول كتاب في هذا الموضـــوع ، عــد مــن الأصول الأولى واهم المراجع في نشاة علم الدبلوماتيك أطلق عليه اسـم (دي ري دبلوماتيكا) De Re Diplomatica أي في شؤون الدبلوماتيك وكان ذلك في دير (سان جرمان دي بريـــه St. Germain de Pre's) وحينما يتحدث علماء التاريخ في الغرب عن طفرة الدراسات التاريخيـة في الغرب فانهم يرجعونها الى النصف الاول من القرن التاسع عشـــر عندما فتحت دور المحفوظات ومراكز الوثائق الأوربية أبوابها لاهـــل العلم وطلاب المعرفة فاخذوا يستخرجون كنوزها وينشروها على الناس فكانت هذه الثروة الضخمة من الوثائق حافزا للكثيرين على الاتجاه نحو دراسة التاريخ على أساسها ، ومن ثم حدث ما يسمى بالانفجار الواســع المدى في الدراسات التاريخية وظهور مجموعات الوثائق الكــبرى ، اذ

---

[٥] هناك دراسة مفصلة عنها أعدها كاتب البحث للنشر قريبا .

وضعت المقاييس والضوابط لدراستها دراسة علمية دقيقة علـى أيـدي جمهرة من أقطاب العلم التاريخي من أمثال : ليوبولد فـون رانكـة (١٧٩٥ ــ ١٨٨٦) Leopold von Ranke المعروف بـ (كولمبـس العلم)[٦] الذي ركز جل اهتمامه على دراسة الوثائق واستنباط الحقـائق منها . غير ان ذلك لم يخل من نقد أصحاب النظرية النسبية التاريخيـة الذين يقولون : ان المؤرخ لا يقول شيئا وانما هي الوثائق التي تقـول كل شيء ، وعلى هذا الأساس فلا فرق بين مؤرخ ومـؤرخ إلا فيمـا يتعلق بالقدرة على استعمال مناهج البحث ، وهذا غير صحيح ، فـان موهبة المؤرخ لا يمكن إغفالها ، والمؤرخ ليس ذلك الرجل الذي يقضي عمره لاهثا بين المكتبة ومسـتودعات الوثـائق ــ أي الارشـيفات ــ ودهاليز المخطوطات المثقلة بالغبار ، فالمؤرخ ليـس عبـدا للوثـائق والمخطوطات بل هو ناقد حصيف يختار ما يفيد ويكتب كلاما يخـاطب به عقول الناس في كل عصر[٧].

وإذا كانت مدرسة الوثائقيين واهل التوثيق الكامل في الغـرب ، وهي مدرسة (فون رانكة) و (ياكوب بوركهارت ١٨١٨ ــ ١٨٩٧م) هي ذروة ما وصل اليه العلم التاريخي في القرن التاسـع عشـر فـان المؤرخين المسلمين بدؤوا من هذه النقطة قبل الأوربيين عـن طريـق المحدثين المثقفين الذين عكفوا على جمع الأحاديث النبويـة الشـريفة ودراستها فكانوا لا يرون خبرا الا اذا كان معتمدا علـى سـند متيـن موصول من رواة ذوي صدق وأمانة وساروا بعد ذلك علـى منـاهج

---

[٦] نقلا عن مجلة عالم الفكر (الكويت) ، المجلد ــ ٥ ، العـدد ١ (١٩٧٤) ص ٦٧ .

[٧] المصدر السابق ص ٦٨ .

علمية جديرة بكل تقدير . ونتيجة لهذا فلأولئك المحدثين الفضل الكبير جدا في تطور علم التاريخ [٨].

ويأخذ علينا الأوربيون اننا نفتقر في دراستنا الى الوثائق ، وانهم يحتفظون بكنوز ثمينة منها ، وعلى هذا الأساس ارتبط ميلاد (العلم التاريخي) في الغرب بأسماء عدد من العلماء أمثال : دوشين **Duchesne** وباليوز **Baluze** ودون جان مابيون ومونت فوكون **Mont Faucon** الذين تميزوا بأعمالهم المهمة بإقبالهم على دراسة مجموعات الوثائق المحفوظة في الدوائر والبلديات وخزائن الوثائق التابعة للدولة ، وقد بذلوا الجهود في جمع ما بحيازة الأفراد من الوثائق لإيداعها في الارشيفات وجعلها في متناول المؤرخين والباحثين وقد عرفت هذه الحركة بـ (الهيوريسطيقا **Heuristika**)[٩]. واول من اهتم الهيوريسطيقا هم علماء عصر النهضة الإيطاليون من اجل إنقاذ ما

---

[٨] المصدر نفسه ص ٧٠ .

[٩] الهيوريسطيقا : معناها الانصراف الكلي والاندفاع بحماس نحو البحث والتنقيب عن المواد والاشياء ، ثم استعملت اللفظة في الادبيات التعليمية تدريب الطلاب على اساليب البحث والتحري وطرقهما ، وقد استعمل اول مرة عام ١٨٦٠ م . المصطلح ينحدر عن الاغريقية (هيوريسطيقوس Heuristikos) . ومعناها الرغبة في البحث والاكتشاف ، ثم استعمل كفرع من فروع المنطق الذي يتناول معالجة القضايا المكتشفة او المخترعة ودراستها بدقة وامعان .

واخيرا استعمل في عملية التدوين التاريخي بمعنى جمع الاصول ودراستها وفي مقدمتها الوثائق ، وهي اولى الخطوات المنطقية في منهج البحث التاريخي الذي يتناول جمع المصادر والاصول المتصلة بالبحث انطلاقا من القول المأثور ((لا تاريخ بدون وثائق)) . عن هذا المصطلح يراجع معجم اكسفورد للمبادئ التاريخية (بالانكليزية) .

بقي من مؤلفات ووثائق القدماء من الضياع ، فكان شانهم شان علماء العاديات (الآثار) في العصر الحاضر في الكشف عن آثار الحضارات والمدنيات في أنحاء الشرق ، فكانوا يكتشفون في مكتبات الأديرة والكنائس الكبرى والقلاع وقصور الأمراء المنعزلة في أوربا ، في طلب آثار المؤلفين العظام ، وقد أسفرت أعمالهم عن إنقاذ مجموعات كبيرة من المؤلفات القديمة والمخطوطات والوثائق الثمينة والذخائر التي لا تقدر بثمن . لقد قام بهذه الأعمال العظيمة عدد من الرهبان والمؤرخين في القرن السادس عشر للميلاد ، فكشفوا عن حقائق مذهلة بددت الكثير من الأوهام ، من ذلك ما كشف عنه الراهب (لورنزو فالا) من زيف الوثيقة المعروفة بـ (هبة قسطنطين) وعن تزوير الأوامر (السيودو ـ اسيدورية **Pseudo – Isodoric**) وغيرها[١٠].

ثالثا ـ مناهج البحث التاريخي والعلوم المساعدة

من العلوم ان كلا من المؤرخ والباحث والوثائقي ، عند القيام بإعداد البحوث والدراسات يتبع منهج البحث التاريخي ، ويقصد به المراحل والخطوات التي يسلكها لغرض الوصول الى الحقيقة التاريخية عن طريق فحص آثار الماضي وتحليل وثائقه ومخلفاته ، ثم يدونها ليقدمها الى الناس . والوثائق بأصنافها وأشكالها تعد من الأصول التاريخية المعتمدة ، وهذه تخضع لمنهج البحث التاريخي الذي يتألف من العناصر الآتية : ١. الثقافة الواسعة . ٢.اختيار الموضوع ،

---

[١٠] عن بحث لكاتب المقال بعنوان (الهيوريسطيقا والاوامر السيودوريه) لا يزال مخطوطا .

٣. جمع الأصول والمواد . ٤. نقد المادة أو الأصول سلبا او إيجابا ، ٥. ترتيب الحقائق ، ٦. مرحلة التأليف بين الحقائق وتركيبها وعرضها وبكلمة أخرى ، إنشاء الصيغة التاريخية [١١].

وهذه العناصر او المراحل التي يركن إليها المؤرخ والوثائقي لا يستغني عنها عند دراسة الوثائق ، وتجدر الإشارة هنا الى ان جمع الأصول ونسخها وترتيبها زمنيا ، ان كان يصح في المخطوطات والكتب ونسخها المتعددة ، فانه لا يصح في الوثائق ، لان القسم الأغلب في الوثائق يمثل نسخة واحدة فريدة وهنا تأتي أهمية مصدر الوثيقة والجهة التي صدرت عنها أو أنشأتها ، فان دراسة الوثائق تعتمد على جملة من العلوم تعرف بالعلوم المساعدة او الموصلة وسنأتي على ذكرها ووصفها بإيجاز .

العلوم المساعدة Auxiliary Science

وتعرف كذلك بالعلوم الموصلة وقد نشأت موافقة لتطور الدراسات التاريخية وظهور مجموعات الوثائق الكبرى إذ وضعت المقاييس والضوابط لدراستها دراسة علمية دقيقة وقد عززت ذلك المختبرات والأجهزة العلمية والفنية . واهم هذه العلوم :

١. علم قراءة الخطوط والكتابات القديمة (الباليوغرافيا) .
٢. علم الآثار القديمة (الاركيوجيا) .
٣. علم دراسة المسكوكات القديمة (النميات) .

---

[١١] عثمان (الدكتور حسن) : منهج البحث التاريخي ، ط ٢ ، القاهرة ــ ١٩٦٥ ص ١٣٢ ــ ١٣٣ ، ومجلة عالم الفكر (الكويتية) ، المجلد ــ ٥ ، العدد ــ ١ (١٩٧٤) ص ١٣٣ ــ ١٣٦ .

٤. علم الأختام والطمغات (السجيلوغرافيا) .
٥. علم الشعارات والرموز والرايات (الاعلام) (الهيرالدري) .
٦. فقه اللغة (الفيلولوجيا) .
٧. علم الأنساب والسلالات (الجينولوجيا) .
٨. الجغرافيا .
٩. علم الاقتصاد .
١٠. الأدب .

وسائل أخرى :

كما ينبغي لدارس التاريخ واستعمال الوثائق ان يتعلم الأساليب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذي يعينه ويعرف الأشياء الآتية :

١. نوع الحبر (المداد) المستعمل في الكتابة وتركيبه .
٢. نوع الأقلام او الخطوط التي كتبت بها الوثائق .
٣. نوع الورق المستعمل وخصائصه ، كالعلامات المائية والألياف التي تتوضح عند تعرض الورق الى الضوء .
٤. استخدام بعض الوسائل العلمية لفحص الخطوط والحبر والورق فبواسطة بعض العدسات المكبرة الخاصة وبواسطة المجهر (الميكروسكوب) يمكن تحديد ضغط القلم وميل الكتابة والتحليل الكيمياوي معرفة عمر الورق .
٥. الصفات الخاصة بالكاتب وطريقة كتابته لبعض الحروف ولون الحبر المستعمل . كما يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة الحمر والبنفسجية لإظهار الخطوط غير الواضحة او المطموسة او المزيفة عمدا .

كل هذه المعلومات الجوهرية تعد من الأساسيات التي تساعد المــــؤرخ ودارس الوثائق على التثبت من صحة الوثائق التـــي تحــت يديـــه او بطلانها[12].

١. الباليوغرافيا Palaeography

هو العلم الخاص بدراسة الخطوط والكتابات القديمة وفحصـــها وقراءتها . وتتجلى أهمية الخطوط القديمة وفك رموزها بكثرة المصادر المستعملة في تدوين الوثائق والآثار بمختلف الأقلام والخطوط التي تــم اكتشافها ، سواء القديم منها او المعاصر والحديـــث . ومعظــم هــذه الكتابات والخطوط مدونة باليد ــ أي كتابات يدوية ــ ، فالقديم منها مــا تم اكتشافه عن طريق التنقيبات الاثارية ودراســـة المعـــالم التاريخيـــة والعمرانية ، أو ما عثر عليه في المخطوطات والكتب مثــل الكتابـــات المسمارية Cuenifrom Writings في مواطن الآثـــار فـــي أقطـــار الشرق الأدنى ، العراق ، بلاد الشام ، إيران والأناضول ، والكتابــــات الهيروغليفية Hieroglyphs في مصر ، بلاد الشـــام والأنـــاضول ، والمسند في اليمن والخطوط الآرامية والسريانية في بلاد الشام والعراق والإغريقية في اليونان وتركيا ، واللاتينية في أوربا الغربية .

واما الخطوط العربية فهي كثيرة ومتنوعة منها الكوفي والنسخي والثلث والنستعليق والرقعة والقيرمة والطومار والخط الديواني . وكان القدمــاء يكتبون على الأحجار والطين والفخار والعظام والأخشاب والمعـــادن .

---

(١٢) منهج البحث التاريخي ، ص ٣٠ ــ ٣١ .

(١٣) تراجع : الالوسي (سالم عبود) ــ (١) علم تحقيق الوثائق المعـــروف بـــ (الدبلوماتيك) ط ٢ ، بغداد ــ ١٩٧٧ ــ ص ٥ ــ ٨ .

(٢) حاجة المؤرخ والوثائقي الى العلوم المساعدة . صنعاء ــ ٢٠٠٠ ص ٣ ــ ٩.

وبمرور الزمن اخذوا يتخلصون ، شيئا فشيئا من أعباء حمل هذه المواد الصلبة والثقيلة .

يضاف الى ذلك صعوبة حفظها ، فاستعاضوا منها بمواد اصغر حجما واخف وزنا ، وربما اكثر ديمومـــة ، كـــالجلود وورق الـــبردي والقرطاس والكاغد (الورق) وغيرها .

ومن المعلوم ان الطريقة التي كانت مستعملة وشائعة في كتابـــة الوثائق والمخطوطات هي الخط اليدوي ، كان ذلك قبل اختراع حروف الطباعة وآلاتها الحديثة وعلى الرغم مـــن شـــيوع المطـــابع ، بقيـــت للخطوط اليدوية قيمتها وأصالتها الفنية والتاريخية وهي ما تعرف اليـوم بالـــ (كاليغرافيا **Calligraphy**) ومعناها الكتابة الجميلة ، ومنها لفظة الـــ (كاليغرافست **Calligraphist**) أي الخطاط الذي يكتب بشكل فنـــي رائع وجميل [١٤].

وهناك علم آخر يعده جمهرة من العلماء المتخصصين بالخطوط فرعا من (الباليوغرافيا) وهو الـــ (ايبغرافيا **Epigraphy**)[١٥] الـذي يختص بالكتابات والنقوش والرموز والشعارات المحفورة والمنقوشـــــة على المعالم المعمارية كالمعابد والمدارس والمساجد والأضرحة والمآذن والقبور والنصب التذكارية وقواعد الأصنام والتماثيل . ويشمل كذلـــــك الكتابات والنقوش على المسكوكات والميداليات وعناوين الكتب القديمـــة كفاتحة الكتاب او الرسالة وغير ذلك ، والغرض منها ان يشاهدها الناس والتطلع اليها والاستمتاع بجمالها وتفاصيلها ودلالاتها .

---

[١٤] تراجع مادة (Calligraphy) في دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٧٣) .

[١٥] وكذلك مادة (Epigraphy) في المصدر السابق .

٢ ـ علم الآثار القديمة (الاركيولوجيا Archaeology)

يتناول هذا العلم دراسة ما خلفته العصور الماضية من الآثار الشاخصة والمطمورة كالمباني والعمارات مثل المعابد والقصور والقلاع والأسوار والقناطر والجسور والأدوات والمصنوعات والقطع الفنية والنقوش والكتابات والتماثيل والمنحوتات وما يتصل بفنون الرسم والزخرفة . ودراسة هذه المخلفات يساعد المؤرخ وعالم الآثار على معرفة المدنيات والحضارات القديمة التي لم تكن معروفة قبل شروع البعثات الاثارية بالتنقيب في خرائب المدن القديمة وأطلالها وفك رموز الكتابات القديمة في نهاية النصف الأول وبداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فأزاحت النقاب عن حضارات واقوام كانت مما يجهله المؤرخون والباحثون ، وقد أمكن تعرفها بفضل علم الآثار ، والآثار كما هو متفق عليه ، وثائق غير قابلة للتحريف تتضمن نصوصا أصيلة معاصرة للأحداث .

ان الأمثلة على كشف الحقائق والمعلومات الأثرية كثيرة لا يتسع المجال لسردها ، ولذلك نكتفي بإيراد مثل واحد هو ذكر العرب أول مرة في التاريخ كما جاء في مسلة الملك الآشوري شلمانصر الثالث (القرن ٩ ق . م) المعروفة بـ (مسلة الكرخ **Kurkh Stele**) .

وهذه الوثيقة الاثارية ، مسلة الكرخ **Kurkh** تعود الى الملك الآشوري العظيم شلما نصر الثالث ٨٥٩ ـ ٨٢٤ قبل الميلاد . وقد اكتشفت عام ١٨٦١ م في موقع نهر الكرخ قرب ديار بكر في الأناضول ، وهي منحوتة من الحجر بصورة هذا الملك مع صور الآلهة الآشورية : شمش واشور ، وعشتار وسن Sin .

كما نقشت على الوجهين بكتابات مسمارية تذكر أعمال الملك شلمانصر الثالث حتى السنة السادسة من حكمه ، يذكر فيها انتصاره في معركة (قرقار) التي وقعت عام ٨٥٣ قبل الميلاد على نهر العاصي في بلاد الشام ، وتذكر أخبار هذا الملك في المسلة اسم (العرب) أول مرة الذين حاربوا الجيش الآشوري بقيادة الزعيم العربي (جندبو **Gindibu**) او جندب وهو أول شخصية عربية يرد ذكرها في التاريخ في وثيقة اثارية تاريخية رسمية .

مقتطفات من الوثيقة

((في اليوم الرابع عشر من شهر أيار ، غادرت نينوى وعبرت دجلة متجها نحو مدن الملك (خيامو **Giammu**) على ضفاف نهر الباليخ ، فهربوا من باسي وجبروت قوتي ثم سرت وعبرت الفرات في موسم الفيضان وتسلمت الجزية من ملوك (هاتي **Hatti**) واتجهت نحو مدينة حلب ، ولكن سكانها استولى عليهم الرعب وخافوا من مواجهتي عن قرب ثم لاحقت الأعداء الى (قرقار) وحطمتها واحرقتها ، واستوليت على غنائم من الأعداء .... منها ١٠٠٠ جمل مع أسرى من جنود (جندب) ملك العرب .... الخ))[١٦].

٣ــ علم النميات Numismatics

يعنى بدراسة النقود والمسكوكات والانواط القديمة ، ودراسة هذا العلم تساعد المؤرخ والاثاري والوثائقي على معرفة وتشخيص النقود والمسكوكات المتداولة في مختلف العصور والعهود الزمنية .

---

[١٦] ينظر : سالم الالوسي ولمياء الكيلاني ، (أول العرب) منشورات نابو ــ لندن ــ ١٩٩٩ ص ٤٥ ــ ٩٠ .

والمسكوكات القديمة تحمل عادة صور الآلهة ورسومها التي كان الناس يعبدونها ، كما تحمل أسماء الملوك والخلفاء والسلاطين والأمراء والحكام وألقابهم وشعاراتهم واسماء مدن الضرب وتواريخ الضرب ، وعن طريق دراستها يمكن الكشف عن كثير من المعلومات والحقائق عن الأحوال السياسية والاقتصادية والتجارية ، ومعرفة الأسعار وطرق التعامل ، ومعرفة الكثير من الغوامض التاريخية ودراسة الأديان والمذاهب والآيات والشعارات والأساطير المنقوشة على المسكوكات .

والمسكوكات تعد سجلا للألقاب والنعوت ، تنفي او تثبت تبعية الولاة والحكام للخلافة ، ودراستها سدت الكثير من الثغرات في جداول الأسرات الحاكمة في المشرق وصححت الكثير من الأخطاء التاريخية . كما تفيد في تحقيق الكثير من الحوادث والوقائع السياسية المتعلقة بفتح البلاد عنوة او صلحا وذلك عن طريق ظهور اسم الخليفة على سكة إقليم من الأقاليم او بلد من البلدان ، فقد ظهر اسم (بغداد) أول مرة ، بدلا من (مدينة السلام) التي بقيت منقوشة على المسكوكات منذ عام ١٤٦هـ حتى سقوط الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ ، فقد ظهر اسم بغداد على مسكوكات (هولاكو خان) على الدينار المضروب سنة ٦٥٦ هـ[١٧].

٤ ــ علم الأختام (السجيلوغرافيا Sigillography)

ويعرف هذا العلم باسم آخر هو (سفراجيستيك **Sphragistics**) ويعنى بدراسة الأختام ــ مفردها خاتم او ختم بالإنكليزية **ring** او

---

[١٧] القيسي (الدكتور ناهض عبد الرزاق) : النقود في العراق ، منشورات بيت الحكمة ــ بغداد ــ ٢٠٠٢ م ، ص ٢٤٩ .

Seal ــ والطمغات او الدمغات وطبعاتها والتواقيع والإمضاءات ، ومعرفة مواردها ونوع الخطوط والرموز والنقوش والشعارات والرسوم والكتابات التي عليها . ودراسة الأختام تزود المؤرخ والوثائقي بمعلومات قيمة عن العصر الذي حررت فيه الوثيقة او مدتها التاريخية ، اذ ان الختم على الوثائق يعطيها قوة الحجة والأصالة والإثبات . يقول أحد الباحثين :[١٨] ((ان علم الأختام يعنى بدراسة الأختام من حيث هي (تحف أثرية مصورة **Monuments Figurees** ، مع ان الوثائقي **Archivist** يدرس الأختام من حيث هي أداة صلاحية **Instrument de Validation** فانه لا يستغنى أبدا عن الجانب الأثري . والأختام مثلها كمثل المسكوكات ، مصدر لضبط الأسماء والألقاب وشعارات أصحابها ومذاهبهم ، فقد كشف أحد الأختام عن مذهب السلطان (اولجايتو خدابنده)[١٩] على وثيقة تحمل عبارة (علي ولي الله)[٢٠].

وعند دراسة الأختام لا بد من دراسة أنواع الطغراء العثمانية وغيرها وما تولد من صفوف التوقيعات .

---

[١٨] هو الدكتور احمد السعيد سليمان في بحثه (وثائق التاريخ العربي وكيفية صيانتها ، مخطط لتكوين ارشيف اقليمي للدول العربية) المنشورة في : حوليات كلية اداب بجامعة عين شمس ، المجلد ــ ٩ (١٩٦٤) ص ١١٥ ــ ١٣٢ .

[١٩] ورد اسمه (اولجايتو محمد خربنده) في دليل خريطة بغداد المفصل (ص ٢٨١) .

[٢٠] عن مقال بقلم المستشرق الفرنسي (سيوفى H. Siouffi) بعنوان Notice Sur cachet du Sultan Uldjaytu Khodabandeh المنشور في المجلة الاسيوية J.A, 9e Seria 1 – x 111, P. 337 et Suive

٥ ــ علم الشعارات والشارات (الرنوك) Heraldry

هو العلم الذي يدرس الشعارات والعلامات والرموز والشارات التي تظهر على الأختام والأسلحة كالدروع والسيوف وعلى ملابس النبلاء والقادة والجنود وعلى الرايات والإعلام . ويطلق عليه في بعض المراجع العربية اسم (الارمة) كما جاء في المساعد للاب انستاس ماري الكرملي . وفي العصور العربية الإسلامية ، عرفها واستخدمها السلاجقة والايبويون ومن هذه الرموز والعلامات : السيف والدواة والكاس والنسر والهلال وذيل الحصان وزهرة الزنبق . ولهذه الشعارات والرموز أهميتها في الجيوش المتحاربة من اجل الا يقع الخلط والاضطراب في صفوفها . وقد اتخذت الدويلات والإمارات التي قامت بعد سقوط الدولة العباسية رموزا وعلامات مثل دولة الخروف الابيض (آق قوينلو) ، ودولة الخروف الأسود (قره قوينلو) .
ان معرفة المؤرخ والوثائقي لهذه الشعارات والرموز تجعله قادرا على اثبات صحة ما يقع تحت يديه من هذه الأسلحة والرايات والرموز وغيرها .

٦ ــ علم فقه اللغة (الفيلولوجيا Phylology)

من الأمور المسلم بها ان اللغات تأتي في مقدمة العلوم المساعدة فلا مناص من معرفة اللغة الخاصة بموضوع الدراسة والبحث ، والألفاظ والتعابير والمصطلحات المستعملة في العصر والزمن الذي يعود إليه البحث والدراسة ، فلكل عصر مصطلحاته وتعابيره وألفاظه ، ومهما كن لدينا من ترجمات ، قد لا تفي أبدا حاجات المؤرخ والوثائقي الذي يتوخى الفهم الكامل العميق للناحية او الموضوع الذي يريد ان

يتناوله ، وكلما ابتعد العصر ازدادت أهمية (فقه اللغة) ، اذ لا بد لفهم النصوص التاريخية والوثائقية من معرفة لغة وقواعد العصر المعين الذي دونت الوثائق فيه .

٧ ــ وثائق الأنساب (شجرات الأنساب)

وتعرف في المصادر والمراجع العربية والإسلامية بـ (شجرات الأنساب) وهي من الوثائق المهمة في التواريخ الإسلامية التي تدون أشجار النسب وقوائم أسماء الملوك والأمراء والسلاطين بالشرق والغرب على حد سواء . وعلى الرغم من أهميتها لم تنج من أعمال التزييف والتزوير وفي التاريخ الإسلامي امثلة وشواهد على ذلك .

ففي ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هجرية كتب الخليفة العباسي أبو العباس احمد القادر بالله ، محضرا بين فيه زيف نسب الفاطميين ، وقرئت نسخ المحضر ببغداد ، وأخذت عليها خطوط توقيعات القضاة والائمة والأشراف [٢١].

وكان الخلفاء العباسيون يهتمون اهتماما كبيرا في الأنساب والاحساب ، فقد اثر عن الخليفة أبي جعفر المنصور ، انه تولى بنفسه الإجابة عن كتاب محمد النفس الزكية حين هم كاتبه ــ أي كاتب المنصور ــ أن يجيبه ، فقال له المنصور : ((لا . بل أنا أجيبه إذا تقارعنا على الاحساب فدعني وإياه))[٢٢].

---

[٢١] النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ وما بعدها .

[٢٢] حسن (الدكتور حسن إبراهيم) : تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

وقبل نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) حاول نظـام الملك ، وكان وزيرا للسلطان حسين بأي قرا ، في مدينة هراة ان يلحق نفسه بأولاد النبي محمد (ﷺ) وامر فأعدت له شجرة نسب ، ثم أمـر فصدق عليها العلماء وطلب الى العالم الفقيه عبد الرحمن الجـامي ان يصدق عليها فاعتذر بلباقة وذكاء وارسل اليـه أبيـات مـن الشـعر بالفارسية منها :

انراكه بود نور نبي در بشره

حاجت نه بود بأطول وعرض شجرة

وترجمتها : ما حاجة من كان نور النبي باديا على وجهه الى شـجرة طويلة عريضة تثبت نسبه .

وكان بعض أتراك الشرق من يلحق نسبه من ناحيـة بـالنبي محمد (ﷺ) وبـ (اغوز خان) من ناحية أخرى . وقد رأى المـؤرخ التركي الأستاذ زكي وليدي وثيقة تخلط بين هذين النسبين فـي مكتبـة خالص أفندي باسطنبول . ومنذ وقت قريب حاول ملك مصر السـابق فاروق الأول ان يلحق نسبه بالشجرة الهاشمية [٢٣].

٨ ـ **علم الجغرافية** Geography

من العلوم المساعدة التي لا يستغني عنها الباحث في التـاريخ والوثائق ذلك ان الارتباط بين الوثائق الجغرافية كالمدونات والخرائط ، وبين التاريخ ارتباط عضوي وثيق . فـالأرض ، كمـا يقـال ، هـي

---

[٢٣] عن مقال كتبه الدكتور احمد سعيد سليمان بعنوان ((وثائق التـاريخ العربـي وكيفية صيانته)) نشره في : حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ـ المجلد ـ ٩ (١٩٦٤) ص : ١١٣ ـ ١٣٢ .

المسرح الذي وقعت فوقه الأحداث والوقائع ، والأهمية تبرز في اثر الطبيعة الجغرافية والبيئة في تاريخ الأقوام والشعوب وقيام الحضارات .

رابعا ــ أمثلة وشواهد على تزوير الوثائق عبر العصور

الأمثلة كثيرة لا يتسع مجال البحث للاستشهاد بها ، لذا أثرنا أيراد نماذج منها لبيان أهمية الوثائق من ناحية قوتها الحجية أولا ، وبيان الأساليب والوسائل التي استعملت في الكشف عن تزويرها مما فتح الأبواب على مصاريعها لنشوء علم تحقيق الوثائق (الدبلوماتيك) وهنا نأتي ببعض الأمثلة :

١. اليهود يزورون وثيقة للنبي محمد (ﷺ) [٢٤]

تزوير هذه الوثيقة يعود الى زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وعلى وجه التحديد الى عام (٤٤٧ هـ) = ١٠٥٥ ــ ١٠٥٦ م يوم حمل اليهود الى رئيس الرؤساء ابي القاسم علي بن الحسين بن المسلمة وثيقة بخط الإمام علي (عليه السلام) وشهادة معاوية بن ابي سفيان وشهادة سعد بن معاذ ، يطلبون إسقاط الجزية عن أهل خيبر ، فاستدعى الوزير المؤرخ الشهير أبا بكر الخطيب البغدادي الذي درس الوثيقة ببراعة ودقة واثبت بالبرهان القاطع انها ، مزورة لان معاوية لم يكن اسلم يوم خيبر ، وكانت يوم (٧ هـ) ، واسلام معاوية كان يوم الفتح (سنة ٨ هـ) . اما سعد بن معاذ فقد مات يوم الخندق (٥ للهجرة) .

---

[٢٤] عن : السخاوي (شمس الدين محمد) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

٢. اليهود يشككون بوثيقة البراق :

البراق هو الموضع الذي يسميه اليهود (حـــائط المبكـــى) ، وتعود هذه الوثيقة الى عهد الإدارة المصرية في بلاد الشام عـلم ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) ، ادعى فيها اليهود ان هذه الإدارة ســمحت لليــهود بتبليط البراق وتعمير القدس ، بينما تشير الوثيقة وهـــي إرادة شــريفة خديوية من محمد علي باشا مؤرخه في ٢٤ ربيع الأول ســـنة ١٢٥٦ هـ = ٢٧ / ٥ / ١٨٤٠ تمنع اليهود من تبليط البراق مع إعطائهم حق الزيارة على الوجه القديم ، أي كالسابق وقد ادعى اليهود انـــها وثيقــة مزورة ومزيفة . وقد أثارت هذه القضية عاصفة كبيرة فـــي الأوســاط الدينية والسياسية ، وحسما للموضوع أحيلت الوثيقة الى العلامة المؤرخ الوثائقي الدكتور أسد رستم (١٨٩٧ ــ ١٩٦٥ م) الأستاذ بالجامعــــة الأميركية ببيروت لدراستها وفحصها ، وبعد إجراء الدراسة الظاهريــة والفحص المختبري ومقارنتها بالوثائق المعاصرة لها اثبت انها وثيقـــة صحيحة وأصيلة وبذلك ابطل ادعاء اليهود بأنها وثيقة مزورة [٢٥].

٣ ــ وثيقة (هبة قسطنطين) المزورة Donitio Constantini

هذه الوثيقة تعود الى القرن (١٥ للميلاد) ، وكانت تعد مـــن الوثائق المقدسة لان البابوات كانوا يدعون ان الإمبراطور قســـطنطين الكبير (٢٨٨ ــ ٣٣٧ م) ، بعد شفائه من مرضه وهب أراضي إيطاليا للكرسي البابوي على اعتبار انها ارث للرسول بطرس أخذه عن الســيد المسيح مباشرة . وقد درسها الراهب (لورنزو فالا **Lorenzo Valla**)

---

[٢٥] تراجع التفصيلات في كتاب (منهج البحث التاريخي) للدكتور حسن عثمــان ، ص ٨٦ ــ ٨٨ نقلا عن كتاب (قضية الدزدار وقضية البراق للدكتور اسد رســتم ــ بيروت ــ ١٩٣١ .

(١٤٠٦ ــ ١٤٥٧م) دراسة علمية دقيقة فاثبت انها مزيفة ومـزورة ، وان رجال الكنيسة زيفوها ووضعوا عليها ختم الإمبراطور قسطنطين ، وان المسيح لم يمنح الحواري (بطرس) أي شـــيء مــن الأراضــي الإيطالية او في غيرها . وقد أدى نجاح هذا الراهب الجـــريء الــذي عرض نفسه الخطر ، الى تمهيد الطريق لدراسة الوثــائق والســجلات والمخطوطات القديمة ، وبدا الاهتمام بالأصول التاريخيـــة والخطــوط القديمة والأختام[٢٦]. كمـــا كشــف (فــالا) عــن زيــف الاوامــر (السيودو ــ اسيدورية) **Pseudo – Isodoric** ونقد الترجمة اللاتينيــة للعهد الجديد (الانجيل) المعروفة بـــ (الفلجات **Vulgate**) واثبـــت انها مزورة .

٤ ــ خريطة ارض الكروم

قصة هذه الخريطة تعود الى الستينات من القـــرن العشــرين ، مساحتها (١٦ × ١١ بوصة) رسمت بالحبر البني علـــى روق قديــم يعود تاريخه الى القرن (١٥ م) وتظهر في وسطها جزيرتا (غرينلاند) و (ايسلاندا) ، وتظهر شـــرقيها الجزائـــر البريطانيـــة والشـــواطئ الاسكندنافية . اشترتها جامعة (ييل **Yale**) وأخضعوها للدراسة وقالوا ان (الفايكنغ **Vikings**) وهم أجداد سكان الدنمارك والسويد والـنرويج هم الذين اكتشفوا أمريكا ، وانهم سبقوا كريستوفر كولمبوس اليها بنحــو

---

[٢٦] اعد كاتب البحث دراسة مفصلة عن هبة قسطنطين لا تزل مخطوطة ، وكذلـك عن الاوامر (السيودو ــ اسيدورية) .

[٢٧] الالوسي (سالم عبود) : علم تحقيق الوثائق (الدبلوماتيك) ص ٨ ــ ٩ نقــلا عن مجلة العربي الكويتية . العدد ــ ٢٠٣ لسنة ١٩٧٥ ص ١١١ ــ ١١٢ .

(٥٠٠ سنة) ، وبدت تلك الخريطة وكأنـــها تقيــم الدليــل علـــى ان (الفايكنغ) هم أصحاب الفضل في اكتشاف العالم الجديد ــ أمريكا .

وكان يطلق على الخريطة اســـم (ارض الكــروم ــ فنلانــد Vinland) وقد عكف فريق من الخبراء الإنكليز والأمريكييـــن علـــى فحصها وإجراء التجارب المختبرية عليها طول ٧ ــ ٨ سنوات حتـــى تبين لهم ولجامعة (ييل) انها خريطة صحيحة وأصلية فنشرت عـــام ١٩٦٥ يوم ذكرى اكتشاف كولمبوس لامريكا . ثم جاء عام ١٩٧٤ واذا بالعلم والخبرة والوثائقية تقيمان الدليل القاطع على ان خريطة الكـــروم مزيفة ، فقد دلت التجارب والتحليلات العلمية والمختبريـــة ، علـــى ان الحبر الذي رسمت به الخريطة يحتوي مادة (ثاني اوكسيد التيتـــانيوم Titanium Dioxide) ، وهي مادة توصل الى صنعها العلمـــاء عـــام ١٩٢٠ فالخريطة إذن ليست قديمة ، وان الذي رسمها شخص مـــزور بارع وعلى علم بشؤون التاريخ واصالة الوثائق .

المصادر والمراجع

أ. الكتــب :

١.الالوسي (سالم عبود) ومالك (محمد محجوب) :
الأرشيف : تاريخه ــ أصنافه ــ أدارته . بغداد ــ ١٩٧٩ .

٢.الالوسي (سالم عبود) والكيلاني (الدكتورة لمياء) :
أول العرب ــ منشورات نابو NABU لندن ــ ١٩٩٩ .

٣.الالوسي (سالم عبود) :
حاجة المؤرخ والوثائقي الى العلوم المساعدة . صنعاء ــ ٢٠٠٠م .

٤.الالوسي (سالم عبود) :
علم تحقيق الوثائق . المعروف بالدبلوماتيك من منشــــورات المجلــس الدولي للوثائق (الفرع العربي) ، بغداد ــ ١٩٧٧ .

٥.بالمر (الدكتور روبرت) :
تاريخ العالم الحديث . الجزء الأول ــ ترجمة الدكتور محمود حســـين الأمين ــ بغداد ــ ١٩٦٤
الجزء الثاني ــ ترجمة الدكتور حسن علي الذنون ــ بغداد ــ ١٩٦٤ .

٦.جواد (الدكتور مصطفى) ، سوسة (الدكتور احمد) :
دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديما وحديثــا . بغــداد ــ ١٩٥٨ .

٧.حسن (الدكتور حسن إبراهيم) :
تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي . ط ٧ ــ القاهرة ــ ١٩٦٤ .

٨.رستم (الدكتور أسد) :
مصطلح التاريخ . بيروت ــ ١٩٣٩ .
٩.السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) :
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٣٤٩ هـ .
١٠. عثمان (الدكتور حسن) :
منهج البحث التاريخي . ط ٢ ــ القاهرة ــ ١٩٦٥ .
١١. القيسي (الدكتور ناهض عبد الرزاق) :
النقود في العراق . منشورات بيت الحكمة ــ بغداد ــ ٢٠٠٢ م .
١٢. هونشو Hearnshaw (F.J.C.) :
علم التاريخ ــ ترجمه عن الانكليزية وعلق حواشيه واضاف له فصل التاريخ عند العرب ــ القاهرة ــ ١٩٤٤ .
١٣. دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britannica 1973
١٤. معجم اكسفورد المختصر : The Shorter Oxford English Dictionary on Historical Principles – Oxford – 1978

ب ــ المجلات والدوريات :
١. حوليات كلية الآداب ــ جامعة عين شمس . المجلد ــ ١٩ (١٩٦٤) .
٢.مجلة عالم الفكر (الكويت) ــ المجلد ــ ٥ ــ العدد ١ (١٩٧٤)
٣.مجلة العربي (الكويت) ــ العدد ٢٠٣ لسنة ١٩٧٥ .
٤.مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية (الرياض ــ السعودية) العدد ــ ٦ (١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م) .

جـ المخطوطات (بحوث غير منشورة) :

الالوسي (سالم عبود) :

١. الراهب لورنزو فالا يكشف عن تزوير وثيقة (هبة قسطنطين) .

٢. الأوامر البابوية الكاذبة (السيودو – اسيدورية) .

٣. نقد الترجمة اللاتينية للعهد الجديد (الإنجيل) كشف عن تزويرها الراهب لورنزو فالا .

٤. الهيوريسطقيا – البحث عن الوثائق .

العلاقات العراقية ــ التركية

النشأة ودور النفط ١٩٢١- ١٩٣٢

أ.د. نوري عبد الحميد العاني
كلية التربية / ابن رشد
جامعة بغـــداد

د. أسامة عبد الرحمن الدوري
أستاذ مساعد / كلية الآداب
جامعة بغـــداد

الملخص :

فرضت نتائج الحرب العالمية الاولى واقعاً دولياً جديداً في الشرق الاوسط إذ ظهرت، مثلاً، المملكة العراقية تحت الانتداب البريطاني، وانبثقت الجمهورية التركية عام ١٩٢٣.

وخلال المدة بين ١٩٢١-١٩٢٦ اتخذت الحكومة التركية موقفاً عدائياً سافراً من العراق، دعاها أحياناً الى استخدام القوة المسلحة مثلما شهدت تلك المرحلة النزاع بشأن ولاية الموصل. ولكن بعد أن حلت قضية الموصل وتوقيع المعاهدة الثلاثية بين العراق وتركيا وبريطانيا عام ١٩٢٦، بدأت مرحلة من العلاقات بين البلدين اتسمت بالاعتدال وتم تبادل التمثيل الدبلوماسي وعقد مجموعة من الاتفاقيات.

وفي الوقت نفسه لا بد من الاشارة الى أن المطالب التركية بنفط العراق ومحاولاته الحصول على مورد مالي منه كانت تقف وراء تعكير صفـــو العلاقات بين البلدين، الى أن حصلوا ولسنوات عديدة على ما نسبتـــه ١٠% من موارد العراق النفطية حتى تم بيعها إلى الحكومة العراقية.

ومن المهم أن ننوه الى الدور الكبير الذي أداه الملك فيصل الاول ومساعيه الحثيثة وإيمانه بأهمية بناء علاقات حسن الجوار والصداقة مع الجارة تركيا.

تمهيـد :

أدت تركيا في تاريخها الحديث دور القاعدة المتقدمة للغرب في مواجهة الاتحاد السوفيتي والمنفذ لكثير من السياسات الغربية في الشرق الاوسط ومن المؤمل أن تلعب دوراً أكبر في ظل النظام الدولي الجديد الذي تقوده الولايات المتحدة الامريكية والذي يهدف الى الانفراد بالهيمنة على العالم والسيطرة على إمدادات النفط والثروات الاقتصادية للدول الاخرى. واتضح ذلك من خلال تقديم التسهيلات الكبيرة للقوات العسكرية الامريكية سواء لضرب العراق عام ١٩٩١ أو ما سمي بمناطق الحظر في شمالي العراق وجنوبه حتى بدء العمليات العسكرية في ١٩ آذار (مارس) ٢٠٠٣.

ان المتأمل لموقف تركيا من السياسة الامريكية تجاه العراق، يجد دليلاً قوياً على دور تركيا كقوة يعتمد عليها الغرب، وقد تمكنت تركيا من توظيف هذا الدور لخدمة مصالحها وتطلعاتها، في أن تلعب دورها في الترتيبات الجديدة في المنطقة وتنفيذ التزاماتها مع الغرب. ومع ان هذا الموقف ليس بجديد على العرب لكنه يشير الى احتمال حدوث توجه تركي جديد في علاقتها معهم، يضع في المقام الاول القضايا الاقتصادية وخاصة الموارد المائية والنفط .

ان تحكم تركيا في منابع نهري دجلة والفرات وهيمنتها على قسم كبير من حوضيهما ووفرة المياه داخل أراضيها مع شحتها في الوطن العربي، يدفع تركيا بهذا الاتجاه خاصة وانها تعاني نقصاً في رأس المال لتمويل التنمية والتوسع في استغلال الموارد المائية التي قد تستخدمها وسيلة للتدخل في المنطقة. فقد طرحت الحكومات والاحزاب

التركية العديد من المشاريع مثل أنابيب السلام ومبادلة النفط بالماء وكلها تصب في سياق التوجه الجديد.

والواقع ان هذه التوجهات ليست جديدة بل ان جذورها تمتد للسنوات التي تلت الحرب العالمية الاولى وقيام الجمهورية التركية، التي استغلت حاجتها للمال لتوطيد النظام الجديد وتحقيق الاعمار الاقتصادي وتحديث تركيا. فأخذت تحدد موقفها من العراق في ضوء المنافع الاقتصادية مستغلة في ذلك ظروف وملابسات منح إمتياز نفط الموصل سنة ١٩٢٥، ومن المحتمل جداً ان تركيا استغلت النظام الدولي الجديد أو دفعت من هذا الطرف الدولي أو ذاك للضغط على العراق من خلال قضية الموارد النفطية للحصول على منافع خاصة أو لتنفيذ سياسات دولية مخطط لها.

ولما لم يكن للمياه دور فاعل في نشأة العلاقات العراقية التركية ولم تشكل باستثناء مشاكل الفيضان ــ مشكلة مهمة طوال سنوات الحكم الملكي في العراق، فان هذا البحث سيستعرض مواقف تركيا من العراق، ودور النفط في نشأة العلاقة بين البلدين انطلاقاً من ان معرفة الماضي تفيد في فهم الحاضر وتسترشد المستقبل.

ولا يجب إغفال الاشارة هنا الى ان العلاقات العراقية التركية قد مرت بمرحلتين متميزتين. الاولى تمتد من نشأة الدولة العراقية سنة ١٩٢١ وحتى سنة ١٩٢٦ حيث لم يكن هناك اتصال مباشر بين الحكومتين، وكانت بريطانيا هي المسيـــرة للشؤون الخارجيـــة للعراق. وقد اتخذت تركيا خلال تلك المدة موقفاً عدائياً سافراً دعاها في بعض الاحيان لاستخدام القوة العسكرية لتحقيق مكاسب اقليمية. وبعد ان تم حسم مشكلة الموصل تحت مظلة عصبة الامم، وانتهت مشاكل الحدود

وتم توقيع المعاهدة الثلاثية بين العراق وتركيا وبريطانيا سنة ١٩٢٦، واتخذت تركيا موقفاً من العراق يتسم بالاعتدال، وتم تبادل التمثيل الدبلوماسي، وعقدت اتفاقيات بين البلدين، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت تركيا تطمح للحصول على منافع اقتصادية وان تكون لها حصة من نفط الموصل، ولهذا لم تستقر العلاقة بين البلدين على أسس الصداقة وحسن الجوار إلا بعد أن بدأت تركيا تتسلم (الرشوة) التي وعدتها بها بريطانيا وحصولها على مورد مالي من نفط العراق مقداره ١٠ بالمئة من حصة العراق من نفطه وذلك ابتداء من سنة ١٩٣١، ثم تلى ذلك دخول العراق عصبة الامم وأصبح دولة تامة السيادة ، وأخذت العلاقات العراقية التركية تتوطد يوماً بعد يوم حتى توجت بمعاهدة بغداد سنة ١٩٥٥.

١ــ مواقف تركيا من العراق قبل سنة ١٩٢٦ ودور النفط فيها

كانت الحكومة العثمانية قد أصدرت أوامرها بين ١٨٨٩ و١٩٠٣ بضم أراضي النفط في العراق الى أملاك السلطان الخاصة، وحصر امتيازات البحث عن النفط واستغلاله في ولايتي بغداد والموصل بالخزينة الخاصة. بعد ذلك جرت مساومات بين شركات النفط وأطراف دولية أسفرت عن تأسيس شركة النفط التركية سنة ١٩١١، والتي حصلت على وعد من الحكومة العثمانية قبيل الحرب العالمية الاولى بتأجيرها منافع النفط في الولايتين المذكورتين، على أن يتم تحديد شروط الامتياز باتفاق خاص يعقد بين الطرفين، لكن نشوب الحرب حال دون الاتفاق على شروط الامتياز.

وبعد الحرب جرت مفاوضات بين البريطانيين والفرنسيين حول نفط العراق وكانت بريطانيا قد وضعت يدها على حصص الالمان في

الشركة، وتم توقيع اتفاقية سان ريمو في نيسان (أبريل) ١٩٢٠ التي أحلت الفرنسيين محل الالمان وأعطوا ٢٥ بالمئة من نفط العراق[١]. وفي آب من العام نفسه وقع الحلفاء مع تركيا معاهدة سيفر التي أعطيت الصفة القانونية لاتفاقية سان ريمو ونظام الانتداب وتم وضع العراق تحت الانتداب البريطاني وتضمنت المعاهدة أيضاً تشكيل لجنة لتعيين الحدود بين العراق وتركيا لكن الاتراك رفضوا إبرام المعاهدة[٢].

وبعد أن أدركت تركيا أهمية نفط الموصل، أخذت تتشبث بضم الولاية إليها وراحت تساوم شركات النفط والاطراف الدولية لمساعدتها في تحقيق ذلك مقابل منحها امتياز النفط. وكانت الولايات المتحدة الامريكية قد اعترضت بشدة على اتفاقية سان ريمو التي استثنتها من نفط العراق، وتبادلت الاتهامات مع بريطانيا في وقت بلغت فيه ثورة العراق عام ١٩٢٠ أوجها وهو الشيء الذي جعل الاوساط في بريطانيا التي روعتها أخبار الثورة ، يشكون في احتمال ان تكون شركة ستاندرد (نيوجرسي) الامريكية ومن خلفها حكومتها، قد قدمت دعمها للثوار العراقيين، من أجل الحصول على امتياز النفط. ولما فشلت في تحقيق ذلك أخذت تحرض الاتراك على مهاجمة العراق بقصد الحصول على الامتياز منهم عندما يستعيدون الموصل.

لم يكن الامريكان وحدهم الذين حرضوا الاتراك وحثوهم على شن هجمات واسعة النطاق على حدود العراق الشمالية بين ١٩٢٠و١٩٢١، بل ان الفرنسيين حلفاء البريطانيين الرئيسيين في الحرب العالمية الاولى والمساهمين الاساسيين في اتفاقية سايكس بيكو مع البريطانيين، اتصلوا بالاتراك عارضين عليهم إمدادهم بالسلاح دعماً لهم في حربهم مع اليونان، مقابل بعض الامتيازات الاقتصادية ومنها

امتياز نفط الموصل، كما كشفتها وثيقة بريطانية في ١٣/١٢/١٩٢١[٣]، مثلما أوضحت تلك الحقيقة وأكدتها رسالة من الملك فيصل الاول الى بيرسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق والمؤرخة في ١٠/١١/١٩٢١، يوم كانت قضية الموصل تحتل مكان الصدارة، إذ أشار الملك الى ان الفرنسيين اقترحوا على الاتراك صراحة احتلال ولاية الموصل أملاً في أن يحصلوا على الامتياز النفطي منهم[٤]، وقد نجح الاتراك في إغراء بعض الزعماء الاكراد في منطقة راوندوز للتعاون معهم في إختراق حدود العراق، لكنهم صدوا من القوة الجوية البريطانية ورجال الشرطة العراقية وبعض رجال القبائل. وفي سنة ١٩٢٢ تحركت قطعات عسكرية تركية على الحدود وقامت بأعمال عدائية في المنطقة[٥]، رافقتها حملة دعائية تركية في منطقة الموصل بات فيها الوضع في شمالي العراق ينذر بالخطر حتى ان الملك فيصل توجه بنفسه الى المنطقة لتهدئة الموقف وشكر الاهالي هناك على إسهامهم في محاربة الدعاية التركية[٦].

وفي المحافل الدولية تمسك الاتراك بولاية الموصل ونفطها، ووجدت بريطانيا في أثناء انعقاد مؤتمر لوزان ١٩٢٢-١٩٢٣ لبحث المشاكل اليونانية التركية وعقد الصلح مع تركيا ان من المناسب اعطاء الاتراك وعد بالاشتراك في نفط الموصل من أجل تخليها عن المطالبة بالولاية[٧]. واستغل الاتراك الاهتمام الذي أبدته الدول الكبرى بالنفط في أثناء المؤتمر لكسب هذه الدول الى جانبها فصرح عصمت باشا رئيس الوفد التركي الى المؤتمر ان وجهة نظر حكومته في موضوع النفط هي أن لا يحرم العالم من نفط الموصل بعد عودتها الى تركيا وأضاف بلهجة الراشي "ان تركيا وعدت بمنح جميع التسهيلات الممكنة لكي

يستفيد العالم من هذا النفط بطريقة مشروعة"[٨]. وأكد الاتراك للمؤرخ البريطاني آرنولد توينبي الذي كان يزور تركيا أثناء المؤتمر، ان تركيا ستتخلى عن امتيازات النفط للبريطانيين اذا تركوا الموصل لها. وصرح اللورد كرزن رئيس الوفد البريطاني الى المؤتمر ان تركيا أرسلت ثلاثة من أعضاء الوفد التركي الى لندن ليعرضوا امتيازاً للنفط في ولاية الموصل التي لم تكن تركية لكي يتصرفوا بها على بعض طالبي الامتيازات من البريطانيين، لكنهم رجعوا سريعاً حين وجدوا انه لن يتم أمر حقيقي من وراء ظهره[٩].

ومما لا شك فيه ان العراقيين كانوا قلقين جداً من تحركات الاتراك وضغوطهم هذه ويمكن ملاحظة ذلك من مظاهر الفرح والابتهاج التي أظهروها عندما وقعت تركيا على معاهدة لوزان (الصلح النهائي)[١٠]، في تموز (يوليو) ١٩٢٣، والتي نصت على تعيين خط الحدود بين العراق وتركيا بترتيب ودي، وتنازل تركيا عن جميع حقوقها في الاراضي الواقعة خارج حدودها التي حددتها المعاهدة.

واذا كان الموقف التركي من العراق اتسم بطابع غير ودي منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة، فانه لا بد من الاشارة الى ان العامل الاقتصادي وحاجة الاتراك الماسة للموارد المالية لبناء تركية الحديثة وقفت هي الاخرى على رأس العوامل والاسباب لتفسير الموقف التركي المعادي للعراق والذي أخذ أشكالاً متعددة سواء الاعمال العسكرية او الدعائية التي مارستها على الحدود الشمالية، كما أشرنا، إضافة الى التدخل في شؤون العراق الداخلية، وفضلاً عن كل ذلك استغلت الصراعات الدولية حول نفط الموصل لتطرق أبواب المحافل الدولية أملاً في تحقيق غايتها الاقتصادية.

والملافت للنظر ان الاتراك حينما وجدوا البريطانيين لا يعيرون عروضهم المغرية آذاناً صاغية اتجهوا نحو الولايات المتحدة الامريكية التي كانت في مواجهة عنيفة مع البريطانيين من أجل الحصول على امتياز نفط الموصل لشركاتها. وهكذا تلاقت المصالح الامريكية مع الرغبات التركية، وما يؤكد ذلك ما نشرته جريدة نيويورك تايمز في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٤ "ان الاتراك يعتقدون ان حقول نفط الموصل تبشر بايرادات لا غنى عنها لاعادة تنظيم الحياة القومية وقد يجلب النفط عطف الولايات المتحدة وربما حمايتها"[١١].

وكانت الحكومة الامريكية حانقة على بريطانيا لاستثنائها من قسمة النفط في سان ريمو. ومن أجل كسب تأييدها وعدتها الحكومة التركية بحصة من نفط الموصل أكبر من أية حصة قد تحصل عليها دولة أخرى من هذا النفط مقابل دعمها لها في الحصول على الولاية. وبغية تطمين الامريكيين صادق المجلس الوطني التركي في العاشر من نيسان ١٩٢٣ على امتياز جستر (الامريكي) الممنوح له من الحكومة العثمانية سنة ١٩٠٩ والذي تضمن في حينها بناء سكك حديد عبر الاناضول الى الموصل ثم الى كركوك فالسليمانية، مع حق البحث عن المعادن لمسافة ٢٠ كيلومتراً على جانبي السكة، وحق استثمار نفط الموصل[١٢]، لكن الامتياز لم يحظ بمصادقة البرلمان العثماني في حينه بسبب معارضة البريطانيين والالمان ثم نشوب الحرب العالمية الاولى.

وأسهمت الشركات الاحتكارية بدورها في تصعيد موقف تركيا من العراق ودفعها للتشبث بالموصل وبنفطها. إذ ان هذه الشركات تقدمت لمفاوضة الاتراك حول الامتياز وكأن الموصل ولاية تركية. ومن هذه الشركات مجموعة لزلي اركهارت مؤسس شركة الاستثمار

الاقتصادي في تركيا، وتعرف أيضاً بشركة الاستثمار التركية: والجنرال طاونزند والكونت دي فورسفيل مؤسس شركة الشرق الادنى الانكلوفرنسية(١٤)، ومجموعة أخرى من عدة شركات تطالب بإدعاءات ورثة السلطان عبد الحميد الذين يطالبون بأملاكه الخاصة ومنها أراضي النفط في العراق، والتي كان قد وضع يده عليها، كما ذكرنا، وظلت مسجلة في دوائر الطابو(١٥) بإسم الخزينة الخاصة.

لكن الدفع الاكبر في هذا الاتجاه جاء من الاحتكارات الامريكية، فلقد قيل ان القائد جون بينت رئيس الاستخبارات البريطانية السابق في القسطنطينية الذي كان يعمل بالنيابة عن شركة ستاندرد (نيوجرسي) قد اتصل بورثة السلطان عبد الحميد وان هؤلاء الورثة اختاروه ليحصل على مطالبهم في الاراضي النفطية(١٦). وان وكيل الورثة المحامي صموئيل انترماير ذهب الى لوزان للمطالبة بحقوقهم وأشيع أيضاً ان شركة ستاندرد عرضت شراء تلك الحقوق(١٧).

وفضلاً عن الشركات الامريكية اتصل اللورد انفرفورث مؤسس شركة اندروير التي تملك مصالح اقتصادية في العراق ومدير شركة النفط الانكليزية ــ المكسيكية التي تكونت سنة ١٩٢٤ لاستغلال نفط الموصل بالورثة لاستغلال مطالبهم وقد أجرى فرنسيس وليم ريكيث الذي كان يمثل الشركة اتصالات مع المسؤولين الاتراك لكي يحصل على الامتياز منهم بعد حصولهم على الولاية. والى جانب هذه الشركات كانت هناك مجموعة بريطانية أخرى يرأسها الكابتن لاركنك تسعى للغرض نفسه.

وقد أسهمت هذه الشركات بدفع تركيا الى التعنت أكثر تجاه العراق باعتبار ان ورثة السلطان هم مواطنون أتراك. وكانت الحكومة التركية تفضل منح الامتياز الى شركة بريطانية لأن ذلك سيمكنها من الوصول الى تسوية مع الحكومة البريطانية التي كانت تسيطر على العراق لصالحها. ويبدو أن اللورد انفرفورت لم يكتف بالاتصال بالحكومة التركية بل سعى خلال ١٩٢٤و١٩٢٥ لاقناع الحكومة البريطانية بالتخلي عن الموصل للاتراك مقابل الحصول على امتياز منهم وعرض نصف النفط الذي ستنتجه شركته من الموصل للاسطول البريطاني بسعر الكلفة مقابل دعم بريطانيا له[١٨].

وأدعت شركة بريطانية أخرى تدعى باسم شركة عبد الحميد في آذار ١٩٢٥ انها تمثل ورثة السلطان وتعمل على إستعادة أملاكهم وهددت الحكومة العراقية بأنها ستعرض الموضوع على التحكيم ما لم تعترف بهذه الحقوق[١٩].

أما الحكومة العراقية التي كانت قلقة حول الموصل، وغير متأكدة من نوايا البريطانيين، فقد استغلت فرصة توقيع الاتراك لمعاهدة لوزان مناسبة للتقرب إليها وإقامة اتصالات مباشرة بينهما. إذ ان المعاهدة نصت على ان تعيين خط الحدود بين العراق وتركيا يتم بترتيب ودي بين بريطانيا وتركيا خلال تسعة أشهر وإذا لم يتم التوصل الى إتفاق خلال تلك المدة، يرفع النزاع الى عصبة الامم وقد بذل العراق محاولات لاقناع الحكومة التركية بالموافقة على إرسال ممثل عنه إلى لجنة الحدود المقترحة باعتبار ان أمر تحديد الحدود يخص البلدين وحدهما[٢٠] لكن هذه الجهود بائت بالفشل.

ولما فشلت الجهود المبذولة لتعيين الحدود حسب معاهدة لوزان تم إحالة الموضوع إلى عصبة الامم المتحدة التي اتخذت قراراً بإرسال لجنة لتقصي الحقائق في المنطقة، وبعد تشكيل اللجنة عرضت الحكومة التركية على الحكومتين الفرنسية والامريكية تأييد امتياز شركة النفط التركية بشرط أن تحكم العصبة بإعطاء الموصل إلى تركيا(٢١). ودعمت تركيا هذا الموقف بشن هجمات واسعة النطاق على حدود العراق الشمالية أواخر سنة ١٩٢٤، فاضطرب الامن في قضائي زاخو والعمادية واضطرت الحكومة العراقية لاعلان الاحكام العرفية في المنطقة ولما تكررت الهجمات قامت الطائرات البريطانية برد المهاجمين على أعقابهم وتم تحشيد قوات عسكرية عراقية في المنطقة أودعت قيادتها إلى قائد الطيران البريطاني مؤقتاً لأن القوات البريطانية كانت هي المسؤولة عن حفظ الامن في العراق والدفاع عن حدوده . والجدير بالاشارة هنا هو ان بريطانيا كانت المسؤولة أيضاً عن تصريف شؤون العراق الخارجية، حتى تم تشكيل وزارة الخارجية العراقية(٢٢) أواخر سنة ١٩٢٤.

حاول الاتراك أن يطرقوا هذه المرة أبواب البريطانيين بعد أن أيقنوا قوة وثبات البريطانيين على موقفهم لا سيما وأنهم الدولة المنتدبة على العراق. ففي الوقت الذي كانت فيه اللجنة الاممية تجري تحرياتها في العراق حاولت الحكومة التركية التأثير على الحكومة البريطانية فاتصل سفيرها في لندن زكي بك بوزير الخارجية البريطاني اوستن تشمبرلن في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ مبدياً استعداد تركيا لمحالفة بريطانيا، ومنح عدد من الامتيازات الاقتصادية لمصالحها مقابل

إعطاء الموصل لتركيا وفي ١٩ آذار قدم زكي بك إلى تشمبرلن نص مشروع معاهدة تركية بريطانية مقترحة من تركيا تضمنت :

يكون مجرى الزاب ثم مجرى دجلة شمالاً مع خط يمتد تحت للقيارة بعشرة أميال حداً فاصلاً بين تركيا والعراق. مع تعهد تركيا، بعد الاتفاق على تلك الحدود، بسلامة العراق من التجزئة. ويمنح بريطانيا امتيازاً لاستغلال نفط ولاية الموصل ومد أنابيب تصديره عبر الاراضي التركية الى البحر المتوسط ، ومنح شركة بريطانية امتيازاً لانشاء وإدارة سكك حديد لا يقل طولها عن ثلاثة آلاف كيلومتراً داخل تركيا مع حق التنقيب عن المعادن لمسافة خمسة وعشرين كيلومتراً على جانبي الخط ومنح شركة بريطانية أخرى إدارة وإنشاء عدد من الموانيء في تركيا[٢٣].

وفي الوقت الذي واصلت فيه تركيا نهجها العدائي هذا كان العراق يواصل مساعيه السلمية لاقامة علاقات حسن الجوار والصداقة معها. فدعا الملك فيصل في خطاب العرش الذي ألقاه في مجلس الامة يوم ١٦ تموز "لإزالة كل ما يحول دون تأسيس صلاتنا مع جارتنا تركيا تلك الصلات التي لاشك انها ستؤدي الى إعادة الثقة والصفاء بين الامتين المتجاورتين" وأضاف "نحن أمة مسالمة لا غاية لها إلا إعمار بلادها والعيش بوئام تام مع جيرانها"[٢٤]. ولما باءت محاولات تركيا لانتزاع الموصل بالفشل وأصدرت العصبة قرارها بإبقاء الموصل ضمن العراق، أخذت تركيا تعمل على تصعيد موقفها المعادي للعراق ودعت المجندين لخدمة العلم وحشدت قوات كبيرة في جزيرة ابن عمر، وعقدت اتفاقية مع الروس في ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥ تنص على حياد كلا الطرفين في حالة وقوع اعتداء على أي منهما وذلك

جواباً من تركيا على قرار مجلس العصبة[٢٥]، مما كان يوحي بأن تركيا على وشك شن حرب شاملة ضد العراق.

ومما له مغزاه في هذا السياق هو ان مصطفى كمال عقد اجتماعاً للمجلس العسكري الاعلى في أنقرة ، بحث مشكلة الموصل وإمكان طلب مساعدة روسيا عند الضرورة ، لكن المجلس لم يحبذ دخول القوات الروسية الى تركيا، وقرر عدم محاولة ضم الموصل بالقوة. ومع ذلك أعلن مصطفى كمال "ان ولاية الموصل تركية ولاشيء يستطيع أن يغير هذه الحقيقة حتى على رؤوس الحراب. اننا نريد ولاية الموصل على كلا جانبي نهر دجلة واننا سواء أكان هناك انتداب أم غير انتداب سوف لن نتخلى عن هذا الرأي". وكتبت جريدة جمهوريت مهددة أيضاً "اننا نعرف كيف نستعيد بـــأيدينا الخاصة الموصل التركية".

ولم يجد العراق بداً من الرد على تلك التهديدات فأعلن الملك فيصل "ان فصل ولاية الموصل سوف يكون ضربة مخيفة وربما مهلكة وان ذلك يستوجب نفقات أخرى للاستعدادات العسكرية" وتم الاعلان فوراً عن ان قوة الجيش العراقي سوف تزداد من ثمانية آلاف رجل الى عشرين ألفا[٢٦]".

وتحركت بريطانيا الدولة المنتدبة على العراق للضغط على تركيا وإجبارها على القبول بقرار عصبة الامم وتغيير نهجها العدائي، وإحداث تقارب بينها وبين العراق فحرضت الايطاليين واليونان والبلغار على التوسع في آسيا الصغرى، وهددوا الاتراك بشكل غير مباشر في حالة الاقدام على أي عمل عسكري ضد العراق. فذكرت الصحف البريطانية انه في حالة حدوث تصادم مع تركيا بسبب ولاية الموصل

فلن تقف كل من ايطاليا واليونان بل وحتى بلغاريا من دون تدخل. وفي أواخر ذلك العام زار تشمبرلن ايطاليا وتبادل وجهات النظر مع موسوليني حول بعض الاجراءات في حالة وقوع بعض الحوادث. وألقى موسوليني بعد ذلك سلسلة من الخطب الحماسية عن ضرورة توسع ايطاليا فيما وراء البحار (يقصد بذلك تركيا) وزار طرابلس الغرب في نيسان ١٩٢٦ بعد أن أشيع عنه انه قد وعد بغزو الاناضول فيما إذا أثارت تركيا بعض الاضطرابات حول قضية الموصل[٢٧]. مما أثار مخاوف الاتراك من احتمال قيام الحرب مع الدول الاوربية ان أقدمت تركيا على عمل عسكري ضد العراق.

وفي خضم تلك المساومات الدولية والتهديد بالقوة وجدت تركيا نفسها عاجزة عن تحدي عصبة الامم خاصة بعد أن توطدت المصالح البريطانية في العراق، وحصلت شركة النفط التركية على الامتياز في آذار ١٩٢٥ بالشروط التي أرادتها كل من بريطانيا والشركة. ووافقت الحكومة العراقية على تمديد الانتداب البريطاني لمدة ٢٥ سنة أخرى بموجب معاهدة جديدة عقدتها مع بريطانيا في ١٣ كانون الثاني ١٩٢٦.

أخذت بريطانيا ترتب لإجراء تقارب عراقي تركي، والعمل على ترضية الأتراك على حساب العراق وذلك بإعطائهم حصة من نفط الموصل. فقد أخبر ستانلي بلدوين رئيس الوزراء البريطاني مجلس العموم في ٢١ كانون الثاني ١٩٢٦ انه سيستقبل السفير التركي في لندن ليبحث الموضوع معه. وأعلن انه قد قابله مرتين، وتقرر ان يذهب رونالد لندسي السفير البريطاني في تركيا من القسطنطينية إلى أنقرة ليتبادل وجهات النظر مع الزعماء الاتراك.

وفي أثناء المفاوضات التي دارت بين كل من لندسي وتوفيق رشدي وزير الخارجية التركي، وافقت تركيا على الاعتراف بإبقاء الموصل تحت سيادة العراق مقابل تعديل بسيط في خط الحدود مع حصة من نفط الموصل[٢٨]. وكان من رأي لندسي ان تعطى تركيا حصة في شركة النفط التركية التي ستستثمر الامتياز، لكن الحكومة البريطانية والشركة لم توافقا على الاقتراح، واقترحت الحكومة البريطانية بدلاً من ذلك ان يعطى العراق نسبة من عوائده من الشركة. عندئذ اقترح لندسي ان تدفع الحكومة العراقية لتركيا ٢٥ بالمئة من حصتها من النفط لمدة ربع قرن أو ١٠ بالمئة وحتى ١٥ بالمئة من حصتها طوال مدة الامتياز البالغة ٧٥ عاماً، ان اقتضى الامر. وتم إبلاغ الحكومة العراقية بهذه الاقتراحات ونصحتها دار الاعتماد البريطانية في بغداد ان قبول نسبة ١٠-١٥ بالمئة اوفق للعراق[٢٩].

وهكذا استطاعت بريطانيا أن توظف مواقف تركيا العدوانية من العراق لتحقيق مصالحها دون ان تضحي بشيء. ولم تجد الحكومة العراقيـــة بداً من إجابـــة مطالب بريطانيـــا والقبول بنصائحها. وفي ١١ آذار ١٩٢٦ تسلمت الحكومة العراقية مشروع معاهدة ثلاثية تقترح بريطانيا عقدها بينها وبين كل من العراق وتركيا وطلبت الحكومة البريطانية استحصال موافقة مجلس الوزراء عليها بأقرب وقت مع التأكيد على الوزراء وإفهامهم ان من المصلحة ان يتنازل العراق عن جزء من موارده النفطية من الشركة دون تأخير من أجل الحصول على صلح مع تركيا[٣٠].

واضطر مجلس الوزراء العراقي الذي كان متلهفاً للحصول على اعتراف تركيا بالعراق، وببقاء الموصل ضمن سيادته لقبول هذه

التسوية، وفي الشهر نفسه أصدر قراراً بالموافقة على مشروع المعاهدة المقترح بغية "تأسيس العلاقات الودية بين العراق وتركيا". ويبدو ان المجلس كان يشعر بالمرارة وفداحة العبء الذي سيتحمله العراق لذلك رجا الحكومة البريطانية "أن تسعى قدر المستطاع الى تأسيس السلام مع تركيا دون تضحيات مالية. وإذا لم يكن ذلك ممكناً فان المجلس يوافق على إعطاء ١٠ أو ١٥ بالمئة من حصته طوال مدة الامتياز"[٣١].

بعدها واصلت السفارة البريطانية في تركيا مفاوضة الحكومة التركية على تلك الاسس حتى تمكنت من إقناعها بهذه التسوية. وقد أراد المسؤولون الاتراك في أول الامر أخذ حصتهم دفعة واحدة وإيفاء مطالبهم بشكل نهائي فحـــددوا مبلغ ٣٠٠ إلى ٥٠٠ ألف باون استرليني تسوية نهائيـــة لكنهم عدلـــوا عن رأيهم وطلبوا أخذ ١٠ بالمئة طوال مدة الامتياز.

وإستناداً لذلك قرر مجلس الوزراء إيفاد نوري السعيد وكيل القائد العام إلى أنقرة لينوب عن العراق في توقيع المعاهدة التي وقعتها الاطراف الثلاثة "العراق – تركيا – بريطانيا" في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٢٦، وقد نصت مادتها الرابعة عشرة "تدفع الحكومة العراقية الى الحكومة التركية ولمدة ٢٥ سنة إبتداء من دخول المعاهدة حيز التنفيذ ١٠ بالمئة من كل عائداتها من شركة النفط التركية" بموجب إمتيازها الموقع عام ١٩٢٥ بقصد توسيع نطاق المصالح المشتركة بين البلدين[٣٢]. ثم أرسل المندوبان العراقي والبريطاني الى المندوب التركي بعد توقيع المعاهدة وفي اليوم نفسه مذكرة اعترف فيها الموقعون على المعاهدة انها جزء متمم منها ويخبرانه فيها "إذا رغبت الحكومة التركية خلال ١٢ شهراً من بدء تنفيذ المعاهدة في تحويل حصتها من العائدات

الى مبلغ مقطوع، فعليها أن تبلغ الحكومة العراقية برغبتها، وستدفع الحكومة العراقية خلال ٣٠ يوماً من تلقيها الاعلان مبلغ خمسمائة ألف جنيه استرليني ترضية تامة ونهائية". وتم الاتفاق أيضاً على أن تتعهد الحكومة التركية أن لا تتنازل عن حصتها لفريق ثالث دون إعطائها حكومة العراق مقدماً فرصة لإحراز هذه الحصة لنفسها بقيمة لا تزيد عما يكون الفريق الثالث مستعداً لتأديتها عن تلك الحصة[٣٣].

٢ـ نشوء العلاقات المباشرة وتبادل التمثيل الدبلوماسي

دخلت المعاهدة الثلاثية طور التنفيذ يوم ١٨ حزيران. وطبقاً لنصوصها وافق العراق على إجراء تعديل في خط الحدود وإعطاء تركيا بضعة أميال بغية تأمين السلم وتأسيس العلاقات الودية معها والحصول على إعترافها بالعراق[٣٤]. وقد نصت المعاهدة على تأليف لجنة حدود دائمة من ممثلين عن البلدين تجتمع كل ستة أشهر مرة في العراق وأخرى في تركيا لتسوية المسائل المتعلقة بالحدود والأمن فيها[٣٥]. وقد إتخذ الجانبان من هذه المادة وسيلة لإقامة إتصالات مباشرة بينهما.

اجتمعت اللجنة لأول مرة في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٦ في زاخو حيث رحبت الحكومة العراقية ترحيباً حاراً بالوفد التركي، وتم تبادل البرقيات بين رئيس الوفد التركي ورئيس الوزراء العراقي وتعبيراً من العراق عن ابتهاجه بتحسن العلاقات صدرت إرادة ملكية في أيلول بإلغاء جميع الأحكام الصادرة وإيقاف التعقيبات الجارية بشأن الجرائم الناشئة عن الأعمال التي قام بها البعض لصالح الجمهورية التركية[٣٦]. وتم إطلاق سراح عدد من المساجين السياسيين.

وأعلن الملك فيصل في خطاب العرش في تشرين الثاني (نوفمبر) "ان علاقتنا الخارجية في تقدم مستمر، فقد توطد مركزنا السياسي بالمعاهدات التي صدقتموها في اجتماعكم السابق وزال ما كان يغشى مستقبل حدودنا الشمالية من الابهام والقلق وبعض الدول التي لم تعترف باستقلالنا بعد قد بدأت بإرتياد السبيل الى ذلك واقترحت علينا تحديد صلاتها معنا بعقد اتفاقيات ذات منافع متبادلة" وأضاف إلى ذلك قوله "لقد دخلت المعاهدة العراقية التركية حيز التنفيذ واستتب الامن والسلام على حدودنا الشمالية ... وانا نرجو بفضل حسن النية المتقابل ان تتوطد صلاتنا الجوارية على أحسن ما يرام فتأخذ علاقاتنا التجارية مجاريها الطبيعية. إذ ليس أحب إلينا من أن يكون الولاء بين القطرين على أحسنه لخير الامتين المتجاورتين"[٣٧].

وهكذا غيرت تركيا موقفها من العراق وأصبحت من أوائل الدول التي اعترفت به رسمياً وذلك بعد أن ضمنت لنفسها مورداً مالياً يساهم في تحقيق التنمية الاقتصادية وعملية التحديث، فضلاً عن تعديل خط الحدود الدولية لصالح الاتراك، وتواصلت مساعي الطرفين لإقامة التمثيل الدبلوماسي، فاتصل السفير التركي بالحكومة البريطانية وأبلغها رغبة حكومته في تعيين قنصل تركي عام لها في بغداد ومعرفة موقف الحكومة العراقية من ذلك، وقد جاء رد الحكومة العراقية أن يكون التمثيل الدبلوماسي بينهما بدرجة وزير مفوض بدلاً من قنصل عام، وطلبت من بريطانيا مواصلة مساعيها لتحقيق هذا الأمر[٣٨].

وفي الثامن من آذار ١٩٢٧ قرر مجلس الوزراء العراقي الموافقة على احداث ممثلية سياسية في تركيا وأن تتخذ وزارة الخارجية التدابير لتعيين ممثل بأسرع ما يمكن[٣٩] وقد مثل العراق في هذا

المنصب صبيح نشأت فيما مثل تركيا في بغداد طاهر لطفي. وعبر الملك فيصل في خطاب العرش في ١٣ آيار (مايو) ١٩٢٨ عن إغتباطه الشديد بهذه المناسبة وقال " أوفدت حكومتنا ممثلاً سياسياً إلى أنقرة بعد أن عينت الحكومة التركية قنصلاً عاماً لها في بغداد فازدادت من جراء ذلك العلاقات بين الدولتين تحسناً أوجب المسرة والاغتباط[٤٠]. وفي الوقت نفسه واصلت لجنة الحدود المشتركة عقد اجتماعاتها كل ستة أشهر فتقام الاحتفالات والولائم عند وصول الوفود التي تحاط بمظاهر التكريم والترحيب حتى تم استتباب الأمن على الحدود بشكل تام[٤١].

ان التحسن الذي طرأ على موقف تركيا من العراق وقيام العلاقات المباشرة ظل يشوبه الحذر وعدم الاطمئنان خاصة بعد أن تدفق النفط في بابا كركر بكميات كبيرة في تشرين الاول ١٩٢٧، وأخذت الاحتكارات النفطية تدفع تركيا للمطالبة بحصة أكبر من نفط الموصل وتحثها لاستغلال إدعاءات ورثة السلطان عبد الحميد باعتبارهم رعايا أتراك والتدخل لدعمهم. وكان حسين قدري قد قدم في ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٢٧ بالنيابة عن محمد فخري وبقية الورثة (٢٢ وريثاً) طلبا بواسطة السفارة التركية في لندن يدعي فيه ان موكليه كانوا قد طلبوا من الحكومة العثمانية إجازات للتحري عن النفط في العراق لكن نشوب الحرب حال دون إصدار تلك الاجازات وان مجلس الوزراء التركي قرر في ١١ آب (أغسطس) ١٩٢٦ الاعتراف بحقوقهم ولم يجد مانعاً من إصدار تلك الإجازات. وطلب قدري من الحكومة العراقية الاعتراف بهذه الحقوق وإلا فانه سيقيم دعوى ضدها[٤٢].

سببت هذه الادعاءات قلقاً للحكومة العراقية التي أخذت تشك في نوايا الاتراك واحتمال تطور موقفهم من العراق. وقد ظهر ذلك واضحاً في الاسباب الموجبة لقانون التجنيد الاجباري الصادر في حزيران ١٩٢٧ والذي جاء فيه "لما كان لدولتي تركيا وفارس المجاورتين جيشان قويان منظمان على أساس الخدمة العامة ومجهزان بكميات وافرة من الاسلحة الحديثة وبعدد من الطائرات فانه من الضروري أن يعد العراق جيشه المقبل على أساس جعل ذلك الجيش قادراً على الوقوف في وجه أحدهما في حالة إعتدائها على حدود العراق"(٤٣).

أما الورثة فقد اتفقوا في ١٩ تموز ١٩٢٨ مع شركة انماء الاقصى والادنى وهي شركة بريطانية مسجلة في لندن، حيث تم نقل حقوقهم وإجازات التحري التي يحملونها الى الشركة التي تعهدت ببذل ما بوسعها لأخذ اعتراف الحكومة العراقية بحقوقهم وتأسيس شركة لاستثمار النفط في حالة العثور عليه بكميات تجارية في أراضي الورثة الواقعة في مندلي وتكريت وهيت وحمام العليل وكفري وطوز خورماتو وبابا كركر وأم الكاز (في البصرة).

وفي اليوم نفسه تقدمت شركة انماء الاقصى والادنى بطلب الى الحكومة العراقية بواسطة وزارة المستعمرات البريطانية تبين فيها ان الورثة كانوا قد دفعوا أجوراً بلغت آلاف الليرات الى الحكومة العثمانية من أجل الحصول على إجازات التحري، ولكن صدور الاجازات تأخر لاسباب خارجة عن إرادتهم. وبين سنتي ١٩١٢و١٩١٤ صدرت مراسيم من مجلس شورى الدولة في تركيا تتضمن عدم وجود ما يمنع من إصدار الاجازات. وفي آب ١٩٢٦ قررت الحكومة التركية ان الاجازات التي منحت لهم قانونية، وأدعت الشركة ان الحكومة العراقية

تجاهلت حقوق ومصالح الورثة خلافاً لنصوص معاهدة لوزان ومنحت إمتيازاً لشركة النفط التركية في منطقة يملك الورثة حقوقاً فيها، وطالبت بإلغاء الامتياز والاعتراف بحقوق الورثة[٤٤].

ومارست شركة إنماء النفط البريطانية ــ وهي شركة دولية تدعمها بريطانيا ــ ضغطها على الحكومة العراقية أيضاً. وبادرت بعرض مساعيها لاعفاء الحكومة العراقية من مطالب الحكومة التركية وورثة السلطان مقابل الحصول على امتياز للنفط في العراق. وحذرت الحكومة العراقية من ان رجال القانون أشاروا إلى ان حقوق وطلبات الورثة صحيحة من الناحية القانونية. وطالبت بإيقاف تجاوز شركة النفط التركية على حقوق الورثة وأبدت استعدادها لمتابعة القضية مهما كلف الامر، بل انها قدمت مطالب بهذا الخصوص إلى عصبة الامم[٤٥].

وقد نجحت مصالح النفط في التأثير على الحكومة التركية ودفعتها للتدخل لصالح الورثة. ففي ٢٦ آذار ١٩٢٩ طلب القائم بالاعمال التركي في بغداد من الحكومة العراقية اتخاذ الخطوات اللازمة للاعتراف بالحقوق والاجازات التي يحملها الورثة والسماح لهم بالتحري عن النفط[٤٦]، لكن الحكومة العراقية رفضت ذلك وتدخلت الحكومة البريطانية لدعم العراق من خلال ممثلها في عصبة الامم، وبينت ان ادعاءات الحكومة التركية التي تدعيها نيابة عن بعض مواطنيها، لا تستند إلى أسس ثابتة لأن السلطات العثمانية لم توافق على الاجازات قبل الحرب[٤٧].

أما الحكومة العراقية فقد سلكت مسلك التودد إلى تركيا ومحاولة التقرب إليها وإفهامها عدم عدالة مطلبها. ويبدو ذلك واضحاً في منهاج الوزارة السعدونية الثالثة في بداية عام ١٩٢٨ الذي أكد "الاهتمام

بمراعاة ضرورة حسن الجوار مع الممالك المجاورة وإعداد الوسائل الضامنة للدفاع عن البلاد"(٤٨). وفي الوقت نفسه واصل مساعيه لتطوير علاقاته مع تركيا والمحافظة على الأمن على الحدود وقد قال الملك فيصل في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩ "ان صلاتنا مع الجمهورية التركية مستمرة على أساس المحبة والمودة"(٤٩). وجرت في العام نفسه مفاوضات بين وزير العراق المفوض في أنقرة ووزير الخارجية التركي لعقد إتفاقية تجارية بين البلدين وكانت الحكومة التركية راغبة في أن تعقد إلى جانب الاتفاقية التجارية اتفاقيتي الاقامة والترانسيت على أساس معاملة الامم الاكثر حظوة والعمل على إنهاء الحركات العشائرية على الحدود والتي تسببت في إقلاق الأمن(٥٠).

ولم يكن هناك ما يعكر صفو العلاقات سوى قضية النفط إذ تلكأت الشركة في تصديره إلى الخارج ونتيجة لالحاح الحكومة العراقية بدأت المفاوضات بينها وبين الشركة سنة ١٩٢٩ (التي أصبحت تدعى بشركة نفط العراق) لتعديل شروط امتياز سنة ١٩٢٥ بصورة تعطي الشركة حقوقاً أكثر مقابل البدء باستثمار النفط وتصديره. وكانت تركيا في ذلك الوقت ـــ كما هي الحال بالنسبة للعراق ـــ بحاجة ماسة للمال للتخفيف من آثار الازمة الاقتصادية العالمية التي ألقت بظلالها على بلدان المنطقة فقدمت سفارتها في لندن في ١٤ آب ١٩٣٠ مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية احتجت فيها على المفاوضات الجارية بين العراق والشركة واحتمال تأثيرها على حصة تركيا التي خولتها إياها معاهدة أنقرة لسنة ١٩٢٦، وعبرت عن قلقها من تأخير استثمار النفط لأن ذلك يحرم تركيا من الحصول على حصتها تلك.

ردت الحكومة العراقية على المذكرة ان التعديلات لن تمس سوى بعض الفقرات التي أثبتت التجارب حصول خلافات حولها، وان الهدف من التعديل هو الاسراع باستثمار النفط. وأكدت ان المفاوضات لن تؤثر على توزيع الحصص وليس هناك تأخير متعمد ، لكن حين تم توقيع الامتياز عام ١٩٢٥ لم يكن قد تم التأكد من وجود النفط بكميات تجارية، فلا بد من التأكد من ذلك. كما ان نقل النفط العراقي الى البحر المتوسط يتطلب مد أنابيب لمسافة طويلة ونفقات باهضة لا يمكن للشركة الاقدام عليها ما لم تتأكد من وجود كميات من النفط تبرر مثل هذه النفقات[٥١].

وشنت الصحف التركية حملة مركزة ضد شركة نفط العراق لتأخرها في استثمار النفط متهمة إياها بحرمان تركيا من حصتها. ولامت الحكومة العراقية من إطالة أمد المفاوضات لتعديل شروط الامتياز. في الوقت الذي تدهور فيه الموقف على الحدود بسبب حركات العشائر واختل الامن بصورة أصبحت تتطلب إجراء اتصالات سريعة ومباشرة مع الحكومة التركية قبل تدهور الموقف. وعلى الرغم من ان تركيا ظلت تفضل بحث القضايا المتعلقة بعلاقتها بالعراق مع الحكومة البريطانية وليس مع الحكومة العراقية، فقد قرر نوري السعيد رئيس الوزراء العراقي السفر الى تركيا على رأس وفد في بداية أيلول حيث أجرى مفاوضات مع نظيره التركي عصمت باشا ومع وزير الخارجية توفيق رشدي. تم خلالها تسوية مشكلات الامن على الحدود طبقاً لشروط معاهدة ١٩٢٦ وتعهدت تركيا بعدم فسح المجال للعناصر المتمردة العمل في المناطق العراقية المتاخمة لتركيا، وأبدت استعدادها أيضاً لتحشيد قوات على الحدود لأجل هذا الغرض.

وطمأن نوري السعيد القادة الاتراك انه طالب شركة النفط بالشروع بالانتاج والتصدير في أقرب وقت. وانه طالبها أيضاً بتقديم مبلغ من المال للحكومة العراقية لحين "الشروع والتصدير" وأضاف ان حصة تركيا لا تقاس بحصة العراق إذ ان العراق يحصل على فائدة أكبر مما تحصل عليه تركيا. وان الحكومة العراقية حريصة على الشروع بالاستثمار بأقرب وقت، ثم جرى بحث إمكان عقد إتفاق تجاري بين البلدين(٥٢).

الواقع ان الاضرار التي ألحقتها الشركة بالعراق كانت كبيرة جداً، فأخذ يضغط على الشركة للوصول الى إتفاق يعجل باستثمار النفط فضلاً عن رغبته في إفهام تركيا بأنه ليس سبباً في إطالة أمد المفاوضات مع الشركة. وبغية تجنب إثارة أي خلاف مع الاتراك حول هذا الموضوع أعلن الملك فيصل في تشرين الثاني ١٩٣٠ "ان صلاتنا مع البلاد المجاورة على غاية ما يكون من المودة والولاء والمذكرات جارية لعقد معاهدات واتفاقيات ولائية وتجارية لتوطيد علاقات الصداقة وتوسيع نطاق المبادلات". وطمأن الاتراك بالقول "ان حكومتي انتهت من المفاوضات مع شركة النفط ، وقد أبلغتها كلمتها الاخيرة. ويسرنا أن نعلن لكم ان النفط في البلاد وافر للغاية وهو ليس من أكبر مواردنا حسب بل ومن أكبر الكنوز في العالم. ويسؤونا في عين الوقت ان يبقى هذا الكنز مدفوناً وان لا يدرك بقدر ما يجب درجة اهتمامنا به وحاجتنا الماسة الى استثماره في أقرب وقت. وأملنا قوي بأن ينتهي هذا الامر في القريب العاجل".

وأراد أن يبرئ العراق من تهمة إطالة المفاوضات وفي الوقت عينه يهدد الشركة فقال " لا يسع المرء مهما كان صبوراً أن يرى الماء

أمامه ويصبر على ضمأه مدة طويلة. ولنتذكر اننا نحن لا غيرنا أصحاب هذه الخزائن وليس من الحزم مهما كانت البواعث والضرورات في الوقــت الحاضر أن نفرط ثانية بما لنا من حق في هذه القضية"(٥٣).

ان السياسة المرنة التي أبداها العراق المتمثلة بزيارة نوري السعيد إلى أنقرة وتصريحات الملك فيصل ساهمت في تعزيز العلاقات العراقية التركية. لكننا يجب أن لا ننسى دور معاهدة ١٩٣٠ في توطيد التحالف مع بريطانيا والتي أوجبت على كل منهما إلتزامات تجاه الآخر. وأعطت العراق قوة تجاه سياسة تركيا نحوه خاصة بعد أن تعززت قدراته العسكرية فتم تطوير الجيش وتوسعت إمكانات القوة الجوية حيث وصلت العراق خمس طائرات قادها طيارون عراقيون تدربوا في بريطانيا وعادوا على متنها يوم ٢٢ نيسان ١٩٣١ والجدير بالملاحظة وله مغزاه في تلك المرحلة ان أول الزيارات التي قام بها هذا السرب هي الموصل في الخامس من حزيران تفقد أقضيتها ونواحيها وزار ألوية أربيل وكركوك والسليمانية(٥٤).

هذه التطورات جعلت تركيا تقتصر في مراسلاتها بعد عام ١٩٣٠ على رغبتها في تسلم حصتها من النفط والمباشرة باستثماره دون التأكيد على حقوق الورثة ومواطنيها والتي كانت تتشبث بها في السابق. وصارت تتلهف لتسلم حصتها من أجل تمويل الخطط الاقتصادية التي شرعت بتنفيذها، وللتخفيف من آثار الأزمة الاقتصادية التي كانت تعصرها عصراً. وان إلحاحها في هذا الجانب دفع نوري السعيد للاستفسار من الحكومة البريطانية حول ما إذا كانت حصة تركيا تدفع من مبلغ الايجار المطلق أو من السلفة التي ستقدمها الشركة

للعراق، إذ ان اتفاقية تعديل الامتياز التي في نية العراق توقيعها مع الشركة تنص على أن تدفع الأخيرة للعراق ٢٠٠ ألف باوناً ذهباً إيجاراً مطلقاً ومثلها سلفة عن عوائد النفط تسترد عند الشروع بتصدير النفط ، فإذا بدأت الشركة باسترداد السلفة من العراق فهل ان تركيا تعيد النسبة المئوية التي استوفتها من حصة العراق؟ وقد أجابت الحكومة البريطانية ان على العراق ان يستعد للدفع عن الامرين[٥٥]، وهو جواب يدل على تفريط بريطانيا بمصالح العراق ورغبتها في كسب تركيا التي أصبحت قوة كبيرة في المنطقة وبينت الحكومة البريطانية في ردها أيضاً ان تركيا لا تستطيع الادعاء أكثر أو أقل مما خولته إياها المادة ١٤ من معاهدة أنقرة. ولا يمكن تغيير ذلك إلا بإتفاقية خاصة تعقد مع الحكومة التركية حالما يتم توقيع إتفاقية تعديل الامتياز وذلك بجعل المادة ١٤ من معاهدة أنقرة تتوافق مع الشروط الجديدة للامتياز[٥٦].

وقد واصلت الحكومة التركية ضغطها على العراق وعلى الشركة للاسراع بتصدير النفط فنشرت جريدة وقت التركية في ١٣ آذار ١٩٣١ مقالة رئيسية لها بعنوان "لماذا لا يستخرج الانكليز نفط العراق" بقلم صاحب الجريدة عاصم فليح جاء فيه: "ان تركيا تشبثت لدى العراق لحمل الشركة للاسراع باستخراج النفط لأن تركيا لها عشرة بالمئة من حصة العراق" وأضافت "ان تأخر الشركة في التصدير يضر العراق أيضاً بل ان أضرار العراق من هذا التأخير أكبر عشرة أضعاف من أضرار تركيا وعليه يجب أن لا تكون منافع الدولتين متوافقة وأن يسعوا معاً للحصول على غايتهم"[٥٧]. ولأجل تطمين الاتراك وإطلاعهم على المفاوضات الجارية بين العراق والشركة ومعرفة مطالبهم اجتمع فرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني

في العراق مع طاهر لطفي وزير تركيا المفوض في بغداد وذلك بناءً على طلب نوري السعيد. وأبلغه ان الحكومة العراقية وشركة النفط قد وقعا اتفاقيــة تعديل الامتيــاز في ٢٤ آذار ١٩٣١ ثم جرى بحث النقاط الآتية:

١- طلب الوزير التركي المفوض أن تحصل تركيا على منافع من نفط الاراضي التي ستبقى خارج امتياز الشركة من ولايتي بغداد والموصل السابقتين طالما تم تحديد منطقة امتيازها بالجانب الشرقي من دجلة في الولايتين المذكورتين كما جاء في الاتفاقية الجديدة.

٢- لتركيا الحق أن تأخذ حصة من ضريبة الدخل التي ستدفعها الشركة للحكومة العراقية وقد وافق همفريز على الشرط الاول ورفض الشرطين الاخرين، خاصة وان الشركة رفضت إخضاع أرباحها لضريبة الدخل في العراق.

٣- أن تبدأ المــدة التي نصت عليها معاهدة أنقرة الثلاثية (بدء تسليم تركيــا حصتها) من تاريخ تصدير النفط وليس من تاريخ تنفيذ المعاهدة[٥٨].

في ذلك الوقت لم تكن مشاكل العراق محصورة مع تركيا بل ان جارتها الشرقية ايران لم تعترف به رسمياً إلا سنة ١٩٢٩، ثم شنت هجوماً واسع النطاق على حدوده الشرقية في أواخر حزيران ١٩٣١ ودخلت الحكومة العراقيــة في مفاوضات مع الحكومة الايرانية اضطرت الاخيــرة معــه لسحــب شرطتها من بعض المواقع التي احتلتها داخل العراق[٥٩].

وهو الشيء الذي دفع بالعراق لتطوير علاقاته مع تركيا خاصة بعد أن تم توقيع الاتفاق الجديد بينه وبين الشركة. ولأجل إرساء أسس السلام الدائم وإقناعها بعدم وضع العراقيل أمام خطوة العراق التالية وهي التحرر من الانتداب والدخول إلى عصبة الامم زار الملك فيصل تركيا في السادس من تموز بناءاً على دعوة من رئيس الجمهورية التركية صحبه في هذه الزيارة كل من رستم حيدر وزير المالية، ووكيل رئيس الوزراء ، والمرافق تحسين قدري، وعدد من أفراد الحاشية الملكية. أقلت الوفد طائرة خاصة رافقتها إلى حلب أربع طائرات من سلاح الجو العراقي حيث استقبله هناك وفد تركي رفيع المستوى رافقه بالطائرة إلى أنقرة فاستقبل استقبالاً منقطع النظير كان على رأس المستقبلين رئيس الجمهورية مصطفى كمال أتاتورك.

وبعد ثلاثة أيام من الاحتفالات ومظاهر التكريم توجه الوفد بصحبة رئيس الجمهورية التركية إلى استانبول وجرت مباحثات رسمية بين الجانبين وتبودلت الآراء حول العلاقات الاقتصادية وشروط الاقامة. وحصل الاتفاق على الشروع بالمفاوضات فوراً لعقد إتفاقيات تجارية وان من مصلحة البلدين ان تسود روح الصداقة وحسن الجوار والصفاء السياسي وأكد الطرفان وجوب التمسك بمبدأ عدم فسح المجال في داخل حدود البلدين لأية محاولة ترمي للإخلال بأمن احداهما. وفي إحدى الولائم الضخمة خاطب أتاتورك ضيفه بالقول "إننا نشعر بعواطف الود والولاء لاصدقائنا وجيراننا العراقيين ولاشك ان زيارتكم تزيد هذه العلاقات والروابط قوة ومتانة. وان الجمهورية التركية التي تحصر مساعيها من أجل السلام بينها وبين جيرانها لتتمنى للعراق السائر في طريق الرقي والازدهار كل سعادة ورفاهية. إذ ان ما بين

تركيا والعراق من روابط وعوامل جغرافيـة واقتصاديـة ومصالح مشتركة ما يقرّب الأمتين ويوطد بينهما أسس الصداقة والولاء".

وقد رد عليه الملك فيصل بخطاب جاء فيه "نحن مشتركون في وجوب توثيق هذه الروابط التي تفضلت دولتكم بالتنويه عنها. ومتى نكرت هذه الحقيقة أكون قد أعربت عن شعور أمتي جميعاً. وقبل أن أختم كلامي أرى من الواجب أن أفصح عن سروري لاخراج زيارتي هذه من حيز التصوير إلى حيز العمل"(٦٠) ثم غادر الوفد بعد عشرة أيام من الاقامة في تركيا بعد أن أرسى أسس الصداقة والتعاون وحسن الجوار كما جرى التفاهم حول الشروع بالمفاوضات فوراً لعقد إتفاقيات اقتصادية بين البلدين.

وقبل بدء المفاوضات حول الاتفاقيات التي تم بحثها وتأكيداً لحسن النية أسرعت وزارة المالية العراقية بتحويل مبلغ ٤٠ ألف ليرة استرلينية في ١٦ تموز ١٩٣١ إلى البنك العثماني لأمر الوكالة التركية في أنقرة عن حصة تركيا من الدفعة الاولى من المبلغ الذي تسلمه العراق من الشركة سنة ١٩٣١(٦١).

وفي أثر ذلك سافر نوري السعيد رئيس الوزراء إلى تركيا أواخر ذلك العام بصحبة وفد من وزارة المالية فتم توقيع ثلاث معاهدات يومي التاسع والعاشر من كانون الثاني ١٩٣٢ أرست العلاقات بين البلدين على وفق الأسس التي تم الاتفاق عليها بين الملك فيصل وأتاتورك وهذه المعاهدات :

١- معاهدة لتسليم المجرمين.

٢- اتفاقية الاقامة.

٣- معاهدة تجارية(٦٢).

وبذلك تم وضع العلاقات العراقية التركية على أسس قوية وراسخة تنظمها مجموعة من الاتفاقيات والمعاهدات التي التزم الطرفان بتنفيذها. وفي الشهر نفسه أصبح العراق عضواً في عصبة الامم وتحرر من الانتداب ولم تعد تركيا تهتم بمطالب ورثة السلطان الذين طلبت شركة الاقصى والادنى من الحكومة العراقية في أيلول ١٩٣١ بالنيابة عنهم الاعتراف بحقوقهم وكان موضوع تحرر العراق من الانتداب مطروحاً أمام العصبة، وهددت الشركة بعرض الموضوع على محكمة العدل الدولية الدائمة(٦٣) غير ان تركيا لم تتدخل لدعمها.

ولكن حاجة تركيا للمال دفعها للتفكير في بيع حصتها من النفط الى شركة فرنسية مقابل مبلغ مقطوع يتراوح بين ٢٥٠-٣٠٠ مليون فرنك فرنسي لكنها وجدت نفسها ملزمة بموجب الوثائق المتبادلة مع الحكومة العراقية الملحقة بمعاهدة أنقرة الثلاثية بعرض الصفقة على العراق أولاً فطلبت من الحكومة العراقية إبلاغها عن رغبتها بالشراء بمبلغ ٣٠٠ مليون فرنك وتنازل تركيا عن حصتها بشكل نهائي أو السماح لها ببيع الحصة لطرف ثالث(٦٤).

وبعد أن درست الحكومة العراقية العرض التركي من جوانبه المالية وجدت ان المبلغ يعادل ٣,٥ مليون ليرة استرلينية عدا الفوائد التي يجب على العراق دفعها في حالة اقتراض هذا المبلغ الكبير فضلاً عن ان هذا المبلغ هو أقل بكثير من المبالغ المتوقع أن تحصل عليها تركيا من الايرادات النفطية خلال المدة المتبقية من حكم المادة ١٤ من معاهدة أنقرة فأبلغت الحكومة التركية أسفها لعدم تمكنها من الشراء وبينت للحكومة التركية ان بإمكانها الحصول على قرض بضمان حصتها وذلك لأن الحكومة العراقية ترى ان الشركات الاجنبية التي

ستشتري الحصة قد لا تقدر موقف العراق مثلما هو الحال بالنسبة لتركيا. لذلك فهي ترغب في ان تبقى هذه الحصة مختصة بالحكومة التركيـــة وحـــدها ولا مانع لدى العراق من استخدام الحصة ضماناً لعقد قرض(٦٥).

وقد واصلت الحكومة العراقية دفع حصة الحكومة التركية حتى سنة ١٩٣٤(٦٦) وهي السنة التي بدأت فيها الشركة بتصدير النفط إلى البحر المتوسط . وأخذت تسترد مبلغ السلفة من حصة العراق غير ان الوثائق الرسمية التي تم الاطلاع عليها لا تسعفنا بشيء حول موضوع الحصة التركية بعد هذا التاريخ ويبدو ان الحكومة التركية قد اقتنعت بقلة النفط المصدر مما دفعها للاتفاق مع الحكومة العراقية ببيع حصتها بشكل نهائي بمبلغ أقل مما طلبته في السابق.

وهكذا أسدل الستار حول هذا الموضوع بعد التطور الواضح الذي شهدته العلاقات العراقية التركية برغبة وحرص من الملك فيصل الاول وإيمانه بأهمية بناء علاقات طيبة مع الاتراك.

الهوامش والمصادر

١- نوري عبد الحميد خليل، التاريخ السياسي لامتيازات النفط في العراق، بيروت ١٩٨٠، ص ٢١-٣٤.

٢- فاضل حسين، مشكلة الموصل، بغداد ١٩٧٧، ص ١٢.

3- Cabinet, C.P. 3566. Middle East Department Colonial Office 13-12-1921, Co. 730/28/7703.

٤- (د.ك.و) ملفات البلاط الملكي، الملف ٣١١/٨٠٨ قضية الموصل، الوثيقة ١٥، كتاب من الملك فيصل إلى بيرسي كوكس في ١٩٢١/١١/١٠.

٥- عوني عبد الرحمن السبعاوي، العلاقات العراقية التركية، مركز الدراسات التركية، الموصل ١٩٨٦، ص٢.

٦- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ط٤، بيروت ١٩٧٤، الجزء الاول، ص ١٤٩.

7- Co. 730/47/1104, From The Colonial Office to Lord Curzon, 4-1-1923.

8- F.O. Turkey No.1 1923, Lausanne Conference on Near Eastern Affairs; 1922-1923 Cmd. 1814 London 1923, p. 397.

٩- فاضل حسين، مرجع سابق، ص ٢٧٢- ٣١٢.

١٠- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الاول، ص ١٦٦.

١١- اقتباساً من: فاضل حسين، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

12- Papers Relating to the Foreign Relation of the U.S.A (FRUS), Washington 1923, Vol. 11, p. 900.

13- Ibid, pp. 1236-1240.

١٤- فاضل حسين، مرجع سابق ، ص ٢٩٦.

15- The Clames of Twenty Two Hairs of Abdul Hamid and Their Properties in Iraq, Co. 730/55/10560.

16- J. G. Bennet, FO. 371/10828/E5489.

17- FRUS. 1923, Vol. 11, p.1199.

18- Memorandum by G.W. Rendel. Foreign Office 2-7-1924, F.O. 371/10877/E406, From Larking to the S/S Foreign Affairs 3-12-1924, F.O 371/10086/E 10847.

١٩- نوري عبد الحميد خليل، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

٢٠- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الاول، ص ١٧٦.

٢١- جريدة العالم العربي ١٩٢٥/٢/٢٨.

٢٢- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الاول، ص ٢٣٠-٢٣٢.

٢٣- نصوص المراسلات بين زكي بيك وتشمبرلن ومشروع المعاهدة في: ملفات د.ك.و، البلاط الملكي، الملف ٣١١/٨١٥، الوثائق ٩٠-٩٩.

٢٤- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٩٢.

٢٥- المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ٦٢.

٢٦- هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد ١٩٨٩، الجزء الاول، ص ٢٨١.

٢٧- المرجع نفسه، ص ٢٨٣؛ فاضل حسين، مرجع سابق، ص ١٨١.

٢٨- فاضل حسين، مرجع سابق، ص ١٨٣.

٢٩- كتاب دار الاعتماد الى جلالة الملك ا آيار ١٩٢٦، في كتاب عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٦٣.

٣٠- كتاب هنري دوبس الى رئيس الوزراء ١١ آيار ١٩٢٦، المرجع نفسه.

٣١- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٦٤.

٣٢- المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ٦٥-٧١.

٣٣- فاضل حسين، مرجع سابق ، ص١٨٦.

٣٤- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٧٦.

٣٥- عوني عبد الرحمن السبعاوي، مرجع سابق، ص ٢٣.

٣٦- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٧٩.

٣٧- المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ٨٢.

٣٨- عوني عبد الرحمن السبعاوي، مرجع سابق، ص٢٧.

٣٩- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٩٣.

٤٠- المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ١٧٩.

٤١- ناجي شوكت، سيرة وذكريات ثمانين عاماً، بغداد ١٩٩٠، الجزء الاول، ص ٩٤.

42- F.O. 371/12264/E 2927. The Minister of Foreign Affairs, Baghdad to the Iraqi Legation, London 19-4-1927.

٤٣- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ١٠٨.

٤٤- د.ك.و، البلاط الملكي، الملف ٣١١/١٧١١ عريضة شركة إنماء الاقصى والادنى الى جلالة ملك العراق ١٩٢٨/٧/١٩، الوثيقة ١٦.

٤٥- د.ك.و، البلاط الملكي، الملف ٣١١/١٦٩٩ رسالة ستانلي الى رستم حيدر ١٩٢٨/٧/١٨ وكتاب ممثل الشركة الى رئيس الوزراء في ١٩٢٨/٨/٢٧، الوثيقة ٧.

46- Fo. 371/13762, The Turkish Charged Affairs to the Minister of Foreign Affairs 16-3-1929.

47- League of Nations (P.M.C) Minutes of the 18th Session, Geneva 1930 p. 181.

٤٨- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ١٥٤.

٤٩- المرجع نفسه، ص ٢٨٨.

٥٠- عوني عبد الرحمن السبعاوي، مرجع سابق، ص ٢٨.

51- FO, 371/14512/E4418 From Ahmet Ferit Bey to the Foreign Office 14-8-1930, From Henderson to Ahmet Ferit Bey, 28-8-1930.
ونصوص هذه الوثائق بالفرنسية أيضاً في ملفات البلاط الملكي، الملف ٣١١/١٦٨٠، الوثائق ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٥٣، ٥٦/ ١٩٣٠.

٥٢- د.ك.و، ملفات البلاط الملكي، الملف ٣١١/٧١٧ مذكرة عن المحادثات التي أجراها نوري السعيد مع رئيس الوزراء ووزير الخارجية التركي في أنقرة ٢٠ أيلول ١٩٣٠، وثيقة ٤١.

٥٣- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٧٦.

٥٤- المرجع نفسه، الجزء الثالث، ص ١٤٦.

٥٥- د.ك.و، ملفات البلاط الملكي، الملف ٥١١/١٦٩٠ من نوري السعيد الى همفريز ١٩٣١/٢/١٦، وثيقة ٤٣.

٥٦- الملفة نفسها، From Humphrys to Nori Al-Said
14-2-1931، الوثيقة ٦٩.

٥٧- نص المقال ضمن كتاب الوزير العراقي المفوض في تركيا الى وزارة الخارجية في ١٣ آذار ١٩٣١، الملفة ٣١١/٧١٧، الوثيقة ١٦.

٥٨- د.ك.و، ملفات البلاط الملكي، الملف ٣١١/١٦٩١ من همفريز الى نوري السعيد ١٩٣١/٤/٢، الوثيقة ٤٠.

٥٩- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ١٤٩.

٦٠- أخبار الزيارة والبيان المشترك عند: عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ١٤٧.

٦١- د.ك.و، ملفات البلاط الملكي، الملف ٣١١/١٦٩٠ من وزارة المالية الى وزارة الخارجية ١٩٣١/٧/١٦، الوثيقة ٥٩.

٦٢- عبد الرزاق الحسني، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ١٧٣.

٦٣- نوري عبد الحميد خليل، مرجع سابق ، ص ٢٥٩.

٦٤- د.ك.و، ملفات البلاط الملكي، الملف ٣١١/١٦٩١ المفوضية التركية الى وزير الخارجية العراقي، ١٩٣٣/٨/٣٠، الوثيقة ٧٢.

٦٥- الملف نفسه، وزارة الخارجيـــة الى المفوضية التركيـــة، ٣ أيلول ١٩٣٣، الوثيقة ٧٣.

٦٦- الملف نفسه، من نوري السعيد الى طاهر لطفي ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٤، الوثيقة ٧٨.

أهـل الحديث والحشوية

الدكتورة
ناهضة مطر حسن المياح
المجمـــع العلمـــي

الملخص

الحشوية مصطلح تداولته معظم المذاهب والفـــرق الإســـلامية والمراد به كما يبدو الانتقاد والتهكم لاسيما من هؤلاء الذيـــن تختلـــف وجهات نظرهم مع بعضهم في مسائل عديدة كالخلافـــة وأحقيـــة مـــن يتولاها من المسلمين ثم شملت فيما بعد مسائل أخرى تتعلق بالصفـــات والتشبيه والجبر والاختيار .. الخ .

ذكرت معظم كتب الفرق الإسلامية ــ وذلك وفقا لآراء مؤلفيها السياسية والعقدية ــ مصطلـــح الحشـــوية مرتبطـــا بـــأهل الحديـــث ((أصحاب الحديث)) متهمة إياهم بالجهل والتهافت على طلب الحديث دون التفقه والعلم فيه وحملهم الجديث الضعيف والموضوع واستندوا في ذلك على بعض من الرواة الذين حملوا هذه الأحاديث ممن نسبوا أنفسهم الى أهل الحديث .

جاء البحث ليوضع رد أهل الحديث على من لقبهم بالحشـــوية والدوافع والأسباب لذلك وسيكون تركيزنا على العصر العباســـي الأول الذي شهد نشاط واسع للفرق الإسلامية .

الحشوية لغة واصطلاحا

الحشوية لغة ((حشو الإبل وحاشيتها)) صغارها وقيل : صغارها التي لا كبار لها وكذلك من الناس وقيل : حشو الناس ، وحشوة الناس : رذالهم أو جهلتهم [1].

يقول الجرجاني : الحشو في اللغة بالفتح وسكون الشين من الكلام الذي لا يعتمد عليه وقيل الحشو ما يملأ به الوسادة[2].

أما الحشوية اصطلاحا فهي كما قال ابن قتيبة من الألقاب التي لقب بها أهل الحديث[3].

أسباب إطلاق اللقب

قبل ذكر الأسباب التي دعت الى إطلاق اللقب على بعض اهل الحديث لا بد ان نحدد الأصل التاريخي لها ، إذ اختلفت آراء الكتاب والمؤرخين في ذلك ، منهم من يرجع نشاتها كفرقة الى حادثة التحكيم ، إذ انقسمت الأمة الى فرق عدة ((علوية وعثمانية ومعتزلة

---

[1] ابن فارس ، ابو الحسن احمد (ت ٣٩٢ هـ) معجم مقاييس اللغة ، ط ١ (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠١) ؛ ابن منظور ، جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب (دار صادر ، بيروت ، د . ت) ج ١٤ ، ص ١٨٠ .

[2] علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦ هـ) التعريفات (مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٨) ص ٧٧ .

Halkin, A,S the Hashwiyya, Gournal of the American oriental Society, First edittion, No. 54, 1934, P. 3,4.

[3] عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) تاويل مختلف الحديث ، ضبط محمد زهدي النجار (دار القومية للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٦٦) ص ٨٠ .

وحشوية ..))[٤] في حين يرى البعض انها ظهرت في الحقبـــة التـــي أعقبت عهد الخلفاء الراشدين مباشرة[٥] وهناك من يربطها بالخليفة عمر بن عبد العزيــز ، وهو ينتقــد الطغام والحشــو قائلا : ((قبـــح الله هذه الوجوه ، لا تعرف الا عند الشر))[٦] او بانتقاد الحسن البصـــري (ت ١١٠ هــ / ٧٢٨ م) لجماعة حضروا مجلسه لم تحدد المصـــادر من هم إذ تكلموا كلاما لم يعجبـه فقال : ((ردوا هؤلاء الــى حشـا الحلقة)) فنسبوا الى ((حشًا)) فهم حشوية بفتح الشين [٧] وقيل هو لفظ أطلقه عمرو بن عبيـد[*] (ت ١٤٤هــ / ٧٦١م) على عبد الله بـــن

---

[٤] الناشئ الأكبر ، عبد الله بن محمد (ت ٢٩٣ هــ) ، مسائل الإمامة ومقتطفـات من الكتاب الأوسط في المقالات ، تحقيق يوسف فان اس (فرانتس شتاينر ، بيروت ، ١٩٧١) ص ١٧ .

[٥] النشار ، علـي سامي ، نـشـأة الفـكـر الفلسـفـي فـي الإسـلام ، ط ٧ (دار المعــارف ، القاهرة ، ١٩٧٧) ج ١ ، ص ١٣٧ .

[٦] الجاحــظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هــ) ، رسائـل ، تحقيـق عبـد السلام محمـد هارون ، ط٣ (مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٥) ج ١ ، ت ٢٨٣ في نفي التشبيه .

[٧] الحنفي ، عبد المنعم ، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحـزاب والحركـات الإسلامية (مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٩) ج ٢ ، ص ٢٩٤ ــ ٣٠٣ .

[*] شيخ القدرية داعية من المعتزلة ، تركه أهل النقل ، ينظر ، المــزي ، جمـال الدين ابو الحجاج يوسف (ت ٧٤٢ هــ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق احمد علي عبيد وحسن احمد اغا (دار الفكـــر ، بـيروت ، ١٩٩٢) ج ١٤ ص ٢٨١ ــ ٤٩٩ .

عمر بن الخطاب [٨] ويبدو أن هذا التعبير شمل فيما بعد احمد بن حنبل [٩].

تعددت الأسباب التي فسر بها الكتاب والمؤرخون ، في إطلاق هذا اللقب على بعض أهل الحديث ، يرجع الجاحظ ذلك الى الجهل الذي عم اغلب أهل الحديث مما أدى الى اعتقادهم بالتشبيه[١٠]، في حين يرى الغزالي ان سبب ذلك هو جمودهم على التقليد واتباع الظواهر ، وعد مثبتة الصفات الخبرية حشوية [١١].

ذكر ابن قيم الجوزية : ((تلقب أهل السنة بالحشوية وبيان من هو أولى بالوصف المذموم من هذا اللقب من الطائفتين وذكر أول من لقب به أهل السنة من أهل البدع))[١٢].

حدد الكوثري إطلاق هذه التسمية ، بتأثير عناصر أجنبية من اليهود والنصارى والمجوس الذين روجوا للتشبيه والتجسيم فأثرت في عدد من الرواة فاخذوا هذه الأحاديث وروجوها ، وأخذت تشيع بين الناس ولاسيما في البصرة التي عرف فيها معبد بن عبد الله الجهني

---

[٨] ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (المكتب التجاري ، بيروت ، د.ت) ج ١ ، ص ٢١١.

[٩] ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس احمد بن عبد الكريم (ت ٧٢٨ هـ) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، ط ١ (المكتبة السلفية ، لاهور ، باكستان ، ١٩٧٦) ج ١ ـ ص ٢٤١ .

[١٠] رسائل ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ في نفي التشبيه .

[١١] محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ) الاقتصاد في الاعتقاد (المطبعة المحمودية ، القاهرة ، د. ت) ص ٢ .

[١٢] محمد بن ابي بكر (ت ٧٥٢ هـ) القصيدة النونية او الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٥٤) ج ٢ / ص ٣٣٠ .

(ت ٨٠ هـ / ٦٩٩ م) [*] الذي رد على الذين تعللوا بالقدر في مساوئهم ، وقام أصحاب الجبر بنشر مقالتهم ، ومن هنا ظهرت التسمية واصبحت دالة عليهم[١٣] كما عرفت الكوفة أيضا هذه النزعة في تكثير الأحاديث[١٤].

مواقف المؤرخين والكتاب من إطلاق اللقب

تفاوتت مواقف هؤلاء من إطلاق لقب الحشوية على بعض اهل الحديث فعلى الرغم من دفاع ابن قتيبة عن أهل الحديث الا انه يلقي اللوم عليهم لتركهم الاشتغال ...... بعلم ما كتبوا والتفقه بما جمعوا وتهافتهم على طلب الحديث من عشر وعشرين وجها دون التفقه والعلم به ...))[١٥].

ذكر البستي ان الذين اشتغلوا بعلم الحديث اصبحوا فريقين الأول منهما طلبة الأخبار الذين همهم جمع الحديث وكتابته من دون الحفظ والعلم به وتمييز الصحيح من السقيم حتى سماهم العوام

---

[*] هو معبد بن عبد الله بن عويمر الجهني أول من تكلم في القدر ، ينظر الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) سير أعلام النبلاء ، تحقيق محب الدين ابي سعيد عمر العمروي ، ط ١ (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٧) ج ٥ / ص ١٩٢

[١٣] محمد زاهد مقدمته التي كتبها لكتاب تبيين كذب المفترى فيما نسب الإمام أبي الحسن الاشعري لابن عساكر (مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٣٤٧ هـ) ص ١٠ .

[١٤] السيوطي ، جلال الدين بن أبي بكر بن عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) ، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (المطبعة الأدبية ، مصر ، ١٣١٧ هـ) ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

[١٥] تأويل مختلف الحديث ، ص ٨٠ .

((الحشوية)) ، والثاني المتفقهة ، الذين جعلوا همـــهم حفـظ الآراء والجدل وغضوا عن حفظ السنن ومعانيها[١٦].

استنكر الرامهرمزي من جهة إطلاق هذه التسمية وعدها ذمـــا لاهل الحديث[١٧] ومن جهة أخرى ينتقدهم قائلا ((دعوا ما تعيرون بــه من تتبع الطرق وتكثير الأسانيد وتطلب شـــواذ الأخبـــار ومـــا دلســه المجانين وتبلبل فيه المغفلون))[١٨].

ذهب العامري الى ان طائفة من المتكلمين هم الذين أطلقوا هذا الاســـم ((ولقبوا ... أرباب ــ صناعة الحديث ــ بالحشو والطغام))[١٩].

عد اللالكائي تسمية أصحاب الحديث ((حشوا وتقليدا ، وحملتها جهالا وبلهاء ، ظلماً وعدوانا وتحكما وطغيانا))[٢٠].

ذكر ابو يعـــلى : ((ان أصحاب الرأي المبتدعة هم الذين سموا أهـــل

---

[١٦] محمد بن حبـــان (ت ٣٥٤ هــ) المجروحين من المحدثين ، تصحيح عزيز بيك القاهري ، ط١ (المطبعـــة العزيزية ، حيدر اباد الدكن ، ١٩٧٠) ج ١ ، ص ١٤ .

[١٧] الحسن بن عبد الرحمن (ت ٣٦٠ هــ) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي تحقيق محمـــد عجاج الخطيب ، ط ١ (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧١) ص ١٦٢ .

[١٨] م ، ن .

[١٩] محمد بن يوسف (ت ٣٨١ هــ) الأعلام بمناقب الإسلام ، تحقيـــق احمد عبد الحميد غراب (دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧) ص ١١٢ .

[٢٠] هبة الله بن الحسن بن منصور (ت ٤١٨ هــ) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة إجماع الصحابة والتابعين من بعدهم ، تحقيق احمد سعد حمدان (دار طيبة للنشـــر والتوزيع ، الرياض ، ١٤٠٢ هــ) ج ١ ، ص ١٤ .

السنة نابتة وحشوية وهو الذين قاسوا الدين بالرأي))[٢١].

يرى عبد القادر الكيلاني ان الباطنية (الإسماعيلية) هم الذين أطلقوا على أهل الحديث : الحشوية لقولهم بالأخبار وتعلقهم بالآثار[٢٢].

يبدو ان إطلاق هذه التسمية على أهل الحديث ، ارتبط بالمعتزلة[٢٣] فالجاحظ عندما يطلب منه رجل من أصحاب الحديث حديثا يحفظه يقول له : ((متى عهدتني أقول بالحشوية ؟ [٢٤])) فهو يربط أهل الحديث بالحشوية : ويعدهما شيئا واحدا ، لذلك وجه الجاحظ نقده إليهم بقوله : ((ليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث وأي ضرب يكون مردودا وأي ضرب يكون متأولا[٢٥])) .

---

[٢١] ابو الحسين محمد (ت ٥٢٧ هـ) طبقات الحنابلة ، وقف على طبعه محمد حامد الفقي (مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٢) ج ١ ، ص ٣٦ .

[٢٢] (ت ٥٦١ هـ) الغنية لطالبي الحق عز وجل في معرفة الآداب الشرعية (مطبعة دار الكتب العربية الكبرى ، مصر ، د.ت) ص ٥٩ .

[٢٣] زيات ، حبيب ، التشيع لمعاوية في عهد العباسيين ، مجلة المشرق ، س ٤٢ (بيروت ، ١٩٤٨) ج ١ ، ص ٤١٠ .

[٢٤] الخطيب البغدادي ، احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) تاريخ بغداد او مدينة السلام ، تحقيق عبد القادر عطا ، ط ١ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٧) ج ١٢ ، ص ٩ ــ ٢ ، ٦٦٦٩ عمرو بن بحر الجاحظ .

[٢٥] رسائل ، ج٣ ، ص ٢٨٨ حجج النبوة .

ذكر مصطلح الحشوية النوبختي[٢٦] والاشعري القمي[٢٧] ويقصدون به الذين قالوا بشطط الكلام وساقطه وهم : ((أهل الحشو واتباع الملوك .. الذين .. جوزوا الخلافة والسعي في أمور الملك .. والرعية .. واقامة الهدنة .... لكل إمام أقيم بعد الرسول (ﷺ)))[٢٨] وهم ــ أي الحشوية ــ على رأي مناقض لرأي الشيعة والذي تبناه النوبختي والاشعري القمي بشكل واضح .

ذكر الصدوق مصطلح الحشوية وما روته في المناظرة التي عقدها المأمون بينه وبين أصحاب المذاهب والفرق[٢٩] وربط الشيخ المفيد بين الحشوية واهل الجبر والتشبيه كما وصفهم بقوله ((الحشوية المنتسبون الى الحديث))[٣٠].

ويرى ان ((الحشوية تدين بإمامة بني امية ، ولا ترى لولد رسول الله إمامة ..))[٣١].

---

[٢٦] الحسن بن موسى (ت ٣٠٠ هـ) فرق الشيعة ، عني بتصحيحه هـ ــ ريتز (مطبعة الدولة ، اسطنبول ، ١٩٣١) ص ٧ .

[٢٧] سعد بن عبد الله (ت ٣٠١ هـ) المقالات والفرق ، تصحيح محمد جواد مشكور (مطبعة حيدري ، طهران ، ١٣٦١) ص ٥ .

[٢٨] النوبختي ، فرق الشيعة ، ص ١٧ ؛ الاشعري القمي ، المقالات والفرق ، ص ٦ .

[٢٩] محمد بن علي (ت ٣٨١ هـ) عيون اخبار الرضا ، عني بتصحيحه مهدي الحسيني الاجوردي (دار العلم ، قم ، ١٩٥٧) ج ٢ ، ص ١٩٥ .

[٣٠] محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات وشرح عقائد الصدوق او تصحيح الاعتقاد ، ط ٢ (مطبعة رضائي ، تبريز ، ١٣٧١) ص ٢ ، ص ٤ .

[٣١] م . ن ص ص ٨ ــ ١٠ .

ان مذهب الحشوية بداية ، لم يكن مبنيا على أصـــول عقيديـــة وانما منهج للتعامل مع النصوص والأخذ منها والالتزام فيها على ظاهر اللفظ من دون تأويل ولا تمييز بين صحيحه وسقيمه فمن الـــتزم بـــهذا سمي حشوي من أي مذهب كان[٣٢] فقد أطلق المعتزلة المصطلح علـــى القائلين بالقدر واطلقه الجهمية على مثبتة الصفات[٣٣] ومن الواضـــح ان المصطلح تبلور بمرور الوقت اصبح نعتا لجماعة لهم منهجهم وآراؤهم في مسائل كلامية وسياسية حتى عُدّت من الفرق الإسلامية [٣٤].

ارتبطت بالحشوية حصرا تعابير أخرى[٣٥]، منها النابتة الذيـــن عدوا من الحشوية[٣٦]. والنابتة لغة تعني ((الطري حين ينبت صغيرا ، والنوابت هم الاغمار من الأحداث ..))[٣٧].

اما في الاصطلاح ، فهي المذاهب الناشئة الذين أنبتـــوا بدعـــا غريبة في الإسلام[٣٨] يربطهم الجاحظ بالرافضة والحشوية وذلك لقولهم بـــ ((التشبيه)) وهم برأيه ((.... غدرهم كثير ونصبهم شديد والعوام

---

[٣٢] ابن المرتضى ، احمد بن يحيـــى (ت ٨٤٠ هــ) طبقات المعتزلـــة ، عنـــي بتصحيحه سوسنة ديفلد (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٦ .

[٣٣] السندي ، عبد القادر ، ملاحظات حول كتاب عقيدة السلف والخلـــف ، مجلـــة الجامعة الإسلامية ، ع ١٥ ، س ١٥ (السعودية ، ١٤٠٣ هــ) ص ٣٢٩ .

[٣٤] الناشئ الأكبر ، مسائل الإمامة ، ص ١٩ .

[٣٥] المشبهة المجسمة والمرجئة والنواصب .. الخ ينظر الرامهرمزي ، المحـــدث الفاصل ، ص ١٦٣ .

[٣٦] الحنفي ، موسوعة الفرق والجماعات ، ج ٢ ، ص ٦٣١ .

[٣٧] ابن فارس ، معجم ، ص ٩٧٠ . مادة نبت .

[٣٨] مقدمة عبد السلام هارون لكتاب رسالة في النابتة من رسائل الجـاحظ ، ج ١ ، ص ٧ .

معهم والحشو يطيعهم))[٣٩]. في حين يلصق ابن الراوندي مصطلـــح النابتة بالمعتزلة[٤٠] ويوجه ابو علي الجبائي (ت ٣٠٣ هـــ / ٩٥١ م) أحد رؤساء المعتزلة انتقاده الى النابتة قائلا ((رووا عن الرسول (ﷺ) انه قال لعلي والحسن والحسين وفاطمة : أنا حرب لمـــن حـــاربكم ــ يقـــول : العجب من هـــؤلاء النوابـــت يروون هـــذا الحديـــث ثـــم يقولون بمعاوية))[٤١].

وضع ابن النديم : ((نابتة الحشوية والمجـــبرة في فن واحـــد قال ((الفن الثالث من المقالة الخامسة ويحتوي على أخبـــار متكلمـــي المجبرة ونابتة الحشوية))[٤٢].

يرى الدكتور فاروق عمر فوزي ان النابتة حركة دينية سياسية ظهرت في القرن الثالث الهجري وهم شيعة معاويـــة الفئـــة الجديـــدة المعادية لسياسة العباسيين ومذهب المعتزلة واراء العلويين[٤٣].

يتضح من خلال ما ذكرناه ان ربط هذه الألقاب بأهل الحديـــث قد يكون فيه إشارة الى تلك الانتقادات التي وجهت لهم ولاسيما خـــلال

---

[٣٩] رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ في خلق القرآن .

[٤٠] الخياط ، عبد الرحيم بن محمد بن عثمان (ت بعد ٣٠٠ هـ) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ، تحقيق نيبرج (مطبعة دار الكتب المصرية ، القـــاهرة ، ١٩٥٢) ص ١٥٦ .

[٤١] ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٤٦ .

[٤٢] أبو الفرج أبو يعقوب محمد بن اسحاق (ت ٣٨٥ هـ) ، الفهرست ، تحقيـــق ناهد عباس عثمان ، ط١ (دار قطري بن الفجأة ، الدوحة ، ١٩٨٥) ص ٨١ .

[٤٣] النابتة : نزعة موالية للأمويين في العصر العباسي ، مجلة آفاق عربيـــة ، ع ٩ (بغداد ، ١٩٧٨) ص ٩٠ .

القرن الثالث الهجري في مسألة الصفات ومنها خلق القرآن والرؤية ، وقد يكون السبب سياسيا يتمثل في موقف أهل الحديث من الصراعات السياسية التي حدثت آنذاك ، وان كنا نميل الى الجانب السياسي في ذلك .

المصادر والمراجع

١. ابن تيمية ، تقي الدين ابو العباس احمد عبد الكريم (ت ٧٢٨ هـ) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، ط١ (المكتبة السلفية ، لاهور ، باكستان ، ١٩٧٦) .

٢. ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (المكتب التجاري ، بيروت ، د.ت) .

٣. ابن فارس ، ابو الحسن احمد (ت ٣٩٢ هـ) معجم مقاييس اللغة ط١ (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠١) .

٤. ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) تأويل مختلف الحديث ضبطه محمد زهدي النجار (دار القومية للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٦٦) .

٥. ابن قيم الجوزية ، محمد بن ابي بكر (ت ٧٥٢ هـ) القصيدة النونية او الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٥٤) .

٦. ابن المرتضى ، احمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ) طبقات المعتزلة ، عني بتصحيحه سوسنة ديفلد (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١) .
٧. ابن منظور ، جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب (دار صادر ، بيروت ، د. ت) .
٨. ابن النديم ، ابو يعقوب محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥ هـ) ، الفهرست ، تحقيق ناهد عباس عثمان ، ط١ (دار قطري بن الفجاءة ، الدوحة ، ١٩٨٥) .
٩. ابو يعلى ، ابو الحسين محمد (ت ٥٢٧ هـ) طبقات الحنابلة ، وقف على طبعة محمد حامد الفقي (مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٢) .
١٠. الاشعري القمي ، سعد بن عبد الله (ت ٣٠١ هـ) المقالات والفرق ، تصحيح محمد جواد مشكور (مطبعة حيدري ، طهران ، ١٣٦١) .
١١. البستي ، محمد بن حبان (ت ٣٥٤ هـ) المجروحين من المحدثين ، تصحيح علي بك القادري ، ط ١ ، المطبعة العزيزية ، حيدر اباد الدكن ، ١٩٧٠)
١٢. الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) رسائل ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط٣ (مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٥) .
١٣. الجرجاني ، علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦ هـ) التعريفات مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٨) .

١٤. الحنفي ، عبد المنعم ، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية (مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٩) .

١٥. الخطيب البغدادي ، احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) تاريخ بغداد او مدينة السلام ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ط١ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧) .

١٦. الخياط ، عبد الرحيم بن محمد بن عثمان (ت بعد ٣٠٠ هـ) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ، تحقيق نيبرج مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٥) .

١٧. الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) سير أعلام النبلاء ، تحقيق محب الدين ابي سعيد عمر العمروي ، ط١ (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٧) .

١٨. الرامهرمزي ، الحسن بن عبد الرحمن (ت ٣٦٠ هـ) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، تحقيق محمد عجاج الخطيب / ط١ (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧١) .

١٩. زيات ، حبيب ، التشيع لمعاوية في عهد العباسيين ، مجلة المشرق ، س ٤٢ ، ج١ (بيروت ، ١٩٤٨) .

٢٠. السيوطي ، جلال الدين بن ابي بكر عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (المطبعة الأدبية ، مصر ، ١٣٧١) .

٢١. السندي ، عبد القادر ، ملاحظات حول كتاب عقيدة السلف والخلف ، مجلة الجامعة الإسلامية ، ص ١٥ ، ع ٧٥ (السعودية ، ١٤٠٣ هـ) .

٢٢. الشيخ المفيد ، محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات وشرح عقائد الصدوق او تصحيح الاعتقاد ، ط٢ (مطبعة رضائي ، تبريز ، ١٣٧١) .

٢٣. الصدوق ، محمد بن علي (ت ٣٨١ هـ) عيون أخبار الرضا عني بتصحيحه مهدي الحسيني الاجوردي (دار العلم ، قم ، ١٩٥٧ هـ)

٢٤. العامري ، محمد بن يوسف (ت ٣٨١ هـ) الأعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق احمد عبد الحميد غراب (دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧) .

٢٥. عبد القادر الكيلاني (ت ٥٦١ هـ) ، الغنية الطالبي الحق عز وجل في معرفة الآداب الشرعية (مطبعة دار الكتب العربية الكبرى ، مصر ، د.ت) .

٢٦. الغزالي ، محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ) الاقتصاد في الاعتقاد (المطبعة المحمودية ، القاهرة ، د. ت) .

٢٧. فاروق عمر فوزي ، النابتة نزعة موالية للأمويين في العصر العباسي ، مجلة آفاق عربية ، ع ٩ (بغداد ، ١٩٧٨ م) .

٢٨. الكوثري ، محمد زاهد ، مقدمة تبيين كذب المفترى فيما نسب الى الإمام ابي الحسن الاشعري لابن عساكر (مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٣٤٧) .

٢٩. اللالكائي ، هبة الله بن الحسن بن منصور (ت ٤١٨ هـ) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة واجماع الصحابة والتابعين من بعدهم ، تحقيق احمد سعد حمدان (دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤٠٢) .

٣٠. المزي ، جمال الدين ابو الحجاج يوسف (ت ٧٤٢ هـ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق علي عبيد وحسن احمد اغا (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٤) .

٣١. الناشئ الأكبر ، عبد الله بن محمد (ت ٢٩٣ هـ) مسائل الامامة ومقتطفات من الكتاب الأوسط في المقالات ، تحقيق يوسف فان اس (فرانتس شتاينر ، بيروت ، ١٩٧١) .

٣٢. النشار ، علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ط ٧ (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧) .

٣٣. النوبختي ، الحسن بن موسى (ت ٣٠٠ هـ) فرق الشيعة ، عني بتصحيحه هـ ـ ريتز (مطبعة الدولة ، اسطنبول ، ١٩٣١)

Halkin, A.S
34. The Hashwiyya, Gournal of the American Oriental Society, First Edittion, No. 54, 1934 .

الدكتور نوري جعفر
وجهوده اللغوية وآراؤه التربوية

الدكتور

احمد جواد العتابي

كلية التربية/الجامعة المستنصرية

الملخص

يتضمن البحث تمهيداً وأربعة مباحث وخاتمة: أما التمهيد فيشمل تعريفاً عاماً بالدكتور نوري جعفر/حياته ، ودراسته ، وأهم مؤلفاته. أما البحث الأول فقد عرض لتفسير نشأة اللغة من الناحية الفسلجية وعلاقة اللغة بالحواس. أما المبحث الثاني فقد عرض لموضوع الأصوات وما يتصل بها من مباحث تخص جهاز النطق ، وتكوين الأصوات وتطورها ، أما المبحث الثالث فيعرض لموضوع المعنى وتفسيره من الناحية الفسلجية ، وكذلك يعرض للكلمات بوصفها اشارات وعلامات ورموزاً كتابية من جهة ، وبوصفها مادية محسوسة من جهة أخرى ، ومن ثم علاقة المعنى بها من حيث كونه لا مادياً أو تجريدياً. كما يناقش هذا المبحث علاقة المعنى بالفكر من خلال إحصاء تعريفات وردت في كتاب اللغة والفكر تعرض لتعريف الكلمة وكذلك تعريف المعنى.

أما المبحث الرابع فيعنى بجهود الدكتور نوري جعفر التربوية وآرائه في المنهج والطريقة والمعلم. ثم الخاتمة.

المبحث الأول

١- تفسير نشأة اللغة

ظل موضوع تفسير نشأة اللغة البشرية يشغل بال العلماء سواء أكانوا من داخل اللغة أم من خارجها ، إلى يومنا هذا.

وقد قيل في نشأتها نظريات مختلفة ، منها النظرية التوقيفية التي ترى أن اللغة توقيف من عند الله ودليلهم في ذلك قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) البقرة/٣١ [١].

ومنهم من قال أنها مواضعة واصطلاح وهو الرأي الغالب. ومنهم من ذهب إلى أنها من الأصوات المسموعات كدوي الريح ، وخرير الماء وقد سميت بنظرية محاكاة[٢] أصوات الطبيعة[٣]. ومنهم من ذهب إلى أن أصل اللغة كان محاكاة للأصوات معانيها ، ومفادها أن جرس الكلمة يدل على معناها[٤]. ومنهم من يرى أن اللغة في أول نشأتها كانت أُصواتاً تعجبية انفعالية تعبر عن خوف أو حزن أو فرح[٥]. ومنهم من يربط نشأة اللغة بالاستجابة الصوتية للحركات العضلية أي الأصوات العفوية التي تصدر عن الانسان عندما يمارس عملاً عضلياً ، أي أنه يتفوه بمقاطع صوتية ترافق ما يبذله من جهد[٦]. وبسبب هذا الأختلاف الكبير في نشأة اللغة اصبح الوصول إلى

---

(١) فقه اللغة/الدكتور عبد الحسين المبارك:١٤.

(٢) اللغة والنحو/الدكتور حسن عون:٩.

(٣) نظريات في اللغة/انيس فريحة:١٧.

(٤) دراسات في فقه اللغة/صبحي الصالح:١٤١.

(٥) في علم اللغة العام/عبد الصبور شاهين:٧٢.

(٦) نظريات في اللغة:٢٠.

رأي قاطع أمراً مستحيلاً(وكل ما يمكننا الوصول إليه لــن يكون إلا ضرباً مــن الاجتهاد لا يخرج عــن حيز التخمين أو الافتراض ، حتى أن الجمعية اللغوية فــي باريس قررت سنة ١٨٧٨ منع تقديم أي ابحاث في هذا الموضوع)[٧]. لكن الدكتور نوري جعفر يرتبط تفسير اللغة عنده بالاساس الفسلجي والبيئة الأجتماعية والثقافية أولاً ، ثم الأساس السيكولوجي ثانياً ، إذ أن نشأة اللغة عنده مرتبطة بتطور اعضاء النطق لدى الانسان القديم ، أنظر إليه يقول (نشأت عنده (الانسان القديم) عضلات خاصة بالنطق بالأصوات البدائية على هيئة كلمات مبهمة تتميز من بعض الوجوه من أصوات الحيوانات الراقية ، هذه الأصوات تكون مبهمة ولاتحمل فكراً معيناً ، بل هي تعبير عن أشياء مادية محسوسة وعن حالات انفعالية خاصة ، ثم بتطور الأعضاء الخاصة ولاسيما العضلات المسؤولة عن الاستجابات الحركية المتعددة والفورية تحولت الأصوات المبهمة الأخرى بالتدريج وبمرور الزمن الطويل إلى إشارات ، هذه الإشارات تدل على اشياء بيئية محسوسة وتصف حوادث واقعية متفرقة ، وبهذه الطريقة نشأت عند الانسان إمكانية (إعادة صوغ) بعض الإشارات أو التنبيهات المنعزلة التي يتركها في ذهنه هذا الشيء المحسوس أو ذاك ، وقد نتج عن كل ذلك إمكانية القدرة على تعبيرات تجمع بين المميزات المحسوسة وشبه الفكرية للأشياء والحوادث ، ثم بمرور الزمن اصبحت بالتكامل النسبي المتواصل قادرة على التعبير عن نفسها على هيئة انجاز مجازي)[٨]. ثم

---

(٧) فقه اللغة في الكتب العربية/دكتور عبده الراجحي:٧٧.

(٨) اللغة والفكر:٤٧.

يربط كل ذلك بفسلجة الدماغ ، إذ يقول (وكان للمحلل المخي الحركي وهو المسؤول عن حركات عضلات الكلام المتحدث به أو المكتوب أثر كبير في إبراز الوظيفية الجديدة إلى حيز الوجود ، وبعد ذلك أولى مراحل التجريد والتعميم)[٩]. ثم تأتي المرحلة الثانية التي نتجت (بسبب مواصلة استعمال المحلل الحركي زمناً طويلاً من حياة الانسان ، إذ أدت إلى نشوء مواقع متخصصة أو مراكز مخية مركبة وحسية تكون مسؤولة عن النطق بالكلمات البدائية (تحريك عضلات الحنجرة واللسان والشفتين) وبذلك تبلورت بواكير أو براعم الصوت اللغوي Voice بمعناه الانساني المعروف أو الكلام المنمق)[١٠]. كما رافق ذلك تطور متواصل في المراكز المخية المسؤولة عن السمع ، والبصر ، والنطق وبمرور الزمن حصل تحسن متواصل في أدوات الكلام الفسلجية ، وفي الكلام نفسه الذي تحول من إشارات هيروغيلفية ومسمارية إلى حروف وكلمات ، ونشأت بالتدريج مع تلك الكلمات ارتباطاتها الصرفية والنحوية البدائية. ثم بتطور حياة الانسان البدائي نشأت قدرة مخية على الاحتفاظ بمعاني الكلمات أو بالصورة الذهنية الناجمة عنها ، وتعد هذه أهم المراحل التي تتسم بالتجريد والتعميم[١١].

ويمكن تلخيص ما سبق على النحو الآتي:

١- القدرة على الكلام لم تحدث فجأة بل مرت بسلسلة من التحولات الجسمية والاجتماعية.

---

(٩) اللغة والفكر:٤٧.

(١٠) نفسه:٤٨.

(١١) نفسه:٤٩.

٢- هذه القدرة تعرضت لعملية تطور مخية لاحقة منذ نشوء الانسان العاقل.

٣- يتبع ذلك حدوث تكامل في جهاز النطق ، ولاسيما في الحبال الصوتية والعضلات المرتبطة بها ، واتساع تجويف الفم الذي سهل حركة اللسان وتحول عظم الفك الأسفل أو الحنك من هيئته المستطيلة إلى هيئته المدورة وفي تضاؤل حجم الأنياب[١٢].

٤- ثم حدوث تطور بين المراكز المخية اللغوية الثلاثة (الحركي ، والسمعي ، والبصري) ومعه جهاز النطق (الحنجرة واللسان والشفتان والحبال الصوتية) من جهة وبين محتوى اللغة (المعاني التي تحملها الرموز اللغوية المتحدث بها والمقروءة) من جهة أخرى[١٣] ، ويمكن تلخيص هذه المراحل بالمخطط الآتي:

أصوات بدائية مبهمة ← إشارات تدل على أشياء محسوسة ←إعادة صوغ الإشارة في الذهن ← مرحلة التجريد والتعميم الأولى ← تطور في المخ (مناطق مخية مسؤولة عن النطق بالكلمات،الأصوات الحسية) المرحلة الثانية ←من التجريد والتعميم ، بوادر الصوت اللغوي (Voice) مرحلة ←الاحتفاظ بمعاني الكلمات أو بالصورة الذهنية ـ وهذه هي المرحلة الثالثة من مراحل نشوء عملية التجريد والتعميم ـ وقد تبين بعد اكتشاف المنظومتين المخيتين الأولى والثانية

---

(١٢) نفسه:٤٢.

(١٣) نفسه:٤٢.

أن اللغة تستند فسلجياً إلى المنظومة الإشارية وهي المسؤولة عن الحواس كما يستند البناء إلى الارض إذ أن المنظومة الإشارية الثانية وهي المسؤولة عـن اللغة لا تتعامل بشكل مباشر مـع الإشارات الحسية ، الأمر الذي يؤدي إلى اتساع معاني الإشارات الحسية اتساعاً مذهلاً بفعل نشوء إحساس جديد للنشاط العصبي الأعلى عند الانسان وهو تجريد إشارات المنظومة الحسية عن ارتباطاتها الواقعية وتعميمها.(١٤)

ويضيف الدكتور (وبمرور الزمن اخذت الكلمات تعبر عن جميع الإشارات الحسية وتحل محلها وتستثير الاستجابات الفسلجية التي تستثيرها مسمياتها ، فالألفاظ اللغوية التي تعبر عن نفسها على شكل رموز صوتية أو مكتوبة أوجدها الانسان نفسه في مجرى تاريخه الطويل لتنظيم حياته الاجتماعية.

معنى هذا أن قيمة الرموز اللغوية الصوتية والسمعية بوصفها اشارات تكمن في معناها أو دلالتها أو ما تشير إليه ، وليس قيمتها في كيانها الرمزي المادي المنطوق والمقروء.(١٥)

يتبين من كل ذلك أن هذه النظرية القائمة على ربط الوظائف اللغوية بالوظائف البايولوجية في الدماغ البشري من خلال الكشف عن طبيعة العلاقة القائمة بينهما ، إن هذه النظرية هي الأكثر علمية وإقناعاً في تفسير نشأة اللغة البشرية ، إذ إنها تتفق تماماً مع علم اللسانيات البايولوجي وتوجهاته في تفسير اللغة ودراستها واستخدام ذلك في تطوير تقنيات التعلم والتعليم للغات البشرية.

---

(١٤) اللغة والفكر/٦٠.

(١٥) نفسه:٥٦.

٢- علاقة الحواس باللغة

إن التفسير الذي يحرص على تأكيده الدكتور نوري جعفر ، هو أن اللغة البشرية لم تصل إلى ما وصلت إليه من تكامل في التجريد والتعميم إلا بفضل العلاقات الفسلجية التي تربط الحواس واعضاءها والمراكز المخية ووظائفها من جهة والبيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى. يقول الدكتور جعفر (سار تطور أعضاء الحس باتجاهين رئيسين متكاملين هما: ميل تلك الأعضاء نحو التخصص المتزايد الأدق والأضيق مما أدى إلى تكامل وظيفتها المخية وتهذيب قدرتها على التفكيك أو تحليل البيئة الخارجية إلى عناصرها الأولية ثم تركيبها وإعادة صياغتها. أما الأتجاه الآخر ، فمن الممكن أن يوصف بأنه نزعة نحو إحداث التوافق بين أعضاء الحس المختلفة من جهة ، وبينها مجتمعة وبين التلبيات الحركية الملائمة من جهة أخرى.[١٦]

فحاسة السمع لها اهمية كبيرة في تعلم اللغة إذ لولاها لأستحال على الانسان أن يرتبط بالأخرين بالتحدث والإصغاء ، إذ أن حاسة السمع جهاز فسلجي حساس باستطاعته أن يتأثر بأدنى حد من الضغط الذي يحدثه فيه الهواءِ الملامس الذي يحمل الأمواج الصوتية الخافتة .. فالكلمات المسموعة ينقلها العصب المخي السمعي إلى المركز اللغوي المختص بالكلمات المسموعة.[١٧]

وتتجلى أهمية حاسة السمع عند فقدانها منذ الطفولة الأولى إذ يتعذر تعلم الكلام ، ومن ثم يحصل الإنعزال لفقدان الأتصال عن طريق

---

(١٦) اللغة والفكر/٨.

(١٧) نفسه:٢٣.

اللغة بالبيئة المحيطة. أما حاسة الشم وعضوها الأنف فأن منخري الأنف يمارسان وظائف التنفس والشم والرنين في أثناء الكلام لأن الفتحات الأنفية والأنفية البلعومية تقوم بدور (فجوات الرنين) التي يمر عبرها الصوت في أثناء الكلام. أما حاسة البصر وعضوها العين فلها أهمية كبيرة في نقل إشارات الأشياء المتحركة والراكدة إلى الدماغ ليتخذ الموقف الملائم.

المبحث الثانــي

الأصــوات

تعرض كتب الأصوات عند تناولها للأصوات ، لثلاثة علوم ، هي: علم الأصوات الأوكوستيكي الذي يعنى بدراسة الخصائص المادية أو الفيزيائية لأصوات الكلام في أثناء انتقالها من المتكلم إلى السامع.(١٨) وعلم الأصوات السمعي ، وهو ذو جانبين: جانب عضوي أو فسيولوجي ، وجانب نفسي ، أما الأول فوظيفته النظر في الذبذبات الصوتية التي تستقبلها أذن السامع. ويركز الجانب الثاني جهوده على البحث في تأثير هذه الذبذبات ووقعها على أعضاء السمع (الداخلية منها بوجه خاص) ، وهو أحدث فروع علم الأصوات (١٩). والنوع الثالث هو علم الأصوات النطقي وهو أقدم فروع علم الأصوات ، إذ يدرس نشاط المتكلم بالنظر في أعضاء النطق. ثم بأستخدام الوسائل والأدوات الفنية والالات والأجهزة في الدرس الصوتي ظهر ما يسمى بعلم الأصوات التجريبي أو الآلي أو المعملي.(٢٠) وقد عرض علماء الصوت لكل ما يتصل بالصوت البشري من حيث صفته الفيزيائية ، ومن حيث وصف

---

(١٨) دراسة الصوت اللغوي/٣ وعلم الأصوات/٤٨٠.

(١٩) علم الأصوات/٤٢ ودراسة الصوت اللغوي/٢٧.

(٢٠) علم الأصوات/٥٥.

جهاز أعضاء النطق ، ومن حيث استقبال الصوت وأعضاء السمع (الإذن) وأقسامها الخارجية والداخلية. إذ وقفوا عند هذا الحد ولم يتجاوزا ذلك ، إذ إن البحث في تتبع الصوت الذي تستقبله الاذن البشرية وانتقاله إلى الدماغ أو مناطق محددة منه ، لم يزل محصوراً في دائرة ضيقة هي دائرة المتخصص تخصصاً دقيقاً والمؤهلين تأهلاً مناسباً في فسلجة الجهاز السمعي ، ويضيف الدكتور كمال بشر (ومن النادر أن نجد بحثاً صوتياً عاماً أو بحثاً لغوياً عاماً يعرض لهذا العلم ومشكلاته)[٢١]. ويقرر الدكتور أحمد مختار عمر (أنّ تعرّفَ العقل على الأصوات الكلامية وتفسيرها ما يزال بعيداً عن منال الفحص المعملي ... ولهذا فأن معلوماتنا في هذا الموضوع ما تزال تخمينية حتى الآن)[٢٢]. ويرى فندريس أن الصور السمعية الداخلية التي يستقبلها السامع ليست لها أي قيمة إلا على أساس أن هذا السامع لديه القدرة على تحويلها إلى صور نطقية فعلية .. نعم إن دراسة دقيقة لمراكز الأعصاب في الجانبين (المتكلم والمخاطب) تمكننا ولاشك من معرفة هذه الحدود والتمييز بينها ، ولكن هذه الدراسة ليست من مجال علم الأصوات **Phonetics**[٢٣] وفي هذا الصدد يرى رومان ياكوبسون أن النظرة إلى الرابطة اللغوية للظواهر الفسلجية مفقودة أكثر فأكثر[٢٤]. إلا أن التفسير الفسلجي يبدأ من حيث أنتهى علم الأصوات بفروعه الثلاثة أو الأربعة. إذ يتتبع الصوت بوصفه إشارة حسيّة عندما

---

(٢١) علم الأصوات/٤٣.

(٢٢) دراسات الصوت اللغوي/٣٠.

(٢٣) ينظر:اللغة ١٩ وعلم الأصوات:٤٦.

(٢٤) محاضرات في الصوت والمعنى/٣٦.

يستقبلها الدماغ أو بعبارة أدق المراكز المخيّة اللغويّة ، يقول الدكتور نوري جعفر (ثبت علمياً في الوقت الحاضر أن الأصل الجسمي الذي تستند إليه اللغة ((المراكز المخية اللغوية وجهاز النطق والسمع والبصر)) هو نتاج عملية تطور طويلة الأمد من الناحيتين البايولوجية والأجتماعية على حد سواء. فجهاز النطق المتخصص بإخراج الكلام المنمق والأدوات العصبية والعضلية المعقدة الموجودة فيه ، وكذلك المراكز المخية اللغوية وجهاز السمع والبصر ، من ناحية ارتباطهما بالكلام المسموع والمقروء ، ناهيك بالكلام نفسه من ناحية محتواه ، لم تصل جميعها إلى مستواها الحاضر المتكامل دفعة واحدة بل أخذت بالتحسن المتواصل المتدرج بمرور الزمن الطويل ، وبتوافر البيئة الملائمة))[٢٥].

وقد عرض البحث الفسلجي لجهاز النطق موضحاً وظيفة كل عضو مضيفاً ملاحظات جديدة مهمة لم يعرض لها علم الأصوات ، وسنعرض لهذه الملاحظات كما وردت في كتاب اللغة والفكر ، يقول الدكتور نوري جعفر (وقد ثبت علمياً في الوقت الحاضر أن تطور حافة الحنك هو أول مستلزمات نشوء القدرة على النطق بالكلمات من الناحية التشريحية. وهو الذي ينفرد به الانسان العاقل ليس بالموازنة بالحيوانات الراقية ، فحسب وإنما ايضاً بالموازنة بأنواع الانسان المنقرضة ، ثم يضيف قائلاً (وهناك عوامل فسلجية كثيرة أخرى مهدت للقدرة على النطق بالكلمات عند الانسان يأتي في مقدمتها تحول الفك الأسفل إلى هيئة قوس بعد أن كان مستطيل الهيئة

---

(٢٥) اللغة والفكر/٤٢.

وزيادة حجم تجويف الفم مما سهل حركة اللسان بطلاقة وكذلك حرية حركة الفك الأسفل بأتجاه جديد مما أدى إلى تقلص الأنياب)[٢٦].

هذه الملاحظات المهمة لا نجدها في كتب علم الأصوات وإنما نجدُ عرضاً عاماً ووصفاً عاماً لأعضاء جهاز النطق.

إن جهاز النطق من الناحية الفسلجية مرتبط بالمركز المخي الحركي للكلام إذ أنه يرتبط بالحنجرة بحبالها الصوتية التي تحصل فيها الذبذبات عن طريق الهواء الذي تقذفه الرئتان ، وكذلك التجاويف التي تقع في أعلى الحنجرة ، كالتجويف البلعومي ، والتجويف الفمي ، التي تقوم بدور أجهزة الرنين التي تضخم مختلف النغمات الصوتية وبذلك تعطي للصوت طابعه الخاص بكل فرد)[٢٧].

إن هذا التفسير لا نجده في كتب الأصوات التي ظلت بعيدة عن الأخذ بالمعطيات الفسلجية التي فتحت آفاقاً واسعة لتفسير حدوث الصوت من حيث النشوء والأرتقاء. ومن هذه المعطيات ما ثبت من أن الصوت (Voice) لا يحدث بفعل ذبذبات الحبال الصوتية وحدها ، وإنما أيضاً وبالدرجة الأولى والأهم بفعل تكثيف عمود الهواء الذي تحدثه تلك الذبذبات فوق الحبال الصوتية في الأساس ، وتخفيفه أيضاً ، وقد ثبت أيضاً أن اختلاف عمود الهواء هذا عن نظيره الذي يحدث بفعل ذبذبات صوت الصافرة ، هو المسؤول عن الفرق بين الصوتين لأن ذبذباته تكون مرنة وتسير بأتجاه تيار الهواء الطولي بخلاف ذبذبات صوت الانسان تكون عرضية[٢٨].

---

(٢٦) اللغة والفكر/٥٨.

(٢٧)نفسه: ٦٤.

(٢٨) نفسه:٦٤.

ومن التفسيرات التي تقدمها النظرية الفسلجية ، علاقة المشي ، وأستعمال اليد ، وتطور الحواس السمعية والبصرية ، وانتصاب القامة وتطور القدمين واليدين ولاسيما موقع الإبهام من أصابع اليد ، وإتساع وظائفه ، بنشأة الكلام وتطوره. يقول الدكتور (أي أن قدرة الانسان على الكلام ترتبط بايولوجياً كما يرتبط الكلام نفسه ، ولو بطريقة غير مباشرة ، بتطور الجهاز العصبي المركزي وبخاصة القشرة المخية لاسيما الفصان الجبهيّان ، وبتطور الحواس لاسيما السمع والبصر ، وانتصاب القامة وتطور القدمين وبخاصة موقع الإبهام بالنسبة لأصابع اليد الأخرى واتساع وظائفه ، وهي ظواهر اجتماعية تاريخية النشأة وإن كانت جسيمة التركب[٢٩] ، ومن الجدير بالذكر إن ظهور اللغة عند الانسان أدى إلى حدوث تطور لاحق في أجهزة الجسم المتعلقة به ، إذ أن نشوء الكلام البيّن الواضح أو المنمق كان عاملاً في تطور عضلات الوجه وتعبيراته أو قسماته[٣٠].

المبحث الثالث

الموقف من المعنى

يعد المعنى أكثر الأشياء جدلاً على مستوى النظرية اللغوية ، أو على مستوى النظرية الصوتية ، وظلت العلاقة بين اللفظ والمعنى تأخذ أشكالاً كثيرة ، فمرة علـــى شكل دال ومدلول ، ومرة على شكل صورة حسية مادية ، وصورة ذهنية. ومرة علـــى شكل اللغة والفكر ، كما أن العلاقة بينهما فُسرت أكثر مـــن تفسير ، بين الطبيعيّـــة والاعتباطيـــة

---

(٢٩) ينظر اللغة والفكر/٦٢.

(٣٠)نفسه: ٦٢.

والوضعية. أما النظرية الفسلجية فأنها تنظر إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى مـن زاويتين ، الأولى من زاوية العلامات والإشارات ، والثانية من زاوية اللغة والفكر. أما العلامات والإشارات والرموز ، فهي تؤلف ما يسمى بالمنظومة الإشارية التي ينفرد بها الانسان وحده. فالكلمات المنطوقة أو المكتوبة إشارات حسية تدل على الاشياء المادية التي انطلقت منها وبمرور الزمن أخذت تعبر عن جميع الإشارات الحسية ، وتحل محلها وتستثير الأستجابات الفسلجية التي ستثيرها مسمياتها أي أن الألفاظ اللغوية تعبر عن نفسها على شكل رموز صوتية مكتوبة ، أوجدها الانسان نفسه في مجرى تاريخه الطويل لتنظيم حياته الاجتماعية ، أي أن قيمتها الصوتية والسمعية تكمن فـي معناها أو دلالتها أو ما تشير إليه ، لا في كيانها الرمزي المادي المطوق به أو المقروء[٣١]. إذ أن هذا المفهوم قد تردد في كتابة اللغة والفكر أكثر من مرة. يقول الدكتور نوري جعفر (لاشك في أن الكلمة ، المتحدث بها والمكتوبة ، هي اكثر من مجرد شيء مادي محسوس (صوت نسمعه أو رمز مدون نقرأه) فهي بالاضافة إلى ذلك وبالدرجة الأولى والأهم تحمل معنى معيناً متفقاً عليه ، ترمز إلـى الشيء ، أو تدل عليه ، أو تعبر عنه ، أو تشير إليه ، إن الانسان يستجيب لهذا المعنى ، وليس للصوت ، أو الرمز المكتوب في حد ذاته[٣٢]. ويدلل الدكتور على صحة هذا القول باجراء مختبري اجري على الكلمات المترادفة (اصوات مختلفة ورموز مكتوبة مختلفة والمعنى واحد) فأن الأستجابة تكون للمعنى وليس للصوت أو الرمز.

---

(٣١) اللغة والفكر/٥٦.

(٣٢) اللغة والفكر/٧٨.

إذ يقول (وفي حالة تعبير عدة كلمات ذات اصوات مختلفة ورموز مكتوبة متعددة عن معنى واحد فأن الأستجابة نفسها تحدث في جميع الأحوال ، وقد ثبت ذلك مختبرياً ، فعندما أصبحت كلمة (Bath) الانكليزية في أحدى التجارب منبهاً شرطياً تستثير استجابة شرطية ثم استبدلت بكلمة أخرى تحمل المعنى نفسه ولكنها تختلف عنها تلفظاً وكتابة مثل كلمة (Road) أو كلمة (Street) فأن الأستجابة أزاءها لم تتبدل .. وهذا هو الذي تفتقر إليه الحيوانات الراقية ، (والببغاء) التي تتدرب على سماع بعض الكلمات والاستجابة لها ، وذلك لأن الكلمة عندها تبقى مجرد صوت (Sound) أعجم لاتفقه معناه اللغوي ولاتستجيب إلا له وإذ تغير استحالت عليها الاستجابة له[٣٣].

ويقول في موضع آخر موازناً بين استجابة الحيوان واستجابة الانسان للالفاظ والكلمات ، (فالكلب المدرب علــى الجلوس عند سماعه كلمة (Place) الانكليزية يجلس ايضاً عند سماع كلمــة race ، case ، space ، brace ذات الأصوات المتشابهة وانْ أختلف معناها ، كما أن لا يجلس مطلقاً عند سماعه كلمة (sit) مثلاً ، لأنها تختلف في الصوت وأنْ تشابهتْ في المعنى ... في حين أن الوضع يختلف اختلافاً جذرياً عند الانسان ... أي أنه يستجيب استجابــة مماثــلة لكلمات مماثلة المعنى ، وإن اختلفت أصواتها ، ويصدق الشيء نفسه على الكلمات المكتوبة أيضاً التي ينقلها المحلل البصري كما يصدق على الكلمات التي ينقلها المحلل اللمسي (عند العميان الذي يقرؤون باللمس) .. وهذا كله يدل علــى أن الشيء الحاسم عند الانسان فــي مسألة اللغة ، هــو

---

(٣٣) نفسه:٧٨.

المحتوى أو المعنى الذي تحمله الإشارة اللفظية المنطوق بها أو المكتوبة [٣٤]. أما ما يخص اللغة والفكر ، فأن العلاقة بين اللفظ والمعنى تكتسب منحى جدلياً (وقد ثبت بشكل لا يقبل الجدل أو الشك أن الشخص الذي يقوم بعمل عقلي معين مثل حل مسألة رياضية أو تذكر بيت شعري يتحدث أيضاً مع نفسه من دون أن ينطق بالكلام الجهوري معنى هذا أن العمليات الذهنية تصاحبها دائماً اشارات معينة في أعضاء الكلام وفي جهاز التنفس عموماً بمقدار ارتباطه بالتلفظ وبخاصة في الحنجرة ، وسقف الفم ، وباللسان والشفتين ، وهذا يدل على أنه لا يمكن حدوث عملية التفكير من دون الكلام ... أي أن الفكر لا يصبح واقعاً محسوساً قابلاً للصوغ والتداول إلا عبر الكلمات ، وانه بدون اللغة يصبح خامداً غير قابل للتداول)[٣٥]. ولما كانت الألفاظ (المنطوقة أو المكتوبة) ظواهر مادية محسوسة فأن معانيها أو الأفكار التي تحملها أو الصور الذهنية التي تعبر عنها أو تشير إليها أو تدل عليها ظواهر لا مادية. يقول الدكتور نوري (إن الكلمات تفقد جوهرها إذا اعتبرناها مجرد أصوات أو رموز مكتوبة لأن اهميتها الفكرية تكمن في أنها تنقل ذهن السامع أو القارىء إلى أشياء أخرى تختلف عن وجودها المادي المحسوس ، فالفكر إذن يأخذ منطلقه من معاني الكلمات)[٣٦]. ولذلك ينكر الدكتور نوري فكرة عزل الصوت ، أو الرمز المكتوب عن المعنى ، لأن ذلك يخل بالوظيفة الجوهرية للكلام وهي الاتصال الفكري ، إذ يقول (لأن هذا التبضيع يعزل الوظيفة الأجتماعية للغة

---

(٣٤) نفسه:٨١.

(٣٥) اللغة والفكر/١٠٤-١٠٦.

(٣٦) نفسه:١٢٣.

مــن حيث هي أداة الأتصال الفكري بين أفراد المجتمع ، عن وظيفتها الفكرية الملتحمة بوظيفة الأتصال الأجتماعي ، ويفكك عرى الروابط العضوية النشوئية أو التطورية التي نشأت بينهما)[٣٧]. وقد نتج عن هذا العزل ، المبدأ اللغوي المغلوط الذي يرى أن علم الأصوات علم مستقل عن علم المعاني ، إلا أن المعنى يعد ظاهرة لغوية تعبيرية لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيئة تجريد وتعميم تحملها الأصوات والرموز المكتوبة ، أي المعنى من هذه الناحية عملية فكرية دون منازع[٣٨]. ثم يوضح ذلك معتمداً على قول العالم الروسي مايكونزكي الذي يشبه اللغة والفكر بدائرتين متقاطعتين يطلق على مناطق التقاطع اسم الفكر اللفظيّ أو الفكر المعبّر عنه بالألفاظ. أي لأبد لوجوده من كلمات تحمله وتسمح له بابراز نفسه[٣٩]. ولإتمام الفائدة أذكر هنا التعريفات التي وردت مبثوثة فــي كتاب اللغة والفكر هنا وهناك ، لبعض المصطلحات اللغوية ، مثل الكلمة والمعنى:

أولاً الكلمة:

١- أما الكلمة من حيث هي رسم مكتوب أو صوت منطوق به فهي ظاهرة لغوية إذا نظرنا لها من حيث كونها الأداة الإجتماعية التي تحمل الفكر وتجسده.

٢- فالكلمة إذن كيان واحد متماسك فكري وأداة في الوقت نفسه تعبر عن الفكر على هيئة صوت ورموز مكتوبة أي أن الكلمة بالتعبير الكيمياوي جُزيء اللغة.

---

(٣٧) نفسه: ١٢٣.

(٣٨) نفسه: ١٣٨.

(٣٩) نفسه: ١٣٨.

٣- الكلمة تجريد وتعميم من حيث معناها. أي أن المعنى جزء لايتجزأ من الكلمة.

٤- فالكلمة فكر ملتحم بالصوت يشير إليه ورمز مكتوب يدل عليه.

٥- ليست الكلمة المنطوق بها إشارة سمعية أو صوتية ، بل هي إشارة لفظية أو كلامية ، أو لغوية تجريدية ، إنها مجردة من الشيء المحسوس الذي تشير إليه أي أنها تعبير عن معنى مجرد نقي.

٦- الكلمة بالتعبير الفسلجي تصبح منبهاً متفوقاً ، أي أنها تنظم خبرة الانسان المباشرة إذ يكون دورها في نشوء العمليات العقلية العليا بالغ الأهمية ، إن باستطاعة الكلمة التغلب على نشاط المنظومة الحسية الإشارية ، وإبطال مفعولها وعلى هذا الأساس يصبح بإمكان اللغة أن تطمس آثار جميع الدوافع البيولوجية الفطرية عند الانسان أو تبطل مفعولها أو تحولها إلى نقيضها ، وهذا هو الذي يجعل مفعول الكلمة يتغلغل عميقاً في مشاعر الانسان.

٧- إن الكلمة المنطوق بها أو المكتوب هي بالدرجة الأولى والأهم عند الانسان إشارة مجردة لفظية إلى شيء آخر بصرف النظر عن الصوت الذي تحمله أو الصورة الكتابية التي تنطوي عليها(٤٠).

ثانياً: المعنى

١- المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد.

٢- المعنى ظاهرة لغوية تعبيرية ، لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيئة تجريد وتعميم.

٣- المعنى عملية فكرية دون منازع.

---

(٤٠) نفسه: ٨١.

٤- إن الشيء الحاسم عند الانسان في مسألة اللغة هو المحتوى أو المعنى الذي تحمله الإشارة اللفظية المنطوق بها أو المكتوبة.

٥- الشيء المهم في جميع الإشارات والعلامات بما فيها الكلمات معناها وليس كيانها المادي الحسي (الأصوات أو الرموز الكتابية).

المبحث الرابـــع

شيء من جهوده التربوية

يعد الدكتور نوري جعفر من علماء التربية الذي لهم آراؤهم الخاصة والجريئة في حقلي التعليم والتربية ، فقد رفض رفضاً شديداً المبدأ اللاعلمي واللاإنساني ــ على حد تعبيره ــ الذي يحصر العلم والثقافة في أقلية ضئيلة من الناس (الصفوة) ويصد جماهير الشعب عن التمتع بها ، كما ردّ نظرية الذكاء الفطري وعدّها من قبيل الهراء كما استنكر اختبارات الذكاء على نحو تجريدي منعَزل ، بعيداً عن السلوك اليومي والظروف الاجتماعية والثقافية والعلاقات البيئية ، وأكد باصرار أن الأصالة والأبتكار يمكن أن تتحقق على مستوى الفرد والشعوب ، إذا ما تهيأت الظروف الأجتماعية الملائمة ، ولهذا رفض الرأي القائل بتقسيم البشر إلـــى شعوب راقية ، وأخرى بدائية ، قد عد إلحاح نظام التعليم السائد على ضرورة تفوق الطالب في جميع الدروس ــ مـــن الرسم حتى الرياضيات ــ ضرباً مـــن ضروب التعجيز ، وقـــد ربط الكثير مـــن الظواهر التربويـــة فـــي حقلي التعليم والابتكار ، بالوظائف المخية والدماغية وعلّل قسماً كبيراً منها تعليلاً فسلجياً مقنعاً ، وسيعرض البحث لبعض جهوده التربوية وآرائه العلمية:

١- يشخص الدكتور نوري مسألة تربوية تعليمية تعد في غاية الأهمية في تنمية قدرات التلاميذ. إذ أن هذه المسألة لها أبعاد كثيرة منها ، ما يتصل بالطريقة ومنها ما يتصل بالمنهج ، ومنها ما يتصل بنظام التعليم نفسه ، أما الطريقة أو أسلوب التدريس ، فيرى أنه مبني على التلقين والتكرار المخل ، وعلى الحفظ من دون فهم في الغالب ، فضلاً عن جمود المواد الدراسية وعقم أساليب تدريسها إذ أنها لا تتحول إلى جزء من كيان التلميذ الفكري ومقوماته الثقافية كما يتحول الطعام في عملية تمثيله في الجسم فيغذيه وينميه ، بل تبقى المواد التي يدرسها عائمة على سطح الدماغ الذي لا يلبث أن يجترها ليقذفها إلى الخارج في أثناء الأمتحان.

يقول الدكتور: لقد أدى عقم مناهج الدراسة وسوء اساليب التدريس والإدارة المدرسية المتزمتة وموقف الأسرة اللامسؤول بطائفة كبيرة من ألمع رجال الفكر في الرياضيات ، والعلوم الطبيعية النظرية ، والتكنولوجية وفي الأدب ، والفن والسياسة إلى الفشل الذريع في دراستهم حتى في موضوعات تخصصهم التي برعوا فيها بعد ذلك بجهودهم الخاصة ، فقد فشل فشلاً ذريعاً في دراسته منذ مرحلة التعليم الابتدائي وأتهم بالبلادة كل من اديسون ، آينشتاين ، باستور ، ونيوتن(٤١). ويرى أن المعلومة التي تقدم إلى التلميذ يجب أن تكون مستوفاة لشروطها التربوية ، إذ أن من شروطها:

١- ألا تفرض بالقسر والأكراه ، لإنها تصبح معرضة للنسيان بسهولة وبسرعة كما أنها تستثير الأمتعاض ، والمقت وقد تُبلّد الذهن وتذوي

---

(٤١) الأصالة في مجال العلم والفن/٦٨.

الخيال والأبتكار ولا تشجع التلاميذ على بذل مزيد من الجهد لأكتساب مزيد من المعرفة في كثير من الأحيان.

٢- أن تبتعد عن الصفة التفصيلية غير ذات القيمة العلمية التي تؤثر في تنمية قدرات التلاميذ العقلية ، يقول الدكتور (من الملاحظ اننا في التعليم ـ نهتم أكثر من اللزوم ـ وبخاصة في مراحل الدراسة التي تسبق الدراسة الجامعية في جميع العلوم الانسانية بصورة خاصة ـ بتحفيظ التلاميذ معلومات كثيرة تفصيلية ومعرضة للنسيان .. والمعلم الذي يركز اهتمامه بالدرجة الأولى على الحفظ النصي في هذا الباب ويكتفي به ، أو يقف عنده يفوت فرصة تعليم التلاميذ ما هو أهم بنظرنا من حفظ قصيدة معقدة لأمرىء القيس ، مثلاً ، أو المتنبي ، أو الجواهري ، أو من الشعر الحديث ، وهو تذوق القصيدة والأنفعال بمضومنها الاجتماعي وبناحيتيها الفنية والجمالية التي تجعل حسه الادبي مرهفاً ويصدقُ الشيء نفسه بالشخصية التاريخية الفذة التي يهتم المدرس بحفظ تاريخ ولادتها ووفاتها وبحفظ حقائق عن سيرتها[٤٢].

٣- في مراحل التعليم الأولى لابد من السير خطوة خطوة بكل تلميذ على أنفراد من التعامل بالأشياء المحسوسة إلى التعامل مع صورها الحسية الذهنية البصرية وصولاً في آخر الأمر إلى التعامل بالمجردات والرموز والمعادلات الرياضية. أما بشأن اللغة فيرى الدكتور ضرورة توفر البيئة اللغوية الطبيعية في تعلم اللغة في سن مبكرة ، إذ يقول: ويعزى نجاح هذه الطريقة في تعلم اللغة إلى عاملين ، أحدهما فسلجي:

---

(٤٢) الأصالة /٦٩.

والآخر سيكولوجي. أي أن طبيعة دماغ الطفل مستعدة فسلجياً لتعلم اللغة إذ إن ذلك يعني تعلم الحياة وتبادل الخبرة وإشباع الحاجات.

ولأهمية اللغة تربوياً يعرض الدكتور ، لبعض المظاهر اللغوية التي تكون ذات أثر خطر في حياة المتعلم ، ولاسيما الألفاظ والتعبيرات الأنفعالية والإيحاء اللفظي ، إذ ثبت ارتباطها فسلجياً بقشرة المخ اللغوية ، إذ ترتبط التعبيرات الأنفعالية عند الانسان كما يرتبط محتواها الاجتماعي ارتباطاً وثيقاً باللغة التي لولاها لأستحال تجسيد العواطف ، أو تبلورها .. وقد ثبت أن للكلمات أثراً فسلجياً عميقاً في حياة الانسان الانفعالية ، من الناحيتين الايجابية أو السلبية. فالكلمات الجارحة تؤذي القشرة المخية عند كثير من الطلبة ، لاسيما ذوي نمط الجهاز الضعيف ، والقوي غير المتزن ونمط الفنانين ، وتزداد حدة هذا الإيذاء في أوقات الامتحانات ، ويحدث العكس عند توجيه الكلمات الرقيقة التي تبعث الثقة بالنفس(٤٣). وإلى ذلك ينبه الدكتور نوري المربين ، معلمين ومدرسين إلى ضرورة أن يأخذوا بنظر الاعتبار الحالات الانفعالية التي يمر بها الطلبة ، ولاسيما في الأوقات العصيبة التي تشمل اوقات الامتحانات بنوعيها الشفوي والتحريري ، أو عند تعرض التلميذ إلى موقف محرج مثل الأستدعاء إلى السبورة أو توجيه أسئلة فيها شيء من الصعوبة فأن ذلك قد يؤدي إلى اصابتهم بالاضطرابات العصبية ، أو إلى تبلدهم ، ولاسيما إذا رافق ذلك تأنيب ، أو إزدراء يوجهه المعلم والمدرس. ويبدو من مناقشته للظواهر التربوية عامة والتعليمية خاصة. أنه يؤكد على نحو كبير ، الجانب الاجتماعي والبيئة الثقافية التي يعيش فيها الانسان عموماً والتلميذ بوجه

---

(٤٣) اللغة والفكر/١٦٠.

خاص ، إذ يقول: إن طبيعة الانسان بعد التحليل الدقيق ثمرة تفاعل وأثر متبادل بين عوامل ثلاثة متلاحمة غير قابلة للعزل إلا لأغراض الدراسة النظرية وهذه العوامل هي:

١- البيئة الاجتماعية الكبرى: وهي البيئة التي يتعرض لتأثيرها بدرجات مختلفة جميع افراد المجتمع.

٢- البيئة الاجتماعية الصغرى أو المباشرة أو الخاصة وتشمل الأسرة أو المدرسة وجميع الظواهر الاجتماعية التي تدخل في النشاط اليومي المعتاد ، إذ من خلالها يحصل التفاعل بين مقومات الفرد السيكولوجية الخاصة ، وخبرته وميوله.

٣- مقوماته الفسلجية وهي المناطق المخية الثلاثة ، أي أن البيئة الاجتماعية ـ كما يقول الدكتور نوري جعفرـ حررت الانسان من الخضوع خضوعاً تاماً ومطلقاً لقانون التطور البايلوجي ومبدأ الانتخاب الطبيعي وظاهرة الصراع من أجل البقاء .. وهي التي نقلته إلى مستوى أعلى(٤٤).

يربط الدكتور نوري ، تطور الانسان بالقدرات العقلية التي هي حصيلة عمليتي تطور عقلي مختلفتين هما: عملية التطور الدماغي التي يتعرض لها الفرد بين الطفولة والرشد ، والأخرى عملية التطور الاجتماعي الثقافي التي من خلالها يتحول الفرد إلى راشد متعلم ، ويبدو أن العمليتين تكمل احدهما الأخرى ، أي أنهما غير منفصلتين. ويلفت نظر المربين والمعلمين إلى أن الجانب الأنفعالي له أثر فعال في حياة الفرد وتعلمه ، إذ أن دماغ الانسان

---

(٤٤) الأصالة /٨٣.

الذي يعد أداة السلوك المادية الجسيمة يقابل العوامل البيئية الايجابية بعملية اقدام ، أو إثارة أو نشاط يقابل نقيضها بعمليـــة انكمـــاش أو انسحاب أو كف ، أو توقف عـــن العمل ، وفي حقل التعليم تبـــدو المسألة ذات خطر كبير ، فالكلمات الجارحة تؤذي المخ وتزداد حدة هـــذا الأيذاء في أوقات الامتحانات ، إذ يؤدي ذلك في النهاية إلـــى مقت الدرس والمدرس وربما المدرسة والمجتمع فضلاً عن التقاعس في بذل الجهد الفكري وفقدان الثقة بالنفس(٤٥).

---

(٤٥) نفسه: ٩٤.

الخاتمـــة

إن جهود الدكتور نوري جعفر وآراءه في تفسير نشأة اللغة البشرية فسلجياً يندرج تحت فرع من فروع اللسانيات ، يسمى علم اللسانيات البايلوجي القائم على الكشف عن العلاقة بين الوظائف اللغوية والوظائف المخية أو الدماغية ، إذ أن هذا الكشف يفتح أبواباً واسعة لتفسير كثير من الظواهر اللغوية عند الانسان منذ الطفولة. ووضع الحلول المناسبة لها ولاسيما في حقلي التربية والتعليم. إن هذا الفرع من اللسانيات تفتقر إليه مؤسساتنا التربوية والتعليمية واللغوية. إن التفسير الفسلجي لنشأة اللغة البشرية وقدرة الانسان على الكلام من خلال التطورات التي حدثت في اعضاء النطق المختلفة وكذلك التطورات المخية التي حدثت في قشرة الدماغ ولاسيما في المناطق المسؤولة عن الوظائف اللغوية ، صوتاً ، وإشارات ، وعلامات ، وكذلك العلاقة بين المنظومة الإشارية الأولى ، المسؤولة عـــن الحواس ، والمنظومة الإشارية الثانية المسؤولة عن اللغة ، التي ينفرد بها الانسان. كل ذلك يجعل النظرية الفسلجية أكثر إقناعاً وعلمية من النظريات اللغوية والصوتية التي تناولت موضوع نشأة اللغة وموضوع الأصوات اللغوية.

إن ما توصلت إليه هذه النظرية جدير بالدراسة والبحث ولاسيما في حقل الدراسات اللغوية في مرحلة الدراسات العليا.

المراجـــع

١- الأصالة في مجال العلم والفن ، الدكتور نوري جعفر ، وزارة الثقافة والأعلام ، ١٩٧٩.

٢- محاضرات في الصوت والمعنى ، رومان ياكوبسون ، ترجمة منى ناظم وعلي حاكم صالح ، ط١ ، ١٩٩٤ ، بيروت.

٣- دراسة الصوت اللغــوي ، د. أحمد مختار عمر ، ط١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٦.

٤- دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح ، ط٥ دار العلم ، بيروت.

٥- علم الأصوات ، د. كمال بشر ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠.

٦- فقه اللغة ، د. عبد الحسين مبارك ، البصرة ، ١٩٨٦.

٧- فقه اللغة في الكتب العربية ، عبده الراجحي ، بيروت ، ١٩٧٩.

٨- في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين،ط ٣، بيروت،١٩٨٠.

٩- اللغة والفكر، د. نوري جعفر ، الرباط ، ١٩٧١.

١٠- اللغة والنحو ، د. حسن عون ، ط١ ، الاسكندرية ، ١٩٥٢.

١١- نظريات في اللغة ، انيس فريحة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٣.

١٢- مسودة بحث للدكتور عبد الكريم راضي جعفر ، ٢٠٠٤.

١٣- وقائع مؤتمر اللسانيات ، الرباط ، ١٩٨٣.